

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى بمكة المكرمة
كلية اللغة العربية
قسم الدراسات العليا العربية
فروع الأدب

أثر الإسلام في نقض جرير شعر الأخطل

رسالة مُقدّمة لإكمال متطلبات نيل درجّة الماجستير في الأدب العربي .
إعداد الطالب : عبد الله عطية عبد الله الزهراني .

الرقم الجامعي : ٤٢٤٨٠١٩٨

إشراف الأستاذ الدكتور :

حسن محمد باجودة .

العام الدراسي : ١٤٢٧هـ —

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص رسالة

((أثر الإسلام في نقض جرير شعر الأخطل)) .

رسالة ماجستير للباحث : عبد الله عطية عبد الله الزهراني .

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين ، سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين . وبعد :

يتناول هذا البحث ((أثر الإسلام في نقض جرير شعر الأخطل)) كيف أثار الإسلام في نقائص جرير التي نقضَ بها قصائد للأخطل ، وكيف بدا واضحاً تأثير جرير بالإسلام في تفيده ادعاءات الأخطل . وفي مقدمة هذا البحث تناولت أهميته ، وأسباب اختياره ، والدراسات السابقة له ، وخطته ، ومنهجه . وفي التمهيد تطرقت للأصل اللغوي لكلمة (نقائص) ، وتناولت نشأة النقائص ومقومات تلك النشأة ، وبعض رموز هذا الفن ، وبيّنت موقف الأخطل من الإسلام والمسلمين ، وفصلت بين هذا الموقف وبين موقف الكثير من التصاري الذين لا يشاركونه فيه ، بل هم أقرب مودة للمسلمين كما وصفهم الله بذلك في القرآن ، فهم الذين لا يستكبرون ، وهم أصحاب القلوب الرقيقة على المسلمين .

وكان هذا البحث في بائتين اثنتين :

الباب الأول: القيمُ الإيمانية والسُّلوكية بين الإسلام والتَّصرانية في ظلِّ نقضِ جريرِ شعرِ الأخطل.

وكان هذا الباب في أربعة مباحث هي :

- المبحث الأول : القيمُ الإيمانية في الإسلام على ضوء نقضِ جريرِ شعرِ الأخطل .
- المبحث الثاني : القيمُ الإيمانية في التَّصرانية على ضوء نقضِ جريرِ شعرِ الأخطل .
- المبحث الثالث : القيمُ السُّلوكية في الإسلام على ضوء نقضِ جريرِ شعرِ الأخطل .
- المبحث الرابع : الصِّفات السُّلوكية عند نصارى تغلب على ضوء نقضِ جريرِ شعرِ الأخطل .

الباب الثاني : القيمُ الفنيَّة والجَماليَّة :

وكان هذا الباب في ثلاثة مباحث هي :

- المبحث الأول : المعجم اللغوي الشعري لجرير في نقضه شعر الأخطل .
 - المبحث الثاني : بناء القصيدة .
 - المبحث الثالث : الصُّور والتراكيب والإيقاع .
- وأخيراً أُميتُ هذا البحث بخاتمة تناوَلت أهم نتائجه ، وأهم التوصيات التي يمكن الأخذ بها.

In the Name of Allah, the Merciful, the Benificent
Abstract

The Influence of Islam on Jareer's Refuting AI-Akhtal's Poetry
A Master Degree Thesis

By

Abdullah Atiyeh Abdullah AI-Zahrani

Thanks to Allah, Lord of Worlds. Prayers and Peace be upon the most honorable of prophets, our prophet Mohammed and his followers.

The study deals with the influence of Islam on Jareer's refuting AI-Akhtal's poetry and how the influence of Islam was clear in J areer' s refuting the claims of AI-Akhtal .

At the outset of the study, I highlighted its significance, reasons behind the choice of this topic, previous studies relevant to it , its plan and methodology.

In the introduction, I traced the linguistic origin of the term " Refutables " discussing its beginnings and principles, in addition to the major users of this kind of poetry .I also disclosed the grudge that AI- Akhtal bore toward Islam and Moslems. I isolated AI-Akhtal's attitude from that of other Christians who did not share him that grudge. In fact, such Christians were closer to Moslems. The Quran described them as those who did not brag of themselves and were kind-hearted toward Moslems.

The study falls into two chapters. Chapter one focuses on the behavioral and faith values in Islam and Christianity from the perspective of Jareer's refutation of al-Akhtal's poetry. This chapter is divided into the following four units:

- 1- Values of Islamic Faith in the light of Jareer's refutation of AI-Akhtal's
- 2- Values of Christianity in the light of Jareer's refutation of AI-Akhtal's
- 3- Values of Islamic behavior in the light of Jareer's refutation of AI-Akhtal's
- 4-Behavior descriptions of Taqhlil christians in the light of Jareer's refutation of AI-Akhtal,s.

Chapter two focuses on the Artistic and Aesthetic values. It is divided into three units.

The first one discusses poetic lingual lexicon of Jareer on his refuting AI-Akhtal's poetry .

The second focuses on the construction of the poem .

The third sheds light on images , structures , rhythm and tempo of the poem.

I concluded the study with findings and recommendations.

* * *

المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله معز من أطاعه وأتقاه ، ومذل من أضاع أمره وعصاه ، أحمده حمداً يملأ أرضه وسماه ، وأشكره على جزيل فضله وسوابغ نعماه ، وأشهد ألا إله إلا الله لا معبود بحق سواه ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي اصطفاه ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه ، ومن تبع هداه إلى يوم الدين أما بعد ... فإذا كانت الجاهلية وتحديد العصر الجاهلي يمثل حقبةً زمنيةً جثمت بجميع تراكماتها على معاني الإنصاف والعدل والمساواة والقيم والمثل ، وقبل ذلك خلّت من دين يوحد الناس لعبادة رب واحد؛ فإنّه وبمجيء الإسلام - هذا الغائب المنتظر - استقامت حياة البشر ، واستأنسوا بدين وحدهم في رب واحد ، وقبله واحدة ، ونبي واحد ، وهدف واحد .

غير أن هذا الدين السّمح ومن أرسل به ، ومن ناصر هذا الرسول - صلى الله عليه وسلم - كان محلّ استهزاء وكيدٍ كثير من المندسين والحاقدين ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ . أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [هود : ٢٠، ١٩] ، ومما أثار حفيظتي وآلني كثيراً تلك الآيات التي تجاوز فيها الأخطل الحدود ، وتجنّى على الإسلام والمسلمين ، وهجا الأنصار - رضي الله عنهم - لا سيّما حين قال :

ذَهَبَتْ قَرِيشٌ بِالْمَكَارِمِ وَالْعُلَا
وَاللُّؤْمُ تَحْتَ عِمَائِمِ الْأَنْصَارِ .
فَدَرُوا الْمَكَارِمَ لَسْتُمْ مِنْ أَهْلِهَا
وَخَذُوا مَسَاحِيكُمْ بَنِي النَّجَّارِ .

فإذا كان الأنصار - وحاشاهم ذلك - هم أهل اللؤم ، وهم أعداء المكارم ، فمن هم أهل الوفاء؟! ومن هم أصحاب المكارم!؟

إذا عير الطائي بالبخل مادرٌ وعير قُسا بالفهاهة باقلٌ .
وقال السُّهَي للشمسِ: أنتِ كسيفةٌ وقال الدُّجى للصبح: وجهك حائلٌ .
فيا موتُ زرُ ، إنَّ الحياةَ ذميمةٌ ويا نفسِ جدِّي إنَّ دهرَكَ هازلٌ .

ومهما كانت المبررات أو الأسباب التي حدثت بالأخطل إلى هذا الهجاء فإنها لا تسوغ له مثل ذلك .

ومن هذا المنطلق ، وبعد أن أشار عليّ سعادة الأستاذ الدكتور / حسن بن محمد

باجودة- يحفظه الله - بهذا الموضوع ، قمتُ بقراءة كتاب (تاريخ الأدب العربي - العصر الإسلامي -) للدكتور شوقي ضيف - رحمه الله - فوقفتُ على إشارة خفيفة حول تأثر جرير بالإسلام في شعره ضمَّنها الدكتور كتابه حين قال : ((أمَّا جريرٌ فلم يكن لعشيرته ولا لأبائه شيءٌ من المآثر الحميدة ، فانطوتُ نفسه على حزنٍ عميقٍ صفَّى جوهرها ، وزادَ في هذا الصَّفَاء تأثرُهُ بالإسلام إذ كان ديناً عفيفاً طاهرَ النَّفس ...)) ، ثمَّ وقفتُ على بعض الدِّراسات السابقة التي تحدّثتُ عن أثر الإسلام في شعر جرير بن عطية على نحو رسالة الدكتوراه المقدّمة من الباحث الدكتور خالد محمود محمد عزّام ، والتي بعنوان (أثر الإسلام في شعر جرير بن عطية) حيث كانت رسالة عامّة عن تأثر جرير بالإسلام في شعره ، بيد أنّ رسالتي كانت عرضاً لجزئية دقيقة جداً هي (أثر الإسلام في نقض جرير شعر الأخطل) .

ولأنّ جريراً هو من وقف في وجه الأخطل ، وناصح وناضل عن الإسلام والمسلمين ، وذبّ عن الأنصار - رضي الله عنهم - فقد ازددتُ حرصاً على الكتابة في هذا الموضوع ، فإنّ الأنصار كما قال عليه الصّلاة والسّلام : ((الأنصارُ لا يحبُّهم إلا مؤمنٌ ، ولا يبغضهم إلا منافقٌ ، فمن أحبَّهم أحبَّه الله ، ومن أبغضهم أبغضه الله)) .

وإلى جانب ذلك كانت هناك بعض الأسباب التي آثرتُ معها أن أكتب في هذا الموضوع ؛ ومنها :

أولاً : آثرتُ أن يكون موضوعُ البحث في تراثنا الإسلامي والعربي القديم حيث الأصالة ، والمرجعية العلميّة الرّاسخة ، فلم يكد يترك الأقدمون للمحدثين شيئاً ، وإذا علمنا أنّ المتأخرين قد تفرّدوا ببعض المسائل ؛ فقد استأثر الأقدمون بالنصيب الأوفر ، فكلُّ الصيد في جوف الفراء .

ثانياً : ما قد يردده بعضهم من وجود تعارض بين الإسلام وبين ما انتهجه جريرٌ في نقائضه ، بحجّة أنّ الإسلام ينهى عن الهجاء جملةً وتفصيلاً . وأنا أوافقهم في جانب حثّ الإسلام على عذوبة اللسان ، وخلوّه من البذاءة والفحش ، وأخالقهم بقولي : إنّ الإسلام دينٌ يوصي بالقوّة ، وينبذ الضّعف ،

والخضوع ، والاستسلام للخصم ، قال تعالى : ﴿وَلَمَن انْتَصَرَ بَعْدَ ظَلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ . إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الشورى : ٤١ و٤٢] .

وقد رأيتُ من خلال قراءتي للكثير من الكتب ، والرسائل العلميَّة أنَّ الباحثين لم يعطوا هذه المسألة قدرًا كافيًا من الدراسة والاهتمام ، خاصَّة في الجانب الذي يبرز ردَّ الشاعر جرير بن عطية على الأخطل ، وذبحه عن الأنصار - رضي الله عنهم - بصفة خاصَّة ، وعن المسلمين بصفة عامَّة .

ثالثًا : القدم الراسخة لجرير في ميدان الشعر ، ومضمار النقائض ، فهو شاعرٌ كبيرٌ لا يزال - في نظري - بحاجة لمزيد من البحث والدراسة .

وعندما قمت بجمع المادة العلميَّة ذات الصلة الوثيقة بموضوع البحث أعرضتُ عن الأبيات التي أتمَّها جريرٌ بالألفاظ البديئة ، والكلمات الفاحشة ، والعبارات المتبدلة ؛ تنزيهاً لهذا البحث ، والبعد به عمَّا لا يليق .

واعتمدتُ - في الغالب - على كتاب (نقائض جرير والأخطل) لأبي تمام ، في توثيق أبيات جرير المتعلقة بنقضه شعر الأخطل ، ثمَّ كان الاعتمادُ - بعد ذلك - على ديواني الشعارين وفق التُّسَخِّتَيْنِ المدوَّنَتَيْنِ في هوامش هذه الرِّسالة .

وبعد أن اخترت العنوان الذي رأيته مناسباً ، وهو (أثر الإسلام في نقض جرير شعر الأخطل) ، استعنت بالله ، وبدأتُ رسالتي بالتمهيد الذي تناولت فيه الأصل اللُّغوي للنقائض ، إلى جانب نشأتها ، ومقومات هذه النشأة ، وأفردتُ رمزين من رموزها هما جرير والأخطل بشيء من تسليط الضوء على بعض جوانب شخصية كلِّ منهما ، وعلى متزلتتهما الشعريَّة إتماماً للفائدة .

وتناولتُ في التمهيد توظيف الأخطل لبعض المعاني الإسلاميَّة فيما يخدم مصلحته ومصلحة قومه .

وقد قسمت رسالتي هذه على باين اثنتين :

الباب الأول : القيم الإيمانية والسلوكية بين الإسلام والنصرانية على ضوء نقض جرير شعر الأخطل .

وقد أدرجتُ تحت هذا الباب المباحثَ التاليةَ :

المبحث الأول : القِيمُ الإيمانية في الإسلام على ضوء نقضِ جريرِ شِعْرِ الأخطلِ ، حيث

حصرتُ تلكَ القِيمَ وفقِ إشادةِ جريرٍ بها في نقائضه مع الأخطل كما يلي :

أولاً : الأفضلية في الدنيا والآخرة .

ثانياً : الحج والتكبير والتَّهليل .

ثالثاً : المشاعر المقدَّسة .

رابعاً : السَّواك والنَّظافة والطَّهارة .

خامساً : تلاوة سور القرآن الكريم ، وأتباع هديهِ .

سادساً : نصرَةُ الرَّسولِ - صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم - والتَّصديقُ به .

سابعاً : عبادة الله في المساجد .

ثامناً : اتِّباعِ سُبُلِ النبوَّةِ .

تاسعاً : غشيان الملائكة قبور المسلمين ، واحتفاء الأرض بأجسادهم .

عاشراً : إعطاء المسلم كتابه بيمينه .

المبحث الثاني : القِيمُ الإيمانية في النَّصرانيَّةِ على ضوء نقضِ جريرِ شعرِ الأخطل ؛ حيث

تناولتُ تلكَ القِيمَ كما جاءت في شِعْرِ جريرٍ ، وصنفتُها التَّصنيفَ التَّاليَ :

أولاً : عبادة الصَّليبِ ، حيث دافعتُ عن استخدامِ جريرٍ لكلمة (عبادة) في هذا

الصَّدَدِ ، ودعَّمتُ ما ذهبْتُ إليه بالأدلة .

ثانياً : أكل لحم الخنزير .

ثالثاً : قرع النَّواقيسِ .

رابعاً : لُبْسُ برانس الرُّهبانِ .

خامساً : عيد الفِصحِ .

سادساً : إتيان النَّساءِ في الحيضِ .

المبحث الثالث : القِيمُ السلوكيَّةُ في الإسلام على ضوء نقضِ جريرِ شعرِ الأخطل :

وكانت تقسيماتي لهذا المبحث على النَّحوِ التَّاليِ :

أولاً : الخضوع لله وحده - دون سواه - وحمده وشكره .

- ثانياً : الفخر برسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وبالأمكان المقدَّسة .
- ثالثاً : طلب الشَّهادة في سبيل الله ، والتَّضَرُّع إليه بالدُّعاء سرّاً وعلانية .
- رابعاً : المسلم يَأْتَمِرُ بكلِّ ما أمر اللهُ به ، ويتنهي عن كلِّ ما نهى عنه .
- خامساً : كثرة الاستماع إلى آيات القرآن الكريم .
- سادساً : الكرم وإقراء الضَّيف وحماية النَّازِلين والدِّفاع عنهم .
- سابعاً : التَّأَثُّرُ بِاللُّغَاظِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، والحديث الشَّريف ، وبما فيهما من أحداث .
- ثامناً : العِيرة على المحارم .
- تاسعاً : إقامة العدل ، واستنكار الضَّيِّم .
- المبحث الرَّابِع : الصِّفَاتُ السُّلُوكِيَّةُ عِنْدَ نَصَارَى تَغْلِبُ عَلَى ضَوْءِ نَقْضِ جَرِيرِ شِعْرِ الْأَخْطَلِ . حيث استخلصتُ عدداً من الصِّفَاتِ مِنْ آيَاتِ جَرِيرِ الَّتِي نَقَضَ بِهَا شِعْرَ الْأَخْطَلِ كَمَا رَأَاهَا هُوَ ؛ وَتِلْكَ الصِّفَاتُ هِيَ :
- الصِّفَّةُ الْأُولَى : الذَّلَّةُ وَدَفْعُ الْجَزِيَّةِ .
- الصِّفَّةُ الثَّانِيَّةُ : الحِثْمُ عَلَى رِقَابِ نَصَارَى تَغْلِبُ بِطَايِعٍ مِنَ الرِّصَاصِ .
- الصِّفَّةُ الثَّلَاثَةُ : عَدَمُ إِقَامَةِ الْعَدْلِ ، وَعَدَمُ اسْتِنْكَارِ الضَّيِّمِ .
- الصِّفَّةُ الرَّابِعَةُ : الخوف والجبن .
- الصِّفَّةُ الْخَامِسَةُ : اللُّؤْمُ وَالْحِمَاقَةُ .
- وفي نهاية هذا المبحث ذكرتُ أَنَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ إِنَّمَا تَعْبَّرُ عَنْ رَأْيِ جَرِيرٍ ، وَتَعْبَّرُ عَنِ الْمَرْحَلَةِ النَّفْسِيَّةِ الَّتِي يَمُرُّ بِهَا فِي مَعْرُضِ هِجَاؤِهِ لِلْأَخْطَلِ ، وَحِرْصِهِ عَلَى أَنْ تَكُونَ الْعَلْبَةُ لَهُ بِأَيِّ ثَمَنِ وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ بِالْمِبَالِغَةِ الْمَفْرُطَةِ ، أَوْ بِالتَّجْنِي الزَّائِدِ .
- ثمَّ كَانَ الْبَابُ الثَّانِي الَّذِي تَضَمَّنَ الْقِيَمَ الْفَنِيَّةَ وَالْجَمَالِيَّةَ ؛ وَقَدْ كَانَ تَقْسِيمُهُ عَلَى النَّحْوِ التَّالِيِ :
- المبحث الأوَّل : المعجم اللغوي لجرير في نقضه شعر الأخطل . وقد تناولت فيه التَّقسيمات التَّالِيَةَ :
- أ- أَلْفَاظٌ مِنْ جِسْمِ الْإِنْسَانِ وَغَيْرِهِ .
- ب- أَلْفَاظٌ لِبَعْضِ الْأَمَاكِنِ وَالْمَوَاضِعِ .
- ي

ج- ألفاظ الحرب .

د- ألفاظ من الطبيعة .

هذا وقد خلصتُ في نهاية هذا المبحث ، وكما كتبتُ ذلك في الخاتمة ؛ إلى أن جريراً يملك معجماً حريياً ، ومُعجماً جغرافياً ، ومُعجماً دينياً ، ومُعجماً علمياً تشریحياً، وهذا يدلُّ دلالةً واضحةً على ثقافة الرَّجُلِ ، وسعة أفقه .

المبحث الثاني : بناء القصيدة ؛ حيث وقفتُ في بداية هذا المبحث مع قصيدة الأخطل (خفَّ القطين) ، التي نقضها جريرٌ بقصيدته (قل للديار سقى أطلالك المطرُ) لتكون من خلال تلك الوقفة الانطلاقةُ في بيان كَيْفِيَّةِ بناء جريرٍ لقصيدته . إن كلتا القصيدتين من الشعر الذي تبرز فيه اتجاهات كُلِّ من الشعارين وشخصيته في موضوع هذه الدراسة .

وانطلقت بعد ذلك لبناء تلك القصيدة من خلال إجراء المقارنات ، ومن خلال إبراز بعض الصُّور التي قامت عليها ، ثم أتيتُ بتقسيماتٍ كُلِّ من الشَّاعِرَيْنِ لقصيدته .

المبحث الثالث : الصُّور والتراكيب والإيقاع .

حيث تناولتُ فيه أولاً : الصُّور ، وكانت كما يلي :

أ (التشبيه . ب (الاستعارة . ج (الكناية .

والتراكيب ، وكانت كما يلي :

١- الطِّباق . ٢- المقابلة . ٣- الاقتباس .

ثانياً : الإيقاع : وتناولت فيه نَعَمَ الحروفِ والكلماتِ ، ثمَّ الوزن والقافية والبديع في نقض جريرٍ شعرِ الأخطلِ من خلال حصر البحور التي نظم عليها جريرٌ قصائده في نقضه شعرِ الأخطلِ والتعليقِ على تلك البحورِ ، وكيف ساعدت جريراً في هجائه لخصمه . ثمَّ تناولتُ في هذا القسم نَعَمَ الألفاظِ الداخلي في حشو البيت من خلال النقاط التالية :

١- نَعَمَ الاسم والفعل .

٢- نَعَمَ الفعل والاسم .

٣- نَعَمَ الاسم والاسم .

٤- نَعَمُ الفعل والفعل .

٥- نَعَمُ حُسْنُ التَّقْسِيمِ .

بعد ذلك كتبتُ خاتمةً تناولتُ فيها أهمّ نتائج هذا البحث ، وأهمّ التّوصيات التي يمكن الأخذُ بها .

وفي نهاية صفحات هذا البحث وضعتُ فهرساً للمصادر والمراجع ، ثم فهرساً للمحتويات .

هذا وقد قمتُ بشرح كل مفردةٍ تحتاج إلى شرح ، واستعنتُ بعددٍ من الأبيات الشعريّة الرّصينيّة المتناثرة خلال مباحث هذه الرّسالة متى وجدتُ ذلك مناسباً .

وفي كلّ مرّةٍ قمتُ فيها بقراءة هذا البحث ؛ أقومُ بالتّعديل بإحلال عبارة محلّ عبارة ، أو بالتّقديم والتّأخير ، أو بالحذف أو بالإضافة ؛ بغية الوصول إلى ما ترضى عنه النّفْسُ مطلقاً ، وإلى ما يروق للقارئ تماماً ، وفي علمي و يقيني أنّ ذلك من المحال ، فالكمال لله وحده ، والنقصُ مرْكَبُ البشرِ جميعاً .

وختاماً أسأل المولى - عز وجلّ - أن يجعلَ هذا العملَ خالصاً لوجهه الكريم ، وأن ينفع به ، وأن يجزي كل من قدم لي يد العون خير الجزاء وفي مقدمتهم سعادة الأستاذ الدكتور / حسن بن محمد باجودة ، إنه ولي ذلك والقادر عليه والحمد لله رب العالمين .

التمهيد

أولاً : النَّقَائِضُ :

أ - الأَصْلُ اللُّغَوِيُّ :

النقائض أصلها من الفعل (نَقَضَ) ، وقد وَرَدَ هذا الفعل في القرآن الكريم في صُورِ شَتَّى ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا ﴾ [النحل : ٩٢] ، وقال تعالى ﴿ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ [النحل : ٩١] ، وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ﴾ [البقرة : ٢٧] .

التَّقْضُ : إفسادُ ما أُبرِمتَ من عَقْدٍ أو بناء ، و (النَقْضُ ضدُّ الإبرام ، نَقَضَهُ يَنْقُضُهُ نَقْضًا ، وَاَنْقَضَ وَتَنَاقَضَ و النقيضة في الشعر : ما يُنْقَضُ به ؛ وقال الشاعر : إني أرى الدهرَ ذا نَقْضٍ وإِمْرَارٍ . وكذلك المَنَاقِضَةُ في الشَّعْرِ يَنْقُضُ الشاعِرُ الآخِرُ ما قاله الأوَّل ، والنقيضة الاسم يجمع على النقائض^(١) .

وفي الصِّحَاح : (التَّقْضُ : نَقْضُ البناء والحبل والعهد . والمناقضة في القول : أن يتكلم بما يتناقضُ معناه . والنقيضة في الشعر : : ما يُنْقَضُ به .)^(٢)

* * *

(١) لسان العرب ، ابن منظور ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤١٠ هـ ، (نقض) ، ٢٤٢ / ٧ .

(٢) الصِّحَاح تاج اللغة وصحاح العربيَّة ، إسماعيل بن حماد الجوهري ، تحقيق / أحمد عبد الغفور عطار ، مطابع دار الكتاب العربي ، مصر ، (نقض) ، ٣ / ١١١٠ .

ب - النَّشْأَةُ :

ذهب أحمد الشايب إلى أن النقائص نشأت مع نشأة الشُّعْر ، يقول : ((لذلك رأينا هذا الفن ينشأ في حظيرة الشُّعْر الجاهليّ طفلاً يجب ، ثمّ تستقيم قدماه فينمو سريعاً حتّى نراه شاباً قوياً ولاسيما في ظلال السيوف وبين (الأيام) ، فلمّا جاء الإسلام ظفر به فنّا موطأ الأكناف ، كثير الأبواب فاستغلّه في سبيل دولته ، حتّى إذا جاء الأمويون أشعلوه ناراً موقدةً كانت في نزعها رجعة جاهليّة عاصفة في ظل الدولة الإسلاميّة)) (١) .

فلا يمكننا أن نحدد عصرًا بعينه لنشأة هذا الفن ، وترعرعه ثمّ استوائه على سوقه !! إذ إنّ قيام أي فنٍّ من الفنون لا بدّ وأن تسبقه بعضُ الإرهاصات المُهمّدة لقيامه .

* * *

(١) تاريخ النقائص في الشعر العربي ، أحمد الشايب ، الطبعة الرابعة ، مكتبة النهضة المصرية ، ص ٢ .

ج - مُقَوِّمَاتُ النَّشْأَةِ :

لقد قامت النقائضُ على مقومات عديدة اتكأت عليها ، وكانت بمثابة الحافز الأساس لها ؛ فهناك حياة الحرب والقتال التي كانت شائعة في الجاهليَّة ، وحتماً فقد أفرزت تلك الحياة إفرازاتٍ غدَّتْ النقائض حينئذٍ فصارت القصائد مثقلةً بذكر القتلى والأسرى ، والإشادة بالانتصارات ، والمفاخرة بالأحساب والأنساب ... وهناك العامل النفسي ، وهو ما عبَّر عنه أحمد الشايب بـ (المصدر النَّفْسِي) (١) حيث إنَّه من البدهي أن مَنْ بدأ بالفخر أو المهجاء فإنَّه - لا محالة - سيجد مَنْ يقف في وجهه مُفَنِّدًا لعناصر فخره أو هجائه ، منتصراً لنفسه أو قبيلته ، أو بما يتعلَّق بهما . هذا فيما يتعلَّق بالعصر الجاهليِّ ، وأمَّا حين جاء الإسلام فقد ظهر إلى جانب ما تقدَّم - كمقوِّم من مقومات النَّقَائِضِ - عنصرُ المفاخرة بدين الإسلام ، وبما ترتَّب عليه من تغيُّرٍ في المنظومة الاجتماعيَّة حيث جاءت المُثُل الأخلاقيَّة بمجيء هذا الدِّين ، وظهرت الإمارة ، وعنَّ الجهاد كذروة سنام له ، ونحو ذلك ممَّا أضاف مخزوناً هائلاً عند شعراء النقائض ، خاصةً فيما يتعلَّق بمن يخالفهم في الدِّين ، أو بمن في دينه ضَعْفٌ ودَخْلٌ .

وحينما يتقدَّم بنا الزَّمَن لنصل إلى العصر الذهبي للنقائض . وهو العصر الأموي نجدُ السِّياسة مقوماً أساساً لها .

إنَّ السِّياسة في هذا العصر قد اختلفت عنها في عصر النَّبِيِّ - ﷺ - وخلفائه الراشدين - ﷺ - ذلك أن سياسته - عليه الصَّلَاة والسَّلَام - كانت مرتبطة بالدِّين ، وكذا سياسة خلفائه ، فلم يكن - عليه الصَّلَاة والسَّلَام - مُفَضِّلاً قوماً على قومٍ ، أو أُسرَةً على أُسرَةٍ ، أو فرداً على فردٍ إلا بالتَّقوى ، ويكفينا كشاهدٍ على ذلك قوله - عليه الصَّلَاة والسَّلَام - عندما سرَّقت المرأة المخزوميَّة فجاءه أسامة بن زيد يُكلمه في أمرها : ((لو كانت فاطمة لَقَطَعْتُ يَدَهَا)) (٢) ، وهكذا كان الحال عند الخلفاء الراشدين - ﷺ - .

(١) تاريخ النقائض في الشعر العربي ، ص ٣٩ .

(٢) صحيح البخاري ، ضبطه ورقم أحاديثه ووضع فهارسه : محمد عبد القادر أحمد عطا ، دار التقوى للتراث ، القاهرة ، مصر ، الطبعة الأولى ، ١٤٢١ هـ ، الجزء الثاني ، كتاب المناقب ، باب ذكر أسامة بن زيد ، ص : ٢٧٤ .

لكنّ الحال السياسيّة إبان العصر الأموي أخذتْ منحى آخر وكأَنَّها بدأت في الابتعاد شيئاً قليلاً عن الدِّين ، وليس أدل على ذلك من تقديم عبد الملك بن مروان للأخطل - رغم نصرانيّته - على غيره من الشعراء المسلمين .

يقول أحمد الشايب : ((ولاسيما أنّ عبد الملك بن مروان كان يؤثر الأخطل ، ويفضله على سائر الشعراء ، ويعده شاعر أمير المؤمنين لإشادته بفضله أمية ، ولموقف قومه معهم على قيس عيلان ...))^(١) . فأبي سياسة هذه السياسة التي

تصطدم مع تعاليم الإسلام والله يقول : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ

إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ... ﴾ [المجادلة : ٢٢] .

وقال الدكتور شوقي ضيف - رحمه الله - : " فالظروف السياسية في هذا العصر وضعت قيساً في صفوف المعارضة من بني أمية ، كما وضعت تغلب في صفوف أنصارهم . ومعنى ذلك أن قيساً وتغلب كانتا على طرفي نقيض في السياسة ، ... وعلى نحو ما استل رجال قيس وتغلب السيوف في هذه المعارك ، الحربية أستل شعراؤهما قصائد الهجاء في معارك لسانية " (٢) .

ولا أنسى أن أشير إلى تلك الأنشطة السياسية والحزبية التي مارسها المتممون لكل حزب سياسي في العصر الأموي فقد " رأينا أن المسلمين صاروا في أعقاب (صفين) أحزاباً ثلاثة : الخوارج ، والشيعة ، والأمويين أو الجماعة ، وبعد ذلك بقليل تنازل الحسن بن علي لمعاوية عن الخلافة جمعاً للكلمة ودرءاً للشعر " (٣)

(١) تاريخ النقائص في الشعر العربي ، ص ١٨٠ .

(٢) التطور والتجديد في الشعر الأموي ، د / شوقي ضيف ، دار المعارف ، مصر ، الطبعة الخامسة ، ص ١٦٦ ، ١٦٧ .

(٣) تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني ، أحمد الشايب ، الطبعة الخامسة ، ١٣٩٦هـ ، مكتبة النهضة المصرية ، ص ١٩٥ .

ولكل حزب من تلك الأحزاب شعراؤه الذين لا يرون غيره ، ولا يهتفون بسواه الأمر الذي مكن لنشأة فن النقائض من خلال ما يُقال من قصائد هجائية أو فخرية بين شعراء كل حزب .

وتعدُّ الحياة الاجتماعية في العصر الأموي وكذلك العصبية القبلية من أهم مقومات النقائض ، فمهما حاول المرء التَّنصُّل من حياته الاجتماعية التي يعيشها أو عاشها آباؤه أو أجداده فإنه سيجد نفسه - شاء أم أبى - جامحةً إلى تلك الحياة في صورة مفاخرةٍ بقبيلةٍ أو نَسَبٍ ، أو أرضٍ ، أو شُخُوصٍ ، ... فلا غرو في أنَّ النَّقائِض في هذا العصر قد أخذت من الحياة الاجتماعية وقوداً لها زاد من وهجها ، وأبقى شعراءها أشدَّ ولاءً وأكثرَ عطاءً لها ((فقد كان الفرزدق أشدهم جاهليةً ومفاخرةً ، وجرير أقبحهم سفاهةً ، وأحسنهم إسلاماً ، والأخطل أحرصَ على نصرانِيتهِ ، وتغلبِيتهِ ، ولزوم ذي الرِّمَّة البادية يصفها وينسب بميٍّ وخرقاء ، وكان الرَّاعي كذلك يعتسف في شعره الفلاة بغير دليل ...))^(١) .

وقد عزا الدكتور إحسان النص اشتداد العصبية القبلية في العصر الأموي إلى دواعٍ اجتماعية ، ودواعٍ سياسية وأخرى اقتصادية . فأما الناحية الاجتماعية فمردها إلى انتقال جمهور القبائل العربية من الطور البدوي إلى الطور الحضري ، ولا شك أن هذا التطور يمثل خطوة أولية في سبيل القضاء على الروح القبلية .^(٢)

وكان كذلك للمصاهرات الدور الكبير في اشتداد العصبية القبلية ذلك حين رأينا حرص خلفاء بني أمية وأشرافهم على مصاهرة الأسر العريقة النسب .

أما الدواعي السياسية فقد كانت مقوماً مهماً من مقومات اشتداد العصبية القبلية في العصر الأموي حيث إن بني أمية وجدوا في إثارة تلك العصبية في بعض الأحوال كسباً سياسياً لدولتهم " لأن اشتغال القبائل بعضها ببعض واندفاعها في تيار الخصومات القبلية

^(١) تاريخ النقائض في الشعر العربي ، ص ١٨٠ .

^(٢) العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي ، د / إحسان النص ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٣ م ، دار

الفكر ، ص ٢٥٧ .

كان قميناً بصرفها عن معارضة نظام الحكم الأموي ، كما كان قميناً بالحيلولة دون تكتل القبائل المعارضة لحكمهم وتوحيد صفوفها" (١).

ولا يخفى أن كوكبة من الشعراء ظهوروا في العصر الأموي لاسيما من عرفوا بشعراء النقائص كان لهم الدور الأقوى في إثارة تلك العصبية بين القبائل " إما من طريق مباشر من دعوتهم القوم إلى الثأر وتحريضهم على قتال القبائل المعادية لهم ، وتحديد خصوهم ، وإما من طريق غير مباشر هو تلك المفاخرات والمناقضات التي كانت تقع بينهم" (٢).

وإلى جانب كل ما تقدم فقد كانت حياة اللهو شائعة ، وكان الناس يميلون إلى الملاهي في معمعة فراغهم ((أما العوامل الاجتماعية فمرددها إلى حاجة المجتمع العربي - خاصة في البصرة - إلى ضرب من الملاهي يقطع به الناس أوقاتهم الطويلة ...)) (٣) .
وإذا علمنا أن النقائص تقوم على أغراضٍ شعريّة كثيرة ، فلا بُدَّ أن أُقرَّ هنا أن المهجاء يقع في المرتبة الأولى كغرضٍ قويٍّ لا يمكن أن تقوم التقيضة - قيامها القوي - بعيدة عنه ؛ سواءً كان ذلك قبل الإسلام أو إبان ظهوره ، أو بعد ذلك .

ولو لم يكن الأمر كذلك لما قال عليه الصلّاة والسّلام لحسان بن ثابت - ﷺ - :
((اهْجُهُمْ أَوْ هَاجِهِمْ وَجَبْرِيلُ مَعَكَ)) (٤) ، وقوله عليه الصلّاة والسّلام لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - ﷺ - :
((خَلِّ عَنْهُ يَا عُمَرُ فَلَهِيَ أَسْرَعُ فِيهِمْ مِنْ نَضْحِ النَّبْلِ)) (٥) .

(١) العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي ، ص ٢٥٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٦٩ .

(٣) تاريخ الأدب العربي - العصر الإسلامي - شوقي ضيف ، دار المعارف ، ط ٧ ، ص ٢٤١ .

(٤) صحيح البخاري ، ج ٢ ، ص ١٤٦ ، كتاب بدء الخلق .

(٥) صحيح سنن الترمذي باختصار السنن ، محمد ناصر الدين الألباني ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨ هـ ،

المكتب الإسلامي في بيروت ، الجزء الثاني ، ص ٣٧٤ . والحديث عن أنس : أن النبي - ﷺ -

- دخل مكة في عمرة القضاء ، وعبد الله بن رواحة بين يديه يمشي وهو يقول :

خَلُّوا بَنِي الْكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ اليوم نضربكم على تنزِيلِهِ .

ضَرْباً يَزِيلُ الْهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ ويذهل الخليل عن خَلِيلِهِ .

فقال له عمر : يا بن رواحة ! ، بين يدي رسول الله - ﷺ - وفي حرم الله تقول الشعر ؟

والحقيقة أن الهجاء المقذع غير المسؤول ، الذي يكون فيه هتك للعمورات ، ونطق بالحرّمات ، وخذش للمروءات هو هجاءٌ تُبغِضُهُ الطَّبَاعُ السَّلِيمَةُ ، وتهفو إليه المريضة . فما أجمل النقائض عندما تكون حميةً لله ورسوله ، ودفاعاً عن حمى الدين ، وأسوار الفضيلة ! وما أشنأها فخرًا بنسب وقبيلة ، وحمدًا بفعل باطل ، وهتكًا للأعراض والحرّمات ! وسواءً كان الهجاء تعريضاً أو كان تصريحاً فإنَّ تجنُّبَ الفاحش منه ، ومن القذف الذي يُحرِّمُهُ الإسلام هو الأجدر والأحوط .

أما بالنسبة للدواعي الاقتصادية التي أذكت العصبية القبلية في العصر الأموي فقد جاءت من رغبة كل قبيلة في الحصول على مكاسب مادية سواء كانت تلك المكاسب من مغانم الحروب ، أو ربما اتجه النزاع القبلي إلى الصراع التقليدي على موارد المياه ، ومنابت الكلاء.

ولقد استهجنْتُ كثيراً من تلك الأبيات التي أخفق فيها جريرٌ في هجائه وهو نفسه يعترف بهذه الإخفاقات في أكثر من موضع عندما راجع هجائه في أبياتٍ محدّدة عَلمَ أنّه تجاوز الحدَّ ، وجنحَ عن المقصود ، ومن ذلك ما نُقِلَ من أنّه استغفرَ ممّا قاله في جَعِثِنَ (١) حين قال :

((أَتَمْدَحُ يَا ابْنَ الْقَيْنِ سَعْدًا وَقَدْ جَرَتِ

لِجَعِثِنَ فِيهِمْ طَيْرُهَا بِالْأَشَائِمِ .

قال اليربوعيُّ : كَذَبَ عَلَيْهَا جَرِيرٌ ، قال : وكان جرير يقول كثيراً : استغفرُ الله ممّا قلتُ لجعثن ، وكانت إحدى الصالحات (((٢) .

(١) جَعِثِنَ : أخت الفرزدق لأبيه وأمه .

(٢) نقائض جرير والفرزدق ، أبو عبيدة مَعْمَرُ بن المثنى ، وضع حواشيه خليل عمران المنصور ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، لبنان ، ج ١ ، ص ٢٨٦ .

وَمِنْ هَجَائِهِ الْفَاحِشِ كَذَلِكَ قَوْلُهُ ^(١) :

ضَرَبَ الْخَمِيسُ عَلَيَّ بَنَاتٍ مُجَاشِعٍ

حَتَّى رَجَعَنْ وَهَنَّ غَيْرُ عَنَارِي .

أستغفر الله مما قاله جرير فإنه قَذَفُ يجرمه الإسلام ، والمسلم ينبغي أن يكون ملتزماً بإسلامه ، ناشراً لفضائله ، مُحَبِّباً النَّاسَ فِيهِ .

ويتعدى جرير في بعض أبياته على الفرزدق رامياً له بالفسق ، معترضاً على خَلْقَتِهِ الَّتِي خَلَقَهُ اللهُ عَلَيْهَا فيقول ^(٢) :

لَقَدْ وَلَدَتْ أُمُّ الْفَرَزْدَقِ فَاسِقًا

وَجَاءَتْ بِوَزْوَاظٍ قَصِيرِ الْقَوَائِمِ .

* * *

ثَانِيًا : مِنْ رُمُوزِ النَّقَائِضِ :

يُعتبر جرير والفرزدق والأخطل أهم رموز النَّقَائِضِ ، فهم الذين أذكوا نارها ، و حَدَّدُوا مِيدَانَهَا ، وخاضوا غمارها .. ومع ذلك فليست النَّقَائِضُ حَكَرًا عَلَيْهِمْ دُونَ سِوَاهُمْ ، ولكنهم خدموها أكثر مما خدمها غيرهم ، وبما أن البحث يتناول شاعرين اثنين هما جرير والأخطل فسوف أذكر نبذة مختصرة عن كل واحدٍ منهما إتماماً للفائدة ..

١ - جرير بن عطية : ٢٨ هـ - ١١٠ هـ :

هو جرير بن عطية بن حذيفة الخَطَفِيُّ بن بدر الكلبى اليربوعى ، ولد في اليمامة سنة ٢٨ هـ ، ومات فيها سنة ١١٠ هـ ^(٣) ، وهو من تميم وكان أشعر أهل عصره

^(١) نقائض جرير والفرزدق ، ج ١ ، ص ٢٤٧ .

^(٢) ديوان جرير ، شرح حمدو طماس ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٤ هـ ، ص ٤١٣ .

^(٣) انظر الأعلام ، خير الدين الزركلى ، الطبعة الثالثة ، ج ٢ ، ص ١١١ .

فقد عاش عمره يناضل الشعراء ويقاومهم شاعراً شاعراً ويهزمهم واحداً بعد الآخر ،
ولقد كان هجاءً شديد الهجاء .

وهو أفضل شعراء عصره وأرفعهم منزلةً شعريةً ، قال محمد بن سلام : ((ورأيتُ
أعرايياً من بني أسيد أعجبي ظرفه وروايته ، فقلت له : أيهما عندكم أشعر ؟ قال :
بيوت الشعْر أربعة : فخرٌ ومديحٌ وهجاءٌ ونسيب ، وفي كُلِّها غلب جرير ؛ قال في الفخر :

إِذَا غَضِبْتَ عَلَيَّكَ بَنُو تَمِيمٍ
حَسِبْتَ النَّاسَ كُلَّهُمُ غَضَابًا .
والمديح قوله :

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا
وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونَ رَاحٍ .
والهجاء قوله :

فَغَضَّ الطَّرْفَ إِتْكَ مِنْ نَمِيرٍ
فَلَا كَغَبًّا بَلَّغْتَ وَلَا كِلَابًا .
والنسيب قوله :

إِنَّ الْعُيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوْرٌ
قَتَلْنَا ثُمَّ لَمْ يُخَيِّنَ قَتْلَانَا)) (١) .

وقال الأصمعي (يذكر جريراً) : ((كان يَنْهَشُهُ ثَلَاثَةَ وَأَرْبَعُونَ شَاعِرًا فَيَنْبِذُهُمْ
وراء ظهره ويرمي بهم واحداً واحداً ، ومنهم مَنْ كان يَنْفِخُهُ فَيَرْمِي بِهِ ، وثبت له
الفرزدق والأخطل)) (٢) .

(١) انظر الأغاني ، أبو الفرج الأصبهاني ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٥٥ ، ج ٧ ، ص ٦٨ وما بعدها .

(٢) المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٧٢ .

وجرير من بني كليب بن يربوع ، وكان له أخوان عمرو بن عطيه ، وأبو الورد بن عطيه ، وكان له عشرة من الولد فيهم ثمانية ذكور منهم بلال من جرير وكان أفضلهم وأشعرهم^(١) .

وكان جرير يُكَنَّى بأبي حَزْرَةَ .

٢ - الأخطل : ١٩ هـ - ٩٠ هـ :

أسمه غياث بن غوث بن الصَّلْت بن طارقة بن عمرو بن التَّيْحان بن فَدَوْكَس بن عمرو ابن مالك بن حُشم بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غَنَم بن تَعْلَب الشاعر المشهور من الأرقام^(٢) .

" وقيل إن الأخطل أسمه غويث ، ويكنى أبا مالك " ^(٣)

والأخطل لقب غلب عليه ، ولقب به كما ذكر أبو عبيده بسبب أنه هجا رجلا من قومه فقال له : يا غلام ، إنك لأخطل ، فغلب عليه^(٤) . وجاء في طبقات فحول الشعراء لابن سلام : (وكان كعب سماه الأخطل ، وذلك أنه سمعه ينشد هجاء فقال يا غلام ، إنك لأخطل اللسان "^(٥) وقد نقل صاحب الأغاني أسباباً عدة في عدة هذا اللقب . وكان الأخطل في صغره يلقب دَوْبِلا ؛ لأن أمه كانت ترقصه به ^(٦) .

^(١) أنظر الشعر والشعراء ، ابن قتيبة ، تحقيق : د / مفيد قميحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٥ هـ ، ص ٣٠٤ .

^(٢) المؤلف والمختلف ، الأمدي ، تحقيق عبدالستار أحمد فراج ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٣٨١ هـ ، ص ٢١ .

^(٣) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، عبدالقادر بن عمر البغدادي ، تحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، دار الرفاعي ، الرياض ، ١ / ٤٦١ .

^(٤) الأغاني ، ٧ / ٣٤٣ إلى ٣٤٨ .

^(٥) طبقات فحول الشعراء ، محمد بن سلام الجمحي ، شرح محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني ، القاهرة ، ١ / ٤٦٢ .

^(٦) المزهري في علوم اللغة وأنواعها ، السيوطي ، شرحه وضبطه محمد أحمد جاد المولى ، علي محمد البجاوي ، محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ٢ / ٤٣٠ .

كان شاعراً مصقول الألفاظ ، حسن الديباجة ، مبدعاً في شعره ، اشتهر في عهد بني أمية بالشَّام ، وأكثر من مدح ملوكهم ، ولد سنة ١٩ هـ ، وتوفي سنة ٩٠ هـ^(١) .
وقد نشأ على المسيحية في أطراف الحيرة (بالعراق) ، " ودان بالنصرانية كأكثر أهل قبيلته ، وبقي وفياً لدينه ، برغم تعرضه — فيما بعد — للامتحان باعتناق الإسلام ؛ فقد كان كثير الاختلاط بالمسلمين ، ... " ^(٢) .
واتصل الأخطل بالأمويين وكان شاعرهم ، وقد تماهى مع الشاعر جرير ، ومع الشاعر الفرزدق .

وكما نقل الزركلي عنه أنه كان ينظم القصيدة ويسقط ثلثيها ثم يظهر مختارها^(٣) . كان يقيم أحياناً في دمشق وحيناً في الجزيرة الفراتية .
هذا وكان للأخطل منزلته الشعريّة الكبيرة فقد ((قيل للفرزدق : مَنْ أشعرُ النَّاسِ ؟ قال : كفاك بي إذا فُتخرتُ ، وبجرير إذا هجَا ، وبابنِ النَّصْرانيّة إذا امتدَح))^(٤) .
و ((سئلَ حمّادُ الرَّأويّة عن الأخطل ، فقال : ما تسألوني عن رجل قد حَبَّبَ شِعْرُهُ إِلَيَّ النَّصْرانيّة !))^(٥) .
((وقال أبو عُبيدَة : وكان أبو عمرو يُشَبِّهُ الأخطل بالنَّابغة لصحّة شِعْرِهِ))^(٦) .

(١) الأعلام ، ٥ / ٣١٨ .

(٢) تاريخ الأدب العربي ، كارل بروكلمان ، ترجمة د / عبدالحليم النجار ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، الطبعة الرابعة ، ١ / ٤٠٤ .

(٣) انظر الأعلام للزركلي ، ج ٥ ، ص ٣١٨ .

(٤) سير أعلام النبلاء ، الذهبي ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٢ هـ ، ٤ / ٥٨٩ .

(٥) الأغاني ، ٧ / ٣٤٨ .

(٦) المصدر السابق ، ٧ / ٣٤٩ .

ومع تلك المتزلة الرفيعة للأخطل في مجال الشعر إلا أنه كانت له بعض السقطات في ذلك، قال ابن سلام: " وكان الأخطل مع مهارته وشهره ، يُسَقِّط . كان مدح سِمَاكاً الأَسدي فقال :

نَعَمَ الْمُجِيرُ سِمَاكُ مِنْ بَنِي أَسَدٍ بِالْمَرْجِ ، إِذْ قَتَلَتْ جِيرَانَهَا مَضْرُ
 قَدْ كُنْتُ أَحْسِبُهُ قِينًا وَأُنْبِؤُهُ فَالْيَوْمَ طَيْرَ عَنْ أَثْوَابِهِ الشَّـرْرُ
 إِنَّ سِمَاكًا بَنِي مَجْدًا لِأَسْرَتِهِ حَتَّى الْمَمَاتِ ، وَفِعْلُ الْخَيْرِ يَتَدَرُ
 فقال سِمَاكُ : يَا أَخْطَلُ ، أَرَدْتَ مَدِيحِي فَهَجَوْتَنِي ! كَانَ النَّاسُ يَقُولُونَ قَوْلًا فَحَقَّقْتَهُ .
 وذلك حين قال : (قد كنت أحسبه قيناً)^(١) .

وقد هجا الأخطل الأنصارَ — رضي الله عنهم — فقد طلب منه يزيد أن يهجوهم ! فقال الأخطل : كيف أصنع بمكانهم ؟ أخافهم على نفسي ! قال : لك ذمة أمير المؤمنين ودمتي . فذلك حين يقول :

ذَهَبَتْ قَرِيشٌ بِالسَّمَاحَةِ وَالنَّدَى وَاللُّؤْمُ تَحْتَ عِمَائِمِ الْأَنْصَارِ^(٢)

* * *

(١) طبقات فحول الشعراء ، ١ / ٤٦٩ ، ٤٧٠ .

(٢) المصدر السابق ، ١ / ٤٦٣ .

ثالثاً : توظيف الأخطل لبعض المعاني الإسلامية لمصلحته ومصلحة قومه :

مما قاله قوله في مدح عبد الملك بن مروان (١) :

الْخَائِضِ الْعَمْرَ وَالْمَيْمُونِ طَائِرُهُ

خَلِيفَةَ اللَّهِ يُسْتَسْقَى بِهِ الْمَطَرُ .

بَنِي أُمَيَّةَ ، نُعْمَاكُمْ مُجَلَّلَةٌ

تَمَّتْ فَلَا مِنَّةَ فِيهَا وَلَا كَدْرُ .

بَنِي أُمَيَّةَ ، قَدْ نَاضَلْتُ دُونَكُمْ

أَبْنَاءَ قَوْمٍ ، هُمْ آوُوا وَهُمْ نَصَرُوا .

أَفْحَمْتُ عَنْكُمْ بَنِي النَّجَّارِ ، قَدْ عَلِمْتُ

عُلْيَا مَعَدٍّ ، وَكَأَنَّهُمْ طَالَمَا هَدَرُوا .

إلى آخر ما قاله في قصيدته ، وهو عندما يقول : (هُمْ آوُوا

وَهُمْ نَصَرُوا) كأنه وبطريقة غير مباشرة ينقض قصيدة عبد الله

ابن رواحة - رضي الله عنه - التي مطلعها (٢) :

إِنِّي تَفَرَّسْتُ فِيكَ الْخَيْرَ أَعْرِفُهُ

وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ مَا خَانَنِي الْبَصَرُ .

فينقض قول ابن رواحة :

وَلَوْ سَأَلْتَ أَوْ اسْتَنْصَرْتَ بَعْضَهُمْ

فِي جُلِّ أَمْرِكَ مَا آوُوا وَلَا نَصَرُوا .

(١) ديوان الأخطل ، ص ٨٨ - ٩٥ .

(٢) ديوان عبد الله بن رواحة ودراسة في سيرته وشعره ، د / وليد قصاب ، دار العلوم ،

الطبعة الأولى ، ١٤٠١ هـ ، ص ١٥٩ .

ومن الأبيات التي قالها الأخطل وَحَمَّلَهَا بِالرَّمُوزِ الْإِسْلَامِيَّةِ قَوْلُهُ ^(١) :

وَلَقَدْ وَطِئْتُ عَلَى الْمَشَاعِرِ مِنْ مَنِي
حَتَّى قَذَفْتُ عَلَى الْجِبَالِ جِبَالًا .

وقوله ^(٢) :

جَزَاءَ يُوسُفَ إِحْسَانًا وَمَغْفِرَةً
أَوْ مِثْلَمَا جُزِيَ هَارُونَ وَدَاوُودُ .
أَوْ مِثْلَ مَا نَالَ نُوحٌ فِي سَفِينَتِهِ
إِذِ اسْتَجَابَ لِنُوحٍ ، وَهُوَ مَنْجُودُ .
أَعْطَاهُ مِنْ لَذَّةِ الدُّنْيَا وَأَسْكَنَهُ

فِي جَنَّةٍ نِعْمَةً مِنْهَا وَتَخْلِيدُ .
فمن يقرأ هذه الأبيات أو يسمعها دون أن يعرف أن من قالها هو الأخطل يعتقد
اعتقاداً قوياً أنها لشاعرٍ مسلمٍ تربى في حياض الإسلام وغرّف من معين القرآن الكريم .
وقد أنشد أمام هشام بن عبد الملك قصيدته التي منها قوله :

وَإِذَا افْتَقَرْتَ إِلَى الذَّخَائِرِ لَمْ تَجِدْ

ذُخْرًا يَكُونُ كَصَالِحِ الْأَعْمَالِ

فقال له هشام : " هنيئاً لك أبا مالك الإسلام ! أو قال : أسلمت " ^(٣) والشواهد في ذلك
كثيرة .

^(١) ديوان الأخطل ، ص ١٩٨ .

^(٢) المصدر السابق ، ص ٧١ .

^(٣) طبقات فحول الشعراء ، ١ / ٤٩٣ ، ٤٩٤ .

* * *

البَابُ الأَوَّلُ

الْقِيمُ الإِيمَانِيَّةُ وَالسُّلُوكِيَّةُ
بَيْنَ الإِسْلَامِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ عَلَى
ضَوْءِ نَقْضِ جَرِيرِ شِعْرِ الأَخْطَلِ .

المبحث الأول :

القيم الإيمانية في الإسلام على
ضوء نقض جرير شعر الأخطل .

جريرُ بنُ عطيةَ شاعرٌ عفيفٌ قال عنه الدكتور / شوقي ضيف - رحمه الله - :
 ((أمّا جريرٌ فلم يكن لعشيرته ولا لآبائه شيءٌ من المآثر الحميدة فانطوت نفسه
 على حزنٍ عميقٍ صَفَى جوهرها ، وزاد في هذا الصفاءِ تأثيره بالإسلام إذ كان ديناً
 عفيفاً طاهر النفس)) (١) .

فهذا الصفاءُ في نفسِ شاعرنا ، وهذا العَفَافُ ، وذاك الطُّهُرُ كل ذلك كان له الكثيرُ من
 الانعكاسات الواضحة حتى رأينا شعره قد انطبع - إلى حدٍ كبيرٍ - بهذه الخصالِ الدينيّةِ ،
 وازداد الأمرُ وضوحاً حين وفقتُ على نقائضه مع الشاعرِ الأخطلِ ، ولا نستغرب إذا تبدّت
 لنا الكثيرُ من القيمِ الإيمانيةِ الإسلاميّةِ جليّةً حينَ ينقضُ جريرٌ قصيدةً للأخطلِ فكأنَّ الإسلامَ
 أصبحَ شرياناً مهماً من الشرايين التي تُغذي شعره عامّةً ، ونقائضه مع الأخطلِ خاصّةً .

وإذا كان في شعر جرير الكثير من الخروقات لمثالية الشاعر المسلم ، والعديد من
 السقطات التي يُعلق عليها شائتوه بغضهم له ، وتحاملهم عليه ، فقد كفانا مشقة الدفاع عنه
 حين أجاب عن تساؤلٍ وتعجب عثمان التيميّ حيث جاء في سير أعلام النبلاء عن عثمان
 التيميّ ، قال : ((رأيتُ جريراً وما تُضْمُّ شفتاه من التسييح ، قلتُ : هذا حالك
 وتقذِف المحصنات ! فقال : ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِيَّاتِ ﴾ [هود : ١١٥]
 وِعْدٌ مِنَ اللَّهِ حَقٌّ)) (٢) .

وَقَدْ قُمْتُ بِتَقْسِيمِ تِلْكَ الْقِيَمِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْإِيمَانِيَّةِ كَمَا جَاءَتْ فِي نَقْضِ
 جريرِ شعْرِ الأخطلِ ؛ على النحو التالي :
 أولاً : الأفضليّة في الدنيا والآخرة .
 ثانياً : الحج والتكبير والتّهليل .
 ثالثاً : المشاعر المقدّسة .
 رابعاً : السّواك والنّظافة والطّهارة .

(١) تاريخ الأدب العربي (العصر الإسلامي) ، شوقي ضيف ، دار المعارف ، مصر ،
 الطبعة السابعة ، ص ٢٨٦ .

(٢) سير أعلام النبلاء ، ٤ / ٥٩١ .

- خامساً : تلاوة سور القرآن واتباع هديته .
سادساً : نصره الرسول - ﷺ - والتصديق به .
سابعاً : عبادة الله في المساجد .
ثامناً : اتباع سبيل النبوة .
تاسعاً : غشيان الملائكة قبور المسلمين ، واحتفاء الأرض بأجسادهم .
عاشراً : إعطاء المسلم كتابه بيمينه .

* * *

أولاً : الأفضلية في الدنيا والآخرة :

يجزم المسلم الحق جزمًا أن الأفضلية له في الدنيا وفي الآخرة ، فبهذه الحقيقة جاءنا القرآن الكريم مبشّرًا المسلمين ، ومهنئًا لهم ، قال الله تعالى :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً ۖ

وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٩٧] .

قال ابن كثير : ((هذا وعد من الله تعالى لمن عمل صالحاً وهو العمل المُتَابِع لكتاب الله تعالى وسنة نبيه - ﷺ - من ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى من بني آدم وقلبه مؤمن بالله ورسوله وأن هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله ؛ بَأَن يُحْيِيَهُ اللهُ حَيَاةً طَيِّبَةً فِي الدُّنْيَا وَأَن يَجْزِيَهُ بِأَحْسَنِ مَا عَمِلَهُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ...)) (١) .

فَتَلَقَّفَ جَرِيرٌ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ فَأَكَّدَ فَخَوَاهَا فِي قَوْلِهِ (٢) :

لَنَا الْفَضْلُ فِي الدُّنْيَا وَأَنْفُكَ رَاغِمٌ

وَنَحْنُ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَفْضَلُ .

إنَّه يفتخر على الأخطل بأن قومه أفضل من الأخطل وقومه ؛ سواءً كان ذلك الفضل في الدنيا أو في الآخرة ، وما ذلك بإرادة الأخطل وإنما هي حقيقة سلّم بها الأخطل أم لم يُسلّم . ولهذا قال : ((وَأَنْفُكَ رَاغِمٌ)) ومعلوم أن الرغام هو الثرى ، وقيل الثراب اللين وليس بالدقيق ، ويُقال : رَغَمَ أَنْفُهُ إِذَا خَاسَ فِي التُّرَابِ (٣) .

(١) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة السادسة ، ١٤١٣ هـ ، ج ٢ ، ص ٦٠٦ ، ٦٠٧ .

(٢) نقائص جرير والأخطل ، الإمام الشاعر أبو تمام ، دار المشرق ، بيروت ، لبنان ، ١٩٢٢ ، ص ٦٩ .

(٣) لسان العرب ، ٢٤٧/١٢ .

وفي الحديث الشريف عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله - ﷺ - :
 ((رَغِمَ أَنْفُهُ ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُهُ ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُهُ)) قيلَ : مَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ :
 ((مَنْ أَدْرَكَ وَالِدِيهِ عِنْدَ الْكِبَرِ ، أَحَدَهُمَا أَوْ كِلَيْهِمَا ، ثُمَّ لَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ)) (١) .
 ونلاحظ في بيت جرير السابق أنه راعى في ترتيب الأفضلية من كونها أفضلية في الدنيا
 أولاً ثم يعقبها أفضلية في الآخرة ما ورد من ترتيب لها في آية سورة النحل السابقة ،
 ولا أحسب ذلك من قبيل الصدفة وإنما هو أمرٌ تنبّه له جريرٌ جيداً ونظّم بيته على
 أساسه ، فله درّه من شاعرٍ متأثرٍ بالإسلام إلى هذا الحد في الوقت الذي نرى الكثير من
 الشعراء يضرب عن الإسلام صفحاً إلى أن يتأثر بأفكار وبمدارس فكرية جنحت عن
 الصواب ، وابتعدت عن الجادة .

ولقد أجاد جرير في هذا البيت أيما إجادة حيث قدّم المُسند وهو قوله : (لَنَا) على
 المُسند إليه ، وهو قوله : (الفضل) وفي ذلك فائدة بلاغية لا تخفى ، وهي إفادة قصر
 المسند على المسند إليه ، فكأنَّ الفضل مقصورٌ على جرير وقومه دون غيرهم ، وهذا يجعلنا
 نتذكر قبل كل ذلك قوله تعالى : ﴿ ... لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ
 يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [الروم : ٤] ، فله تعالى وحده دون سواه الأمر ، كما أن له
 - عز وجل - وحده دون سواه الخلق .

ويواصل جرير التعلُّل في تلك الأفضلية خاصة فيما يتناول جانبها الأول فيقول (٢) :

إِنَّ الَّذِينَ اجْتَبَوْا مَجْدًا وَمَكْرُمَةً

تَلَكُمُ قُرَيْشِي ، وَالْأَنْصَارُ أَنْصَارِي .

والمعنى : أن الذين كسبوا المجد والمكارم هم قريش والأنصار . وقريش هنا
 يقصد بهم المهاجرين - ﷺ - .

(١) انظر صحيح مسلم ، تحقيق : أحمد زهوية ، أحمد عناية ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ،
 الطبعة الأولى ، ١٤٢٥ هـ ، ص ١٠٦٠ .

(٢) انظر نقائض جرير والأخطل ، ص ١٤٢ .

والمهاجرون والأنصار يُحِبُّهم جرير حُبًّا جَمًّا ويشرُّفُ بهم ويفخر ، وهو هنا يُعرِّضُ بالأخطل وقومه من التَّغْلِييين الَّذِينَ لا أجد لهم ، ولا مكارم يفخرون بها ، وليس لهم من الشَّرِّف ولا من المفاخر شيء - على حد قول جرير - .

ونلاحظ التَّعبير الدَّقِيق لجرير في قوله : (قريشي) و (أنصاري) فَإِنَّ المهاجرين والأنصار يُحِبُّهم جريرٌ حُبًّا شَدِيدًا إلى الحَدِّ الذي يَدَّعِي معه أَنَّ كلاًَّ منهما أهله وخاصته ، فلم يقل : (تَلْكُمْ قريش) وإنما قال : (تَلْكُمْ قُريشِي) ، ولم يَقُل : (وَالْأَنْصَارُ أَنْصَارٌ) وإنما قال : (وَالْأَنْصَارُ أَنْصَارِي) فهم جميعاً يسكنون في سويداء القلب و يبلغون شِغَافَه .

ويقول جرير^(١) :

إِنَّا تَفْضَلُ فِي الْحَيَاةِ حَيَاتِنَا

وَنَسُودُ مَنْ دَخَلَ الْقُبُورَ قُبُورًا .

اللَّهُ فَضَّلَنَا وَأَخْزَى تَغْلِبًا

لَنْ تَسْتَطِيعَ لِمَا قَضَى تَغْيِيرًا .

إنَّ جريراً في هذين البيتين يَسْتَمِرُّ في هجائه الأخطلَ ذَاكِرًا تَفْضِيلَ اللَّهِ - سبحانه - له ولقومه ، في الوقت الذي أخزى التَّغْلِييين وأذَلَّهُم . ثُمَّ أَكَّدَ جريرٌ أَنَّ هذا الأمر لا يستطيع الأخطل أن يغير فيه شيئاً لأنَّ اللَّهَ قَضَى به وَقَدَّرَ ، وهنا يتبيَّن لنا تَأَثُّر جرير بالإسلام فهو يُؤْمِنُ إيمَانًا قَوِيًّا بقضاء الله ، ويؤمن بأنَّ اللَّهَ إِذَا قَضَى أَمْرًا فلن يستطيع أحدٌ تغييره .

فقضاء الله جعل الأفضليَّة لجرير وقومه في الدنيا ، وجعل السيادة لهم والعزة مصاحبة لهم حتَّى في قبورهم - على حد قوله - ، وهو ما يدل على تَأَثُّر جرير بالإسلام في قضية الحياة البرزخية في القبر ، وما يلقاه فيها الإنسان سواء كان مسلماً أو كافراً .

(١) ديوان جرير ، ص ٢٠٤ .

وحين يقول جرير (١) :

مَا فِيكُمْ حَكْمٌ تُرْضَى حُكُومَتُهُ

فِي الْمُسْلِمِينَ ، وَلَا مُسْتَشْهَدٌ شَارِي .

يقصد أن الأخطل وقومه - لأنهم من تغلب - فَإِنَّ حُكْمَهُمْ مَرْفُوضٌ ، ولا يرضاه أحد من المسلمين ، فالحكم من التغلبيين لا يرضى المسلمون بحكمه ، والشاهد منهم لا تُقبل شهادته ، وليس فيهم رجل شارٍ أي مُقدّم في قومه ، فالعزة لله ولرسوله - ﷺ - وللمؤمنين ، وليس لكافر سلطان على مؤمن ﴿ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى

الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ [النساء : ١٤١] ، قال ابن عباس : ((ذاك يوم القيامة)) (٢) ، ((ويحتمل أن يكون المعنى : أي في الدنيا بأن [لا] (٣) يُسلطوا عليهم استيلاء استئصال بالكليّة وإن حصل لهم ظفرٌ في بعض الأحيان على بعض الناس فإن العاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة)) (٤) .

ومفهوم المخالفة في هذا البيت والمعنى الذي يرمى إليه جرير هو أن الحكم الذي يرضى حكمه ، والشاهد الذي يرضى شهادته ، والرجل المُقدّم في قومه ، كلهم إنما هم من المسلمين لا من غيرهم .

وهذه العزة التي تفوّه بها جرير لم تكن لتحصل لولا ذلك الأثر القوي للإسلام فيه ، وهذا الاعتداد بالدين هو المصدر الأساس لكل هذه المعاني القويّة .

وقد يكون مراد جرير بـ (المستشهد الشّاري) هو المُستشهد في سبيل الله الذي شرى نفسه : أي باعها بالجهاد (٥) .

وأنا أرحح المعنى الأوّل الذي ذكرته في معنى المستشهد الشّاري وهو الشاهد المُقدّم في قومه لأنّ بداية البيت تُوحى بذلك فالحكم والرّضا بحكمه يقابله الشّاهد وقبول شهادته .

(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٤٧ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ، ١ / ٥٨٠ .

(٣) [لا] زيادة لتوضيح المعنى فقط .

(٤) المصدر السابق ، ١ / ٥٨٠ .

(٥) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٤٧ .

ثانياً : الْحَجُّ وَالتَّكْبِيرُ وَالتَّهْلِيلُ :

يقول جرير (١) :

فَبَحِ الْإِلَهِ وَجُوهَ تَغْلِبَ كَلَّمَا

شَبَحَ الْحَجِيجُ وَكَبَّرُوا إِهْلَالَ .

عَبَدُوا الصَّلِيبَ وَكَذَّبُوا بِمُحَمَّدٍ

وَبَجِبْرَيْلَ وَكَذَّبُوا مِيكَالًا .

يدعو جرير على الأخطل وقومه بأن يُقْبَحَ اللهُ وجوههم كلَّما

شَبَحَ الحجيج أي : رَفَعُوا أَيْدِيَهُمْ ، لَأَنَّ الشَّبْحَ (رَفَعَ الأيدي بالتَّلبِية والتَّكبير أيضاً) (٢) .

وهم يَسْتَحِقُّونَ هذا الدُّعاء بالتَّقْبِيحِ لأنَّهم كَذَّبُوا مُحَمَّدًا

- ﷺ - وَكَذَّبُوا جبريلَ وميكائيلَ - عليهما السَّلَام - . وقبل

ذلك عَبَدُوا الصَّلِيبَ الَّذِي يرمز - على حَدِّ زَعْمِهِمْ - لِصَلْبِ

المسيح عيسى بن مريم - عليه السَّلَام - وهو لم يَصْلَبْ وإِنَّمَا هي

أَكْذُوبَةٌ وَفِرْيَةٌ افترأها اليهودُ يَدْحَضُهَا القرآن الكريم كما قال

تعالى : ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا

قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا

لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أَتْبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ

وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ [النساء : ١٥٧ ، ١٥٨] .

(١) نقائص جرير والأخطل ، ص ٨٧ .

(٢) المصدر السابق ، نفس الصفحة ، وفيها أيضاً أن (الشَّبْحُ) رفعك

يدك في الدعاء ، والشَّبْحُ : مدك الرجل للضرب بالسوط ، والشَّبْحُ :

الصلب ، شبحه إذا صلبه .

ولله دَرُّ القائل (١) :

عَجَبًا لِلْمَسِيحِ بَيْنَ النَّصَارَى

وَأَلَى أَيِّ وَالِدٍ نَسَبُوهُ ! .

أَسَلَمُوهُ إِلَى الْيَهُودِ وَقَالُوا :

إِنَّهُمْ بَعْدَ ضَرْبِهِ صَلَبُوهُ .

فَإِذَا كَانَ مَا يَقُولُونَ حَقًّا

وَصَحِيحًا فَأَيْنَ كَانَ أَبُوهُ ؟ ! .

حِينَ خَلَّى ابْنَهُ رَهَيْنَ الْأَعَادِي

أَتَرَاهُمْ أَرْضَوْهُ أَمْ أَغْضَبُوهُ ؟ .

وإذا كانت عبادة النَّصَارَى لِلصَّليب سبباً مُهمّاً بَرَّرَ به جريرُ دعاءه عليهم بالتَّقْبِيح فهو أيضاً ينفي به من وَجْهَةٍ أُخرى الشُّرْكَ عنه وعن قومه لأنَّه مسلمٌ مُوحِّدٌ بالله وحده لا شريك له ، يحاول أن يكون أقرب إلى التَّوْحِيد الخالص ، وليس في عقيدته كَدْرٌ ولا لَبْسٌ . فلا مكان عنده لعبادة صليب ، ولا يخالط فكره تكذيب محمدٍ ﷺ - أو بجبريل - عليه السَّلَام - السَّفِير بين الله وأنبيائه (٢) . أو بميكائيل - عليه السَّلَام - وهو المَلَكُ الموكَّلُ بالنباتِ والقَطْرِ (٣) ولا بغيرهم من الأنبياء والرُّسُل لأنَّ الإيمانَ بالملائكة والإيمانَ بالرُّسُلِ ركنان من أركان الإيمان ، وجرير يعي ذلك تماماً ، ويعي أنَّ الأخطلَ وقومه بعيدون كلَّ البعد عن صفاء الإسلام .

وجريرٌ حين يجعل من تكذيب الأخطل وقومه بالرُّسُلِ وبجبريل وميكائيل حجةً تُسوِّغُ له الدعاء عليهم بالتَّقْبِيح كَلِّمًا رفع الحجيجُ أيديهم بالتُّلبية والتَّكْبِيرِ إِنَّمَا يضع القرآن الكريم أمام عينيه متمثلاً آياته المحكِّمة . وكأني به حين نَظَمَ هذا البيتَ واضِعاً آيةً من

(١) انظر صفوة التفاسير ، محمد علي الصابوني ، دار القلم ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الخامسة ، ١ / ٣١٩ .

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم ، ١ / ١٣٧ .

(٣) المصدر السابق ، نفس الجزء ونفس الصفحة .

كتاب الله أمامه وهي قوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ

وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة : ٩٨] .

فَالَّذِي يَعَادِي اللَّهَ وَيُعَادِي مَلَائِكَتَهُ الْأَبْرَارَ الْمُقْرَبِينَ ، ويعادي رُسُلَهُ الَّذِينَ اصْطَفَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ، ويعادي على وجه الخُصُوصِ جبريلَ وميكائيلَ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَبْغِضُهُ وَيَعَادِيهِ كَائِنًا مَن كَانَ وليس فقط من نَزَلَتْ فِيهِمْ هَذِهِ الْآيَةُ ، وهم اليهود . ((وَلَمَّا كَانَ سَبَبُ نَزُولِ الْآيَتَيْنِ ^(١) الْكَرِيمَتَيْنِ مَوْقِفَ الْيَهُودِ مِنَ الْمَلَائِكَيْنِ الْكَرِيمَيْنِ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ فَقَدْ كَانَ حَدِيثَ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ شَامِلًا لِهَذِهِ الْوَجْهَةِ مَنْعُطًا مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْمَلَائِكَةِ إِلَى هَذَيْنِ الْمَلَائِكَيْنِ الْكَرِيمَيْنِ . إِنَّ مَنْ اسْتَمَرَّ عَلَى عِدَاوَتِهِ لَجِبْرِيلَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَهُوَ الَّذِي لَا يَعُصِي اللَّهَ - تَعَالَى - مَا أَمَرَهُ وَلَا يَفْعَلُ إِلَّا مَا أَمَرَهُ بِهِ جَلَّ وَعَلَا ، فَذَلِكَ مَعْنَاهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَعَالَى ، وَإِنْ أَتَشَحَّتْ هَذِهِ الْعِدَاوَةُ ظَاهِرًا بِسَوَادِ الْبَعْضِ لَجِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ...)) ^(٢)

وَإِذَا كَانَ اللَّهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ قَدْ خَصَّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ بِالذِّكْرِ فَهُوَ مِنْ قَبِيلِ ذِكْرِ الْخَاصِّ بَعْدَ الْعَامِّ لِلتَّشْرِيفِ وَالتَّعْظِيمِ ((فَإِنَّهُمَا دَخَلَا فِي الْمَلَائِكَةِ فِي عَمُومِ الرُّسُلِ ثُمَّ خُصِّصَا بِالذِّكْرِ لِأَنَّ السِّيَاقَ فِي الْإِنْتِصَارِ لَجِبْرَائِيلَ وَهُوَ السَّفِيرُ بَيْنَ اللَّهِ وَأَنْبِيَائِهِ ، وَقَرَنَ مَعَهُ مِيكَائِيلَ فِي اللَّفْظِ لِأَنَّ الْيَهُودَ زَعَمُوا أَنَّ جِبْرِيلَ عَدُوَّهُمْ وَمِيكَائِيلَ وَلِيُّهُمْ فَأَعْلَمَهُمْ - اللَّهُ تَعَالَى - أَنَّ مَنْ عَادَى وَاحِدًا مِنْهُمَا فَقَدْ عَادَى الْآخَرَ وَعَادَى اللَّهُ أَيْضًا ...)) ^(٣) .

وَهَذَا مَا جَعَلَهُ جَرِيرٌ فِي ذَهْنِهِ عِنْدَمَا خَصَّ الْمَلَائِكَيْنِ كِلَيْهِمَا بِالذِّكْرِ فِي الْبَيْتِ السَّابِقِ تَشْرِيفًا وَتَعْظِيمًا لِهَذَا .

إِنَّهُ التَّأَثُّرُ الْوَاضِحُ بِالْإِسْلَامِ حِينَ يَجْعَلُ الْأَدِيبُ وَالشَّاعِرُ الْمُسْلِمُ مِنْ دِينِهِ نَبْرَاسًا لَهُ ، وَمِنْهَا يَسِيرُ وَفَقَّ تَعَالِيمَهُ ، بَلْ وَيَسْتَفِيدُ مِنْ كُلِّ تَوْجِيهِ مَبَاشِرٍ أَوْ غَيْرِ مَبَاشِرٍ ، وَمِنْ كُلِّ مَوْضِعٍ تَشَبَّحَ هُنَا وَهُنَا ، وَهَذَا مَا كَانَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - فِي تَطْبِيقِهِ لِكُلِّ

^(١) يقصد الآيتين ٩٧ ، ٩٨ من سورة البقرة .

^(٢) تأملات في سورة البقرة ، د : حسن محمد باجودة ، مكتبة دار مصر ، ١ / ٥٦٢ .

^(٣) انظر تفسير القرآن العظيم ، ١ / ١٣٧ .

ما جاء في القرآن الكريم ، فعن سعد بن هشام بن عامر في قول الله - عز وجل - :
﴿ وَأَنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ قال : سألت عائشة - رضي الله عنها - : يا أمّ المؤمنين أنبئيني عن خلق رسول الله - ﷺ - فقالت : أتقرأ القرآن ؟ فقلت : نعم .
فقالت : ((إِنَّ خُلُقَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الْقُرْآنُ)) (١) . بمعنى أنه كان قرآناً
يسيرُ على الأرض ، يتخلّق بالقرآن ، وينطق بالقرآن ، ويسير والقرآن في صدره ، ويحكم
بين الناس والقرآن أمامه ، ... وهكذا يجب على المسلم أن يكون .

وفي معرض تأثر جرير بالإسلام في نقضه لشعر الأخطل يستمر في الضرب على وتر
القيم الإيمانية في الإسلام والتي قام الدّين عليها وفي مقدمتها الحجّ إلى بيت الله الحرام الذي
يُعتبر الركن الخامس من أركان الإسلام . فحين ينوي المسلم الخروج إلى الحجّ فإنه يدير
ظَهْرَهُ لِلدُّنْيَا ، ويزهد في زخارفها قاصداً ثواب الله - عز وجل - والتحلل من الذنوب ،
والرجوع بعد الحجّ - إن كتبَ الله له عمراً - نقيّاً من الخطايا مستشعراً قول النبي
- ﷺ - : ((مَنْ حَجَّ لَهِ فَلََمْ يَرْفُثْ (٢) ، وَلَمْ يَفْسُقْ (٣) ، رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ)) (٤)
وأما الأخطل وقومه فإذا حجّوا أخذوا أموالهم معهم ، وساروا والدنيا أمامهم ، وعن أيّمانهم
وعن شمائلهم ، وفي قلوبهم ، وفوق ذلك لا يتطهّرون ، وفي ذلك قال جرير (٥) :

قَوْمٌ إِذَا جَمَعُوا جَمَعًا لِحَجِّهِمْ
صَرُّوا الْفُلُوسَ ، وَحَجُّوا غَيْرَ أَبْرَارٍ .

(١) المستدرک علی الصحیحین ، الإمام الحافظ أبو عبد الله الحاكم النيسابوري ، دار الفكر ، بيروت ،
لبنان ، ١٣٩٨ هـ ، ٤٩٩ / ٢ . قال الحاكم عن هذا الحديث : هذا حديث صحيح على شرط

الشيخين ولم يخرجاه .

(٢) الرّفث : الجماع .

(٣) يفسق : لم يأت بسيئة .

(٤) صحيح البخاري ، ١ / ٣٦٨ ، كتاب الحجّ .

(٥) نقائص جرير والأخطل ، ص ١٤٧ .

ويقول (١) :

تَلْقَى الْأَخِطِلَ فِي رَكْبِ مَطَارِفِهِمْ

بُرُقُ الْعَبَاءِ ، فَمَا حَجُّوا وَلَا اعْتَمَرُوا .

فجرير هنا يهجو التَّغْلِييِينَ ، وفي مقدمتهم الأخطل بِأَنَّهُمْ يَلْبَسُونَ الْمَطَارِفَ وَالْعَبَاءَاتِ كَمَا تَلْبَسُهَا النِّسَاءُ ، ومعلوم أَنَّ الْمَطَارِفَ هِيَ (أردية من خزٍّ مربَّعة لها أعلام ، وقيل ثوب مربَّع من خزٍّ له أعلام) (٢) ، ومن ذلك قول أنس بن النَّضْرِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - (٣) :

فَيَا رَبِّ إِنْ حَانَتْ وَفَاتِي فَلَا تَكُنْ

عَلَى شَرْجَعٍ يُعَلَى وَخُضْرٍ الْمَطَارِفِ (٤) .

وكما قال آخر (٥) :

وإِنَّا لَنُجْرِي بَيْنَنَا حِينَ نَلْتَقِي

حَدِيثًا لَهُ وَشِيٌّ كَحَبْرِ الْمَطَارِفِ .

ويهجوهم كذلك بِأَنَّهُمْ لَا يَحْجُونَ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ ، وَلَا يَعْتَمَرُونَ كَالْمُسْلِمِينَ . وفي بيت آخر يقول جرير (٦) :

الْجَاعِلِينَ لِمَارِ سَرْجَسَ حَجَّهُمْ

وَحَجِيجُ مَكَّةَ يُكْثِرُ التَّكْبِيرَا .

(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٧٦ .

(٢) لسان العرب ، ٩ / ٢٢٠ .

(٣) انظر على شبكة الإنترنت موقع : <http://www.heartsctions.com/courage.htm>

وهو بيت من عدة أبيات يقول فيها :

وَلَكِنْ أَحْنُ يَوْمِي سَعِيدًا وَفْتِيَةً
عَصَائِبَ مِنْ شَيْبَانَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ
إِذَا فَارَقُوا دُنْيَاهُمْ فَارَقُوا الْأَذَى
(٤) الشرجع : الطويل ، والمراد النعش .

(٥) البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار الجليل ، بيروت ، لبنان ، ١ / ٢٨١ .

(٦) انظر ديوان جرير ، ص ٢٠٥ .

ويستمر جرير في هجائه الأخطل وقومه من التغلبيين بأن حجَّهم إنما يجعلونه لـ (مَارَ سَرَجِسَ) : وهو ((من الأولياء الذين يتعبد لهم بنو تغلب وكانوا يحملون علمه في معاركهم .))^(١) بينما يجعل المسلمون حجَّهم خالصاً لله - تعالى - في مكة المكرمة حيث يُكثرون من التكبير ، وهنا يُبرز جرير قيمة إيمانية من قيم الإسلام يفتخر بها في مواجهة خصمه ألا وهي قيمة عدم الإشراف بالله مُتمثلة في صرف عبادة من أهم العبادات ، (وهي الحج إلى بيت الله الحرام) لله - تبارك وتعالى - دون الإشراف معه ، ودون صرف شيء منها لغيره .

وهنا لفتة لطيفة في بيت جرير تُرسخ التوحيد الخالص ، وتنفي الشرك ، وتطرد غواية الشيطان ، وتحمي مداخل الإيمان من أن يتطفل عليها ما يחדش التوحيد ، وتقاوم لوثات الجهل والهوى ألا وهي قوله: (يُكثِرُ التَّكْبِيرَا) وهو قول : الله أكبر ؛ فالحاج المسلم يصلِّي لله ، ويدبح لله ، ويدعو الله ، ويطوف حول الكعبة لله ، ويسعى بين الصفا والمروة لله ، ويقف في عرفات لله ، ... ﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴿ [الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣] .

وهذا التوحيد الخالص النقي لله - تعالى - يقابله الكفر عند الأخطل وقومه ويقابله الشرك المنافي للتوحيد ، فليستعد المسلمون بتوحيدهم ، وليشقق التغلبيون بكفرهم وبشركهم .

^(١) شرح ديوان جرير ، تاج الدين شلق ، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة ،

ثالثاً : المَشَاعِرُ الْمُقَدَّسَةُ :

تخطى المشاعر المقدسة في مكة المكرمة باحترام وإجلال عند المسلمين ، وفي اهتمامهم بها ، والشعور بالمهابة أمامها تعظيم لشعائر الله ، وتعزيز للتقوى ، ودليل على قوة الإيمان . وعلى ذلك فقد واجه جرير الأخطل بأن ذكره بتلك المشاعر المقدسة التي تنتشر في مهبط الوحي في مكة المكرمة كما في صعيد عرفات الطاهر ، وفي منى وفي غيرها من البقاع الطاهرة .

قال جرير ^(١) :

هَلْ تَمْلِكُونَ مِنَ الْمَشَاعِرِ مَشْعَرًا

أَوْ تَنْزِلُونَ مِنَ الْأَرَكَ ظِلَالًا ؟ .

إن جريراً وهو يهاجم الأخطل ويهجوّه إنّما يشير إلى تفریط التعلّيبين في جنب الله تعالى ، وانحرافهم بالمناسك عن غايتها ؛ فالمشاعر المقدّسة في الإسلام محدّدة معلومة ، والمناسك واضحة جليّة . ولهذا فإنّ صيغة الاستفهام الإنكاري التي جاء بها جرير في هذا البيت إنّما جاء بها ليعبّر عن الهدف الذي يريد الوصول إليه ، وهو نفي أن يكون التعلّيبون - ومنهم الأخطل - يملكون مشعراً كتلك المشاعر المقدّسة التي يملكها المسلمون والتي هي مواضع لمناسك الحجّ عندهم ، وبذلك فإنّ أولئك النصارى لا يقومون بشعائر الحجّ كما يقوم بها المسلمون .. ومن هنا يتبيّن لنا الفهم العميق - الذي يملكه جرير - للغاية الصحيحة من الحجّ في مختلف الديانات ، يُعيّنه في ذلك ويؤازره ما جاء في القرآن الكريم من آيات تكشف اختلاف المناسك بين الأمم ، قال تعالى :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةٍ

الْأَنْعَامِ فَإِنَّهُمْ كَأَنَّ لَّهُمَّ وُجُوهًا مَّا يَدْرُونَ ﴾ [الحج : ٣٤] ،

وقال تعالى : ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ... ﴾ [الحج : ٦٧] .

(١) انظر نقائص جرير والأخطل ، ص ٩٢ .

قال ابن جرير : ((وَأَصْلُ الْمَنَسَكِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ هُوَ الْمَوْضِعُ الَّذِي يَعْتَادُهُ الْإِنْسَانُ وَيَتَرَدَّدُ إِلَيْهِ إِمَّا لِحَيْرٍ أَوْ شَرِّ قَالَ : وَلِهَذَا سُمِّيَتْ مَنَاسِكُ الْحَجِّ بِذَلِكَ لِتَرَدُّدِ النَّاسِ إِلَيْهَا ، وَعَكُوفِهِمْ عَلَيْهَا)) (١) .
وقال الشُّوكَانِي - رحمه الله - : ((أَيُّ لِكُلِّ قَرْنٍ مِنَ الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ وَضَعْنَا شَرِيعَةً خَاصَّةً ، بِحَيْثُ لَا تَتَخَطَّى أُمَّةٌ مِنْهُمْ شَرِيعَتَهَا الْمَعِينَةَ لَهَا شَرِيعَةً أُخْرَى ...)) (٢) .

والأصل في المناسك أن يوحد الله - تعالى - فيها ولكن الأمم السابقة انحرفت عن هذه الغاية ، ومنهم النَّصَارَى ، يقول أبو الحسن التَّدَوِي : ((وَلِلْحَجِّ أَيَّامٌ مَعِينَةٌ يَسْمِيهَا الْيَهُودُ فِي الشَّرْقِ وَشَمَالِي أُفْرِيْقِيَا أَيَّامَ الزِّيَارَةِ ، وَقَدْ شَاعَ فِيهِمْ أَنْ يَزُورُوا فِيهَا قُبُورَ عِظْمَائِهِمْ ، ...)) (٣) . ويقول : ((أَمَا الْحَجُّ وَالزِّيَارَةُ عِنْدَ الْمَسِيحِيِّينَ ، فَهِنَا خِلَاصَةٌ لِمَا جَاءَ فِي ((دَائِرَةِ مَعَارِفِ الْأَدْيَانِ وَالْأَخْلَاقِ)) : ((الْحَجُّ اسْمٌ لِلرَّحْلَةِ الَّتِي يَقُومُ بِهَا الْإِنْسَانُ لَزِيَارَةِ الْمَشَاهِدِ الْمُقَدَّسَةِ ، مِثْلَ مَشَاهِدِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَوِيَّةِ لِسَيِّدِنَا عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي فِلَسْطِينَ ، أَوْ مَرَاكِزِ زَعْمَاءِ الدِّينِ الْمُقَدَّسَةِ فِي ((رُومَا)) أَوْ الْأَمْكِنَةِ الْمُقَدَّسَةِ الَّتِي تَنْسَبُ إِلَى الْمُقْبُولِينَ مِنَ الزُّهَّادِ وَالشُّهَدَاءِ)) (٤) .
ويقول : ((أَمَا الدِّيَانَاتُ الْهِنْدِيَّةُ فَقَدْ كَثُرَتْ فِيهَا الْمَشَاهِدُ وَالْمَعَابِدُ ، وَالْأَمْكِنَةُ الْمُقَدَّسَةُ ... وَأَكْثَرُ هَذِهِ الْمَشَاهِدِ وَالْأَمْكِنَةِ الْمُقَدَّسَةِ عَلَى سَاحِلِ نَهْرِ ((الْكَنْجِ)) (GANGES) الْمُقَدَّسِ ، يَجْتَمِعُ فِيهَا أَهْلُ الْبِلَادِ فِي عِدَدِ هَاتِلِ ، لِلَاغْتِسَالِ فِي النَّهْرِ الْمُقَدَّسِ ، ...)) (٥) .

(١) تفسير القرآن العظيم ، ٣ / ٢٤٤ .

(٢) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ، الشُّوكَانِي ، تحقيق سيد إبراهيم ، دار الحديث ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٤١٣ هـ ، ٣ / ٦٦١ .

(٣) الأركان الأربعة (الصلاة ، الزكاة ، الصوم ، الحج) في ضوء الكتاب والسنة مقارنة مع الديانات الأخرى ، أبو الحسن علي الحسيني التَّدَوِي ، دار القلم ، الطبعة الرابعة ، ١٣٩٨ هـ ، ص ٢٨١ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٢٨٢ .

(٥) المرجع السابق ، ص ٢٨٥ .

و (الأراك) وإن كان المراد به شجر المسواك ^(١) فإن جريراً جاء بذكره هنا للدلالة على صعيد عرفات الطاهر ، وهو المكان الذي إذا لم يقف فيه الحاج يوم التاسع من ذي الحجة فلا حج له ، فذكر الحال وأراد المحل ، بل وأراد فوق ذلك أن يبين أن الأخطل وقومه لا يقفون في هذا المكان ، ولا ينبغي لهم أن يقفوا إذ لا يقف فيه إلا مسلم .

وجرير حين يحسم قضية أن من أشرك بالله لا ينبغي أن يمكن من المشاعر المقدسة ، ولا أن ينزل فيها إنما يعي تماماً قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ

حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ٢٨] ، قال ابن كثير : ((أمر تعالى عباده المؤمنين الطاهرين ديناً وذاً بنفي المشركين الذين هم نجس ديناً عن المسجد الحرام وأن لا يقربوه بعد نزول هذه الآية ...)) ^(٢) .

وجرير يفهم تماماً حين هجا الأخطل وقومه في البيت السابق ما جاء عن أبي هريرة أن أبا بكر الصديق - رضي الله عنه - بعثه في الحجة التي أمره عليها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قبل حجة الوداع يوم النحر في رهط يؤذن في الناس : ((أن لا يحج بعد العام مشرك ...)) ^(٣) .

* * *

^(١) في لسان العرب : الأراك : شجر معروف وهو شجر السواك يستاك بفروعه . لسان العرب

(أرك) ، ١٠ / ٣٨٨ ، .

^(٢) تفسير القرآن العظيم ، ٢ / ٣٦٠ .

^(٣) صحيح البخاري ، ١ / ٣٩١ .

رَابِعًا : السَّوَاكُ وَالنَّظَافَةُ وَالطَّهَارَةُ :

الدين الإسلامي دين يحث على نظافة الباطن والظاهر ، والنصوص الشرعية في ذلك أكثر من أن تُحصى ، وفيما يتعلق بنظافة الظاهر وهي النظافة الحسية فقد تنبه جرير إلى ما يضادها عند الأخطل وقومه فتصدى لهم من خلالها ، ومن خلال ما يعرف من نصوص إسلامية تجعل من المسلم غير النظيف مسلمًا ناقصًا في إسلامه ، لم يترق في درجات الدين الرفيعة ، ولم يتسنم علاها .

يقول الشيخ محمد الغزالي — رحمه الله — : " ولن يكون الشخص راجحًا في ميزان الإسلام ، محترم الجانب إلا إذا تعهد جسمه بالتنظيف والتهديب ، وكان في مطعمه ومشربه وهياته الخاصة بعيدًا عن الأدران المكدرة والأحوال المنفرة ، وليست صحة الجسد وطهارته صلاحًا ماديًا فقط ، بل إن أثرها عميق في تزكية النفس ، وتمكن الإنسان من النهوض بأعباء الحياة " .^(١)

وفي هذا السياق قال جرير مشيرًا إلى أمّ الأخطل^(٢):

لَمْ يَجْرِ مُذْ خُلِقَتْ عَلَى أَنْيَابِهَا

مَاءُ السَّوَاكِ ، وَلَمْ تَمَسْ طُهُورًا .

يهاجم جرير الأخطل في هذا البيت بقيمة إيمانية من قيم الإسلام لا توجد عنده ، ولا عند قومه من التعلبيين ، وهي النظافة والطهارة واستعمال السواك . وكأن جريراً يريد أن يُقدّم درسًا إسلاميًا للأخطل وقومه يبيّن فيه أهمية النظافة والطهارة في دين الإسلام ، والحث على استعمال السواك ووسائل النظافة ، وهذا الدرس ما كان لجرير أن يقدمه لولا أنه يعي تمامًا ما جاء في القرآن الكريم من نصوص تدعو المسلم إلى أن يكون نظيفًا طاهرًا بعيدًا عن كل قذارة أو نجاسة ، ومن ذلك ما جاء من ثناء الله على أهل قباء الذين جمعوا بين الاستجمار والاستنجاء ، فقال تعالى : ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى

(١) أنظر خلق المسلم ، محمد الغزالي ، دار القلم ، دمشق ، الطبعة العاشرة ، ١٤١٣ هـ ، ص ١٥٩ .

(٢) نقائص جرير والأخطل ، ص ١٢٧ .

أَلْتَقَوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ
 يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿ [التوبة : ١٠٨] ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
 التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٢٢] ، ويعني كذلك ما جاء في السنة
 المطهرة من نصوصٍ في الحثِّ على النَّظَافَةِ والتَّطَهُّرِ على نحو قوله - ﷺ - : ((إِنَّ هَذَا يَوْمٌ
 عِيدٌ جَعَلَهُ اللَّهُ لِلْمُسْلِمِينَ فَمَنْ جَاءَ إِلَى الْجُمُعَةِ فَلْيَغْتَسِلْ وَإِنْ كَانَ طَيْبٌ فَلْيَمَسَّ مِنْهُ ،
 وَعَلَيْكُمْ بِالسَّوَاكِ)) (١) .

كلُّ تلك النصوص وغيرها وعابها جرير وفهمها وجرت على لسانه ونظمها شعراً
 فاستنكر على أم الأخطل انحطاطها إلى أحطِّ دركات القذارة - في نظره - فعبر عن ذلك
 بقوله : (لَمْ يَجْرِ مُذْ خُلِقَتْ ...) فكأنها من فرط قذاريتها لم تُحاول قطَّ أن تعتني بفيها
 وأسنانها وذلك لما تناهت إليه من القذارة ، وإلا فلا أظنُّ أنها لم تحاول يوماً من الأيام
 الاعتناء بنظافة الفم والأسنان !! .

وشتان ما بين أم الأخطل التي وصلت إلى درجة من القذارة جعلت جريراً يصفها بتلك
 الأوصاف وبين تلك المرأة النظيفة الطاهرة في جسدها المعتنية إلى حدِّ كبيرٍ بنظافة
 فمها وأسنانها والتي كأنما ريقها قد اختلط بالمسك فقال فيها جرير (٢) :

كَأَنَّ الْمِسْكَ خَالَطَ طَعْمَ فِيهَا

بِمَاءِ الْمُزْنِ يَطْرُدُ الْحَبَابَا . (٣)

(١) صحيح سنن ابن ماجه ، محمد ناصر الدين الألباني ، مكتب التربية العربي لدول الخليج ، الطبعة
 الثالثة ، ١٤٠٨ هـ ، المجلد الأول ، ص ١٨١ ، والحديث عن ابن عباس .

(٢) ديوان جرير ، ص ٢٠ .

(٣) حباب الماء موجه ، الذي يتبع بعضه بعضاً ، ... وقال الأصمعي : حباب الماء الطرائق التي في الماء
 كأنها الوشي . أنظر لسان العرب " حب " ، ٢٩٥/١ . (وحباب الماء بالفتح : معظمة . قال طرفة :

يَشُقُّ حَبَابَ الْمَاءِ حَيْرُومَهَا بِمَا كَمَا قَسَمَ التُّرْبَ الْمَغَائِلُ بِاليدِ

ويقال أيضاً حباب الماء : نفاخاته التي تعلوه ، وهي اليعاليل .) أنظر الصحاح " حب " ، ١ / ١٠٦ .

ويستمر جرير في وصفه لقدارة أم الأخطل فيقول : (وَلَمْ تَمَسْ طَهُورًا) فهي امرأة نجسة - في نظره - بكل ما تعنيه كلمة نجاسة من معنى ، وكأنها لم تتطهر بالماء منذ أن خلقت ، بل وأكثر من ذلك أنها لم (تمس) - مجرد مساس - الماء الطهور .
إن جريراً وهو يُلقى بسهمه هذا تجاه الأخطل قد ظفرَ بهدفين اثنين فأصابهما في مقتلهما في وقت واحد ، إنهما الأخطل وأمه ، وربّما أصابَ أهدافاً غيرهما !! وهذا هو الهجاء المقذع الذي عُرف به جرير والذي لم يستطع معه أكثر من أربعين شاعراً ، الوقوف في وجهه .

لقد كان لجرير وهو يهجو الأخطل مددٌ عظيمٌ من القيم الإيمانية في الإسلام ، زادَ من قوّة شعره ، وأذكى معانيه إذكاءً ، وزادها قوّةً وصلابةً ، فالسواك وما وردَ من حثّ الرسول - ﷺ - على استعماله ، والطّهارة وما جاء في الإسلام من تأكيدٍ عليها ؛ كلّها قيمٌ إيمانية في دين الإسلام وظّفها جريرٌ في هجائه الأخطل فأذاقه بها سماً زعافاً ، ومُهلاً يغلي في بطنه ، وكأنما جرّعه غصص الموت مع كل كلمة يسمعها .

إن جريراً حين يؤكد مكانة النظافة والطّهارة في الإسلام ، وحين جعلَ منهما أمراً مُهماً يدفع به هجاء الأخطل ويردُّ به كيده ومكره فهو إلى جانب ذلك يُريد أن يبيث الحياة من جديدٍ في هاتين القيمتين الإيمانيّتين ، وليذكرَ بهما الجميع ، فالمسلم إذا كان نظيفاً في جسّمه وثيابه ، وذا رائحة زكية كان راضياً عن نفسه ، مُعتدّاً بها ، فخوراً بالتزامه بما هو من الإسلام السّمح ، إلى جانب اكتسابه محبة الآخرين ، وعدم نفورهم من التعامل أو التحدّث معه .

وتأتي قاصمة الظهر حين هجا جرير الأخطل بقوله (١) :

وَلَا يَتَّقُونَ مَحِيضَ النِّسَاءِ

وَلَا يَسْتَحِبُّونَ أَطْهَارَهَا .

إنّها قذيفةٌ قويّةٌ وجّهها جرير نحو الأخطل وقومه لم يكونوا يحسبون لها حساباً ، فهم لا يتقون محيض النساء ولا يجتنبونها وقت الحيض ، وفي استعماله لكلمة

(١) نقائص جرير والأخطل ، ص ٤٧ .

(يَتَّقُونَ) ما فيه من تمثّل معاني الاتقاء الَّتِي تدلّ عليها هذه الكلمة في القرآن الكريم على جهة الخصوص في مثل قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴾ [المزل : ١٧] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٩] ، وقوله تعالى : ﴿ ... وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾ [النحل : ٥٢] . وغير ذلك من الآيات الكريمات الَّتِي وَرَدَتْ فِيهَا جملة (تَتَّقُونَ) في معرض أمور مُهِمَّةٍ ، عظيمة الخطب ، حليلة القدر ، رفعة المنزلة ، عالية المكانة .

وإذا لاحظنا - كذلك - جملة (يَسْتَحِبُّونَ) في البيت السابق نجد أنّها جملة مُسْتَقَرَّةٌ في مكانها مناسبة لما بعدها تذهب بالسّامع عند سماعها إلى نفس الجملة في القرآن الكريم في مثل قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ... ﴾ [إبراهيم : ٣] فلم يقل جرير (يُحِبُّونَ) وإنّما قال : (يَسْتَحِبُّونَ) ومعلوم أنّ زيادة مبنى الكلمة يدلُّ على زيادة معناها ، فهي مبالغة من جرير تُوحي بأنّ هؤلاء القوم ، من شدّة رغبتهم في إثبات النّساء في المحيض رغم ما في ذلك من نجاسة وبعُدٍ عن الفطرة السّويّة فهم يَسْتَحِبُّونَ إثبات المرأة حالة حيضها ويحرضون على ذلك أكثر من حرضهم على إثباتها حالة طهرها !! فأبي خذلان هذا !!؟

* * *

خامساً : تِلَاوَةُ سُورِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، وَاتِّبَاعِ هَدْيِهِ :

القرآن الكريم هو دستور حياة المسلم ، لا يسلب بدونه ، ولا يعيش بعيداً عنه ، فيه الهداية وفيه النور الذي يضيء في ظلمات الكفر ، ودهاليز الضلال .
ولا يخفى على المسلمين ما في هذا الكتاب من الخير والبركة والشفاء والبشارة للمؤمنين فالتزموا بتعاليمه ، وعاشوا معه وتغلبوا على المصاعب والشدائد بما حواه من توجيهات إلهية .
وجرير واحد من المسلمين أدرك تلك المتزلة الرفيعة للقرآن الكريم فافتخر بها ، وكانت سهماً من سهامه التي صوبها نحو خصمه .

قال جرير (١) :

رَجَسٌ يَكُونُ إِذَا صَلَّى ، أَذَانُهُمْ

قَرَعُ النَّوَاقِيسِ ، لَا يَدْرُونَ مَا السُّورُ .

يهجو جرير الأخطل وقومه بجهلهم القرآن الكريم وعدم فهم سورته فوصفهم بالرجس وهو القدر والفعل القبيح (٢) الذي يفعله التغلبيون من قرعهم للنواقيس وهي تلك الأجراس التي يضربونها إيذاناً بحلول وقت صلاتهم بدلاً من الأذان كما هو عند المسلمين .
وهم كذلك لا يعرفون فضل القرآن الكريم ، ولا فضل سورته ، ويجهلون ما فيه من الهدى والخير والبركة والصلاح فهو في الحقيقة نعمة من نعم الله على المسلمين ، ولو تأمل المعرضون عنه ما فيه من فضل حرموا أنفسهم منه لقصوا حياتهم ندماً وحسرة (٣) .

(١) نقائص جرير والأخطل ، ص ١٧٢ .

(٢) المعجم الوسيط ، إبراهيم مصطفى ، وأحمد حسن الزيات ، وحامد عبدالقادر ، ومحمد علي النجار ، مطابع دار المعارف ، مصر ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٠ هـ ، ١ / ٣٣٠ .

(٣) أين التصارى من قول النبي - ﷺ - : ((والذي نفسي بيده ما أنزلت في التوراة ؛ ولا في الإنجيل ؛ ولا في الفرقان مثلها وإنما سبغ من المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيته)) وذلك في فضل سورة الفاتحة . انظر صحيح سنن الترمذي باختصار السنن ، محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، ط ١ ، ١٤٠٨ هـ ، ٣ / ٣ .

ويقول جرير (١) :

تَبِعُوا الضَّلَالَةَ نَاكِبِينَ (٢) عَنِ الْهُدَى

والتَّغْلِبِيُّ عَنِ الْقُرْآنِ ضَلُولٌ .

يستمر جرير في هجائه للتغلبيين فهم - كما يقول - سلكوا طريق الضلالة : وهي كلُّ عملٍ باطلٍ مُجَافٍ لِلْحَقِّ كما قال تعالى عن المنافقين :

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا

مُهْتَدِينَ ﴾ [البقرة : ١٦] ، فجرير كأنه يُسْقِطُ هذه الآية بمعناها وبعض كلماتها

على البيت السابق المشتمل على كَلِمَتِي (الضلالة) و (الهدى) وهما الكلمتان الواردتان في الآية الكريمة .

وأما قوله : (عن القرآن ضلُولٌ) فيقابلها في الآية الكريمة قوله تعالى :

((وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ)) .

فهذه قِمْةُ التَّأَثُّرِ بِالإِسْلَامِ حين رأيناه ينقض شعر الأخطل معتمداً على المعاني الإسلامية ، بل ومتأثراً بألفاظ القرآن الكريم كما رأينا ، وكما يظهر ذلك في استعمال جرير لكلمة (ناكبين) في البيت السابق ، وهذه الكلمة جاءت كذلك في القرآن الكريم في قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴾ [المؤمنون : ٧٤] .

ويقول جرير (٣) :

وَمَا قَرَأَ الْمُفْصَّلَ تَغْلِبِيٌّ

وَلَا مَسَّ الطَّهَّورَ وَلَا السَّوَاكَا .

(١) انظر نقائص جرير والأخطل ، ص ١٨٤ .

(٢) النَّاكِبُ : المُرْتَدُّ وَالمُتَحَوِّلُ .

(٣) ديوان جرير ، ص ٢٩٨ .

وهذا نفي قاطع ينفي به جرير عن التعلبيين قراءة القرآن الكريم ويخص المفضل منه وهو السور من الحجرات إلى آخر المصحف .
 ولعله ذكر المفضل وخصه بالذكر لأن الغالب على سوره القصر ،
 فهي تُقرأ بسهولة ، وفي عدم قراءة السور القصار دليل على عدم قراءة
 السور التي تميل إلى الطول عقلاً ، ولما في سور المفضل
 من فضل عظيم ففيه - على سبيل المثال - سورة الإخلاص (*) ،
 وفيه المعوذتان ، وهذه السور فيها ما فيها من الخير ، والقرآن كله خير .
 وهناك أمر خفي في هذا البيت يبدو أن جريراً كان يقصده ، وذلك حين عقب بقوله :
 (ولا مسّ الطهور ولا السواك) على ما نفاه في الشطر الأول عن التعلبيين من قراءة
 للمفضل من القرآن الكريم ، فإن الذي يقرأ القرآن ينبغي عليه أن يكون طاهراً في جسده
 وطاهراً في فمه ، قال تعالى : ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ ^(١) [الواقعة : ٧٩] .
 وكان جريراً - أيضاً - يرمي إلى حال المسلم الذي يُديم قراءة القرآن الكريم ويكون
 طاهراً عند ذلك مُحترماً كلام الله ، مُجلاً له ، مُستشعراً الهيبة والمكانة الرفيعة
 لهذا الكتاب العظيم ، فهذا هو حال المسلمين ، وذاك هو حال التعلبيين .

* * *

(*) ففيها قال النبي - ﷺ - : ((والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن)) ، انظر صحيح البخاري
 ، ٦٥٠ / ٢ .

(١) قال العوفي عن ابن عباس : (لا يمسه إلا المطهرون) يعني : الملائكة . وكذا قال أنس ومجاهد
 وعكرمة وسعيد بن جبير ، وقال ابن جرير عن قتادة : (لا يمسه إلا المطهرون) قال : لا يمسه
 عند الله إلا المطهرون ، فأما في الدنيا فإنه يمسه الجوسي النجس ، والمنافق الرجس .
 وقال آخرون : (لا يمسه إلا المطهرون) أي : من الجنابة والحديث . انظر تفسير القرآن
 العظيم ، ٣١٩ / ٤ .

سادساً : نُصْرَةُ الرَّسُولِ - ﷺ - وَالتَّصْدِيقُ بِهِ :

الإيمان برسول الله جميعاً ركن من أركان الإيمان ، ورسول الله محمد - ﷺ - أحد هؤلاء الرسل الذين وجب علينا الإيمان بهم ، بل هو أحد الخمسة الذين هم أولو العزم من الرسل .

وقد بلغ عليه الصلاة والسلام الأمانة ، وأدى الرسالة ، ونصح لهذه الأمة ، وكشف — بإذن ربه — الغمّة ، وتركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك ، فكان لزاماً على المسلمين في الماضي والحاضر نصرته والتصديق به .
ومن خلال وعي جرير بهذه المسألة فقد رأينا إشادته وفخره بمواقف الأنصار — رضي الله عنهم — مع رسول الله - ﷺ - ونصرتهم له ، ورأينا تمجيدته لأفعال المسلمين من قریش مع رسول الله - ﷺ - وأن ذلك من الإيمان الحق .
قال جرير (١) :

كَفَّوْا خُزْرَ تَغْلِبَ نَصْرَ الرَّسُولِ

وَنَقَضَ الْأُمُورَ وَإِمْرَارَهَا .

يهجو جرير التغلبيين قوم الأخطل بأنهم ليسوا أهلاً لأن ينصروا رسول الله - ﷺ - فقد نُصِرَ بغيرهم ، وهم المهاجرون والأنصار ، فقد قال في البيت السابق لهذا البيت (٢) :

وَأَدْعُو الْإِلَهَ وَتَدْعُو الصَّلِيبَ

وَأَدْعُو قُرَيْشًا وَأَنْصَارَهَا .

ثم قال :

كَفَّوْا خُزْرَ تَغْلِبَ نَصْرَ الرَّسُولِ

وَنَقَضَ الْأُمُورَ وَإِمْرَارَهَا .

فهذا البيت مترتبٌ على الذي قبله ، والمعنى : أن المهاجرين والأنصار - ﷺ - هم الجديرون بنصرة الرسول - ﷺ - وقد فعلوا ، وهم أهلُ الحلِّ والعقدِ ، وهم الأقوياء

(١) نقائص جرير والأخطل ، ص ٤٧ .

(٢) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

القادرون على تصريف الأمور ، وعلى القيام بأعبائها ، في الوقت الذي يعجز التَّغْلِبِيُّونَ عن شَرَفِ نُصْرَةِ الرَّسُولِ - ﷺ - وعن حَلِّ الأُمُورِ وربطها .

وجرير استفاد من السيرة النبوية العطرة على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم فَعَلِمَ عاقبة نُصْرَةِ الأَنْصَارِ والمهاجرين لرسول الله - ﷺ - أنهم اسْتَحَقُّوا مَحَبَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ، واسْتَحَقُّوا مَحَبَّةَ اللَّهِ - تبارك وتعالى - وثناؤه عليهم في قوله - عز وجل - :

﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْ أَلْمُهَجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ

بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا

الأنهارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة : ١٠٠] ،

وعلم كذلك أن الأنصار - ﷺ - تشرفوا بدعاء النبي - ﷺ - حين خَطَبَ فيهم فقال :

((... فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ، لَوْلَا الْهَجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الْأَنْصَارِ ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ

شِعْبًا ^(١) وَسَلَكَتِ الْأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكَتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ ، اللَّهُمَّ ارْحَمِ الْأَنْصَارَ

وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ ، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ ...)) ^(٢) .

كل تلك المعرفة المسبقة لجرير بالسيرة النبوية ، وبالأنصوص القرآنية أفرزت عنده ثقافة

إسلامية وظفها في نقضه شعر الأخطل ، وجعلت الناس في ميزانه على قسمين :

إمَّا مناصراً لِلرَّسُولِ - ﷺ - ، ومُصَدِّقاً به ، وإما مجافياً عنه ، معرضاً عن نصرته قد بَخِلَ

على نفسه بهذا الفضل ، واختار لها الدون ، ورَضِيَ لها بالحقارة ، وباعها إلى الشيطان بِشَمَنِ

بِخْسٍ ، كما هو الحال عند التَّغْلِبِيِّينَ .

وأما في قوله : (خَزْرُ) فالخَزْرُ قيل : ضيق العين وصغرها ، وقيل : هو

النَّظَرُ الذي كأنه في أحد الشَّقَّينِ ، وقيل : هو أن يَفْتَحَ عينه ويغمضها ، وقيل :

الْخَزْرُ هو حَوْلُ إِحْدَى العَيْنَيْنِ ، وقيل : الْأَخْزَرُ الذي أَقْبَلَتْ حَدَقَتَاهُ إِلَى أَنْفِهِ ،

^(١) الشَّعْبُ : الطريق بين جبلين .

^(٢) سيرة النبي - ﷺ - ، ابن هشام ، راجعها : د. محمد خليل هراس ،

مكتبة الجمهورية ، ٤ / ١٧٧ .

ويقال : هو أن يكون الإنسان كأنه ينظرُ بمؤخرها . وَتَخَازَرَ الرَّجُلُ :
إِذَا ضَيَّقَ جَفْنَهُ لِیَحَدِّدَ النَّظْرَ . وَخَزَرَ إِذَا تَدَاهَى . وَعَدُوٌّ أَخْزَرَ الْعَيْنَ :
يَنْظُرُ عَنْ مَعَارِضِهِ كَالْأَخْزَرَ الْعَيْنَ (١) .

ويبدو أن هذه الصفة كانت ملازمة للتغليبين بشكلٍ واضحٍ جليٍّ وإلا لما أكدَ عليها
جرير في أكثر من موضع في قصائده ، فقد قال (٢) :

قَتَلُوا كُلَّيْبَكُمْ بِلِقْحَةِ جَارِهِمْ

يَا خُزَرَ تَغْلِبَ لَسْتُمْ بِهِجَانِ .

وقال كذلك (٣) :

مُضَرُّ أَبِي وَأَبُو الْمُلُوكِ فَهَلْ لَكُمْ

يَا خُزَرَ تَغْلِبَ مِنْ أَبِ كَابِيْنَا ؟ .

وقال (٤) :

يَا خُزَرَ تَغْلِبَ مَاذَا بَالُ نَسْوَتِكُمْ

لَا يَسْتَفِقْنَ إِلَى الدَّيْرَيْنِ تَحْنَانًا ؟ .

والمعنى هنا : أن النساء التغلبيات لا دين عندهن إذ لا يدخُلْنَ
دَيْرًا ولا معبدًا .

(١) لسان العرب ، مادة (خزر) ، ٤ / ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

(٢) ديوان جرير ، ص ٤٢٦ .

(٣) ديوان جرير ، ص ٤٣١ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٤٤٦ .

وهذه اللفظة شائعة في الشعر العربي ، فقد قال أبو تمام (١) :

وَأَيَّامَنَا خُزْرُ الْعُيُونِ عَوَابِسُ

إِذَا لَمْ يَخْضُهَا الْحَازِمُ الْمُتَلَبُّ (٢) .

فأبو تمام قد استعار خُزرة العيون للأيام لأن تلك الصفة

من صفات الأعداء .

وقال النابغة الذبياني (٣) :

تَرَاهُنَّ خَلْفَ الْقَوْمِ خُزْرًا عُيُونُهَا

جُلُوسَ الشُّيُوخِ فِي ثِيَابِ الْمَرَانِبِ .

والنابغة في قوله : (تَرَاهُنَّ) يقصد السباع التي تكون خلف جيش الأعداء تَنْتَظِرُ

وَتَتَرَقَّبُ بعيونها الخُزْرَ مَنْ يَمُوتُ لِتَأْكُلَ مِنْ لَحْمِهِ (٤) .

(١) ديوان أبي تمام ، شرح إيمان البقاعي ، مؤسسة الأعلمي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ،

١٤٢١ هـ ، ١ / ١٠٧ .

(٢) المتلب : المتعقل .

(٣) ديوان النابغة الذبياني ، شرح محمد الطاهر عاشور ، الشركة التونسية للتوزيع ، ١٩٧٦ ، ص ٤٦ .

والمرانب : الفراء والثياب التي تُصنع من جلود الأرناب .

(٤) لأنه قال قبل هذا البيت :

إِذَا مَا غَزَوْا بِالْجَيْشِ حَلَّقَ فَوْقَهُمْ عَصَائِبُ طَيْرٍ ، تَهْتَدِي بِعَصَائِبِ .

يُصَانِعْنَ لَهُمْ ، حَتَّى يُغِرْنَ مَغَارَهُمْ مِنْ الضَّارِيَاتِ ، بِالِدَّمَاءِ الدَّوَارِبِ .

وجرير حين وصف التَّغْلِييين بأنَّهم خُزِرَ العيون إنَّما أجرى عليهم تلك الصِّفة لِشِدَّةِ
عداوتهم ولأنَّ عيولهم تحمل كلَّ معاني المكرِّ والخُبثِ والكُره ، فكانت تلك اللفظة أدقَّ
وأصوبَ ، وأمكَنَ ، وأشدَّ وقعًا من غيرها .

قال ابنُ خَلِّكَانَ : ((والأخزرُ : الذي في عينيه ضيقٌ وصِعْرٌ ، وهذا وصفُ العجمِ ،
فكأنَّه نَسَبَهُ ^(١) إلى العجمِ ، وأخرجه عن العرب ، وهذا عند العرب من
التَّقائصِ الشَّنِيعَةِ)) ^(٢) .

وإذا كان الشَّيءُ بالشَّيءِ يذكرُ فما أظنُّ التَّغْلِييينَ - حين وصفهم جرير بتلك الصفة -
إلا كأنَّهم تلك السَّبَاعِ الضَّارِيَةِ - كما في بيت النَّابِغَةِ - التي تَتَعَطَّشُ لِلدَّمَاءِ ، ويسيل لعابها
لتنهش من اللَّحْمِ دونما رحمةٍ أو شفقة .

ولا نستغرب أبداً أن يركِّز جرير على العين فيهجو التَّغْلِييينَ بصفةٍ معيبةٍ من صفاتها ،
فالعين بحرٌّ لا ساحل له ، وعالمٌ ممتدُّ بلا حدودٍ ، وفضاءٌ لا منتهى له ، وأسوارٌ تُعجزُ مَنْ
يتسورُها . ولشأنها العظيم ركِّز جريرٌ على عيون التَّغْلِييينَ ، وما تبعته من إشارات الكُره ،
وسِهَامِ البُغْضِ ، وبريقِ العداة . وفي ذلك دلالةٌ قويَّةٌ على ذكاء الرَّجُلِ وفطنته ، ودهائه ..
فالتَّنْبُّهُ لإشارات العيون ، وفهم التَّلْمِيحاتِ دون الحاجة إلى التَّصْرِيحاتِ ، والتنسُّبُ
بمكَّنون القلب قبل أن ينطق به اللسان .. كلُّها من أمارات الرَّجُلِ البصيرِ
بالأمور ، الواعي لخفاياها ، المتمرِّس في سبِّ أغوارها .

ويستمر جرير في هجائه للأخطل وقومه وذلك في سياق إشاراتِهِ بالمهاجرين
والأنصار في نصرتهم للرَّسُولِ - ﷺ - كما سبق فيمستدح كذلك قيسًا ، ويذكر أمجادها
العظيمة التي لو وُضِعَتْ في كفةٍ ، وكانت أمجاد تغلب في الكفة الأخرى لَرَجَحَتْ
الكفة التي بها أمجاد قيس . فيقول ^(٣) :

(١) فكأنَّه نَسَبَهُ إلى العجم : يقصد أن جريرًا كأنَّه نسب الأخطل إلى العجم ، وابن خَلِّكَانَ قال ذلك
الكلام مُعَلِّقًا على قول جرير : (يا خُزِرَ تغلب) .

(٢) وَفَيَاتُ الأعيانِ وَأَنْبَاءُ أبنَاءِ الزَّمانِ ، ابن خَلِّكَانَ ، تحقيق د / إحسان عَبَّاس ، دار صادر ،
دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، ١ / ٣٢٤ ، ٣٢٥ .

(٣) نقائض جرير والأخطل ، ص ٢٠٨ .

وَإِذَا وَرَّزْتِ بِمَجْدِ قَيْسٍ تَغْلِبَا

رَجَحُوا عَلَيْكَ وَشَلْتِ فِي الْمِيزَانِ .

ويعلّل سبب رجحان كفة قيس بقوله في البيت التالي (١) :

عَرَفُوا الْكِتَابَ ، وَصَدَّقُوا بِمُحَمَّدٍ

وَرَضِيْتُمْ بِعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ .

والكتاب هو القرآن الكريم ، فقبيلة قيس آمنت به ، وعرفتُه حقَّ المعرفة وأتبع أفرادها ما فيه ، وعملوا به ، وكان منهج حياة لهم إلى جانب تصديقهم بمحمد - ﷺ - وأتباع سنَّته .

ويبدو أن جريراً يقصد من قوله : (عرفوا الكتاب ، وصدقوا بمحمد) أن يجمع بين أمرين جمع بينهما رسول الله - ﷺ - في قوله : ((وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ فَلَنْ تَضِلُّوا أَبَدًا ، أَمْرًا بَيْنَا ، كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ)) (٢) .

وحين قال جرير : (عَرَفُوا الْكِتَابَ) فإننا نلاحظ التأثير بالآية الكريمة :

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا

مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ١٤٦] .

ولا يخفى أن معنى الآية الكريمة أن الذين آتاهم الله الكتاب السماوي والمراد التوراة التي أنزلها - سبحانه - على موسى - عليه السلام - وأتباعه هم اليهود ، والإنجيل الذي أنزله - سبحانه - على عيسى - عليه السلام - وأتباعه هم النصارى يعرفون القرآن الكريم كما يعرفون أبناءهم ولكنهم كفروا به ، ومنهم ورث قوم الأخطل هذا الكفر فهم عريقون فيه . وهذا التأثير الذي فعله جرير والذي أقصده في هذا المقام هو تأثره بألفاظ الآية الكريمة فقط دون أن ينسحب هذا التأثير على المعنى ، فالمعرفة للقرآن في بيت جرير السابق تختلف عن المعرفة المقصودة له في الآية الكريمة ، فلكل معرفة وجهتها واتجاهها .

(١) نقائص جرير والأخطل ، ص ٢٠٨ .

(٢) سيرة النبي - ﷺ - ، ابن هشام ، ٤ / ٣٥٦ .

ومن مبررات رجحان كفة قيس على كفة تغلب تصديقهم بمحمد - ﷺ - في الوقت الذي رضي فيه التغلبيون بعبادتهم للأوثان المتمثلة في تلك الصلبان المنتشرة عندهم في كل مكان .

* * *

سابعاً : عِبَادَةُ اللَّهِ فِي الْمَسَاجِدِ :

المسجد عند المسلمين هو المدرسة الأولى التي ينهلون من معينها العلوم الدينية والتربية السوية ، والمسجد يبرز المسلم إليه حيث يجد الروحانية الفريدة ، والطمأنينة النفسية ، والعلاقة الحقة مع الخالق — تبارك وتعالى — بعيداً عن الرهينة المقيتة ، والعادات المتدعة . ومن المسجد انطلق العلماء ينشرون دين الله في المشارق والمغرب ، ومنه خرج المجاهدون ، وفي جنباته تربي المسلمون على مكارم الأخلاق ، وطيب الخصال . وللعبادة في المسجد مذاقها الفريد ، وطابعها المميز ، وجوها الممتع الذي يتجرد فيه المسلم من كل زخارف الحياة وأعبائها ومشاغلها ، ومن هنا جاء جرير بهذه المعاني السامية في نقضه شعر الأخطل فقال ^(١) :

وَالتَّابِعِينَ جُرَيْجِيسًا وَبُنَيْيَهُ

وَالتَّارِكِينَ مَسَاجِدَ الرَّحْمَنِ .

إن معرفة جرير بالشأن الرفيع للمسجد في الإسلام ، وبتلك العلاقة القوية الحميمة بينه وبين المسلم جعلته يفخر بالمساجد ويعتز بها أمام خصمه اللدود ، ويتباهى بكونها جزءاً من منظومة المجتمع المسلم إلى جانب إحساسه بتلك الألفة المتبادلة بين المسلم وبين المسجد ^(*)

^(١) انظر نقائص جرير والأخطل ، ص ٢٠٨ .

^(*) ونظراً لهذه الألفة بين المسجد والمسلم فلا نستغرب أن المسلم إذا مات فإن بقاع الأرض التي تعبد الله فيها تبكي لفراقه ، وكذا مواضع صعود عمله في السماء وهذا في بعض تفاسير قوله تعالى : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴾ [الدخان : ٢٩] قال ابن كثير : ((أي لم تكن لهم أعمالٌ صالحةٌ تصعد في أبواب السماء فتبكي على فقدهم ، ولا

من أجل ذلك تصدى للأخطل بهجائه له بتركه وقومه للمساجد التي هي نعمة عظيمة امتنَّ الله بها على عباده المسلمين وحرَّم منها غيرهم ، فلا مساجد عند نصارى تغلب لأنَّهم ليسوا أهلاً لها ، بل تنكبُّوا الطريقَ السَّويَّ ، وأتبعوا رموزاً ضالَّةً مُضِلَّةً كجُريجس وبيَّه فزادهم ذلك رجساً إلى رِجْسِهِمْ ، وضلالاً إلى ضلالهم ، في الوقت الذي يزداد المسلمون بترددٍهم على المساجد إيماناً مع إيمانهم ، وهدىً مع هداهم .

وقال جرير (١) :

مَا فِي دِيَارِ مُقَامِ تَغْلِبَ مَسْجِدٌ

وَتَرَى مَكَّاسِرَ حَنْتِمِ وَدِنَانِ .

إنَّ جريراً في هذا البيت يؤكِّد ما ذكره في البيت السَّابق من ترك التَّغْلِبِيِّينَ لِلْمَسَاجِدِ ، وحرمان أنفسهم من هذه النِّعْمَةِ العظيمة ، فينفي نفيًا قاطعاً وجود مسجد واحد في ديارهم التي تكثر فيها الجرار الحُمْرُ الممتلئة بالخمر فلا يمكن أن يجتمع المسجد مع دنان الخمر في مكان واحد . و (الْحَنْتَمُ : جِرَارٌ خُضِرُ تَضْرِبُ إِلَى الْحُمْرَةِ ، وفي الحديث أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ - نَهَى عَنِ الدُّبَاءِ وَالْحَنْتَمِ ؛ قال أبو عبيدة : هي جِرَارٌ حُمْرٌ كَانَتْ تُحْمَلُ إِلَى الْمَدِينَةِ فِيهَا الْخَمْرُ) (٢) .

لهم في الأرض بقاع عبدوا الله تعالى فيها فقدتهم فلهذا استحقوا أن لا يُنظروا ولا يؤخروا لكفرهم

وإجرامهم وعتوهم وعنادهم ((انظر تفسير القرآن العظيم ، ٤ / ١٥٣ .

(١) انظر ديوان جرير ، ص ٤٢٩ .

(٢) لسان العرب ، (حنتم) ١٢ / ١٦١ ، ١٦٢ .

ومن ذلك قول النعمان بن عدي^(١) :

أَلَا هَلْ أَتَى الْحَسَنَاءَ أَنَّ خَلِيلَهَا

بِمَيْسَانَ يُسْقَى فِي زُجَاجٍ وَحَنْتَمِ .

ثَامِنًا : اتَّبَاعُ سُبُلِ النَّبُوَّةِ :

لن يلج أحد الجنة إلا عن طريق ما رسمه رسول الله - ﷺ - لأمته من سبل مستقيمة هي طرق الإسلام التي دلنا عليها المبعوث رحمة للعالمين لتكون نبراساً لمن أراد الله به خيراً ، فالصلوات الخمس ، وصيام رمضان ، وصيام التطوع ، والحج والعمرة ، والجهاد في سبيل الله ، وبر الوالدين ، وقيام الليل ، وإكرام الضيف ... كلها سبل فاضلة من سبل النبوة التي جاء بها محمد - ﷺ - .

قال جرير^(٢) :

خَالَفْتُمْ سُبُلَ النَّبُوَّةِ فَأَخْضَعُوا

بِجِزَا الْخَلِيفَةِ ، وَالذَّلِيلُ ذَلِيلٌ .

إن جريراً يهجو الأخطل وقومه بأنهم جَحَّحُوا عن سُبُلِ النَّبُوَّةِ وهي طريق الإسلام السَّمَحَ ولذلك حقَّ عليهم القول في دفع الجزية لِلْخَلِيفَةِ ، وهكذا يجب أن يكونوا لَأَنَّ الذَّلِيلُ ذَلِيلٌ

(١) انظر مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، ابن الجوزي ، تحقيق الدكتور : زينب إبراهيم القاروط ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، بدون رقم الطبعة ، ص ١١٥ ، وَتَمَّمة الخبر : (عن ابن سعد قال : كان عمر بن الخطاب - رضوان الله عليه - قد اسْتَعْمَلَ النُّعْمَانَ عَلَى مَيْسَانَ ، وَكَانَ يَقُولُ الشُّعْرَ فَقَالَ :

أَلَا هَلْ أَتَى الْحَسَنَاءَ أَنَّ خَلِيلَهَا
إِذَا شِئْتُ غَنَّتْنِي دِهَاقِينَ قَرِيَّةَ
فَإِنْ كُنْتُ نَدْمَانِي فَبِالْأَكْبَرِ اسْقِنِي
لَعَلَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَسْوُوهُ
بِمَيْسَانَ يُسْقَى فِي زُجَاجٍ وَحَنْتَمِ .
وَرَقَاصَةٌ تَحْتُو عَلَى كُلِّ مَنْسَمِ .
وَلَا تَسْقِنِي بِالْأَصْغَرِ الْمُتَشَلِّمِ .
تَنَادُمْنَا بِالْجَوْسَقِ الْمُتَهَدِّمِ .
فَلَمَّا بَلَغَ عُمَرُ قَوْلَهُ قَالَ : نَعَمْ ، وَاللَّهِ إِنَّهُ لَيْسُوْنِي ، مَنْ لَقِيَهُ فَلْيُخَيِّرْهُ إِنِّي قَدْ عَزَلْتَهُ .
والجوسق هو : القصر .

(٢) نقائص جرير والأخطل ، ص ١٨٤ .

وليس له أن يَتَحَوَّلَ عن ذلِّه وما ينبغي له ، فقد وُلِدَ ذليلاً ، وعاش ذليلاً ،
وسيموت ذليلاً ، كما عبَّر عن ذلك جرير .

والمعنى المقابل لهذا المعنى أن المسلم امثل سُبُلَ النبوة ووعى جيداً ما جاء عن النبي
- ﷺ - ومن ذلك حديث ابن مسعود - ﷺ - قال : ((خطَّ رسول الله - ﷺ - خطًّا
بيده ثمَّ قال : هذا سبيل الله مستقيماً ، ثمَّ خطَّ خطوطاً عن يمين ذلك الخطِّ وعن
شماله ثمَّ قال : وهذه السُّبُلُ ليس منها سبيلٌ إلاَّ عليه شيطان يدعو إليه ، ثمَّ قرأ :
﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن

سَبِيلِهِ ﴾ ((^(١) [الأنعام : ١٥٣] ، فالمسلم اتَّبَعَ سبيلاً واحداً وهو سبيل الإسلام ،
وترك باقي السُّبُل التي يَتَزَعَّمُهَا الشَّيْطَانُ ويدعو إليها ((وهذه السُّبُلُ تُعْمُ
اليهودية والنصرانية والمجوسية وسائر أهل الملل ، وأهل البدع والضلالات
من أهل الأهواء والشُّذوذ في الفروع ، وغير ذلك من أهل التعمُّق في
الجدل والخوض في الكلام))^(٢) .

وقال جرير^(٣) :

إِنَّ الَّذِي حَرَّمَ الْمَكَارِمَ تَغْلِبًا

جَعَلَ النُّبُوَّةَ وَالْخِلَافَةَ فِينَا .

فجرير يهجو الأخطل وقومه بأنَّ التَّغْلِبِينَ محرومون من المكارم ، وأمَّا المسلمون فإنَّهم
مفضلون قد أنعم الله عليهم بأن جعلَ النُّبُوَّةَ وجعلَ الخِلافةَ فيهم ، وعندما يقول جرير :
(جَعَلَ النُّبُوَّةَ وَالْخِلَافَةَ فِينَا) فهو يفخر بقومه الذين يمتدُّ بهم النَّسَبُ إلى رسول الله
- ﷺ - ، ويعتدُّ بهم وفي نهاية الأمر هم من المسلمين ، فالفخر كلُّ الفخر بالإسلام ، وحقَّ

^(١) انظر فتح القدير ، ٢ / ٢٥٣ ، قال الشوكاني عن تخريج هذا الحديث : ((أخرج أحمد وعبد بن
حميد والبخاري والنسائي وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه ابن مردويه عن ابن
مسعود)) .

^(٢) المصدر السابق ، ٢ / ٢٥٢ . نقله الشوكاني عن ابن عطية .

^(٣) ديوان جرير ، ص ٤٣١ .

لجرير أن يفخر به لآئته دين المكارم ودين العِزَّة ، ولآئته الدين الذي حفل بالنبوة ،
ورسخ الخلافة الإسلامية ، وصنعها على عينه فاستقامت وازدهرت وترعرعت .

ولهذا البيت ارتباط وثيق بالبيت السابق الذي تحدت فيه جرير عن مخالفة نصارى تغلب
لسبيل النبوة ، فإن مخالفتهم لهذه السبيل كانت تقدمة لأن حرمهم الله من المكارم
، وبأن كتب عليهم الذلة وأسكنهم مساكن الخزي والدناءة ، وألبسهم لباس العار
والشئار وأدخلهم النيران .

وبالمقابل فإن أتباع المسلمين سبيل النبوة التي تهديهم - بإذن الله - إلى الصراط المستقيم ،
وإعراضهم عن بقية السبيل المنحرفة الشيطانية ؛ كان الجزاء أن أعزهم الله ، ورفعهم ،
وجعل النبوة فيهم ، ومكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم .

قال ابن خلكان في تعليقه على قول جرير : (جعل النبوة والخلافة فينا) : ((إنما قال
ذلك لأن جريراً تميمي النسب ، وتميم ترجع إلى مضر بن نزار بن معد بن عدنان جد
رسول الله - ﷺ - ، فالنبوة والخلافة وبنو تميم يرجعون إلى مضر)) (١) .

* * *

(١) وفیات الأعيان وأبناء الزمان ، ١ / ٣٢٤ ، ٣٢٥ .

تاسعاً : غشيان الملائكة قبور المسلمين ، واحتفاء الأرض بأجسادهم :

المسلم الصادق هو العبد المطيع لربه ، وهو العبد الذي عرف حق المعرفة الغاية من وجوده على هذه البسيطة ، من أجل ذلك كان جزاؤه من ربه الجزاء الأوفى في الدنيا قبل الآخرة وذلك بأن جعل الملائكة تغشى قبره ، وأوحى إلى الأرض أن تحتفي بجسده الطاهر .
هذه المعاني أشار إليها جرير في سياق نقضه شعر الأخطل فقال (١) :

تَغْشَى مَلَائِكَةُ الْإِلَهِ قُبُورَنَا

وَالْتَّغْلِبِي جِنَازَةَ الشَّيْطَانِ .

يهاجم جرير الأخطل ويهجوّه بما يؤمن به المؤمنون جميعاً من أن المؤمن يجد الخير والبشر من الملائكة عند خروج روحه وفي قبره ، ويجد من البشارات ومن المكرمات ما لا يجده غيره من الكفار .

وجرير حين هاجم الأخطل بهذا الأمر يكشف لنا عن المخزون الهائل الذي يمتلكه من الثقافة الإسلامية التي أثرت في شعره فلنحظ جريان المعاني الإسلامية على لسانه في العديد من الأبيات التي هجا بها الأخطل ، وهنا يتمثل جرير ويستحضر الكثير من الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية التي توضح لنا حال المؤمن عند موته وفي قبره ؛ ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّوهُمْ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ

بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٣٢] . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا

رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا

وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت : ٣٠] ، فهذا هو العبد

المؤمن بالله - تبارك وتعالى - يجد من احتفاء الملائكة به الشيء الكثير ، ويلقى منهم السلام ، والتطمين والبشارة بدخول الجنة ، وفي حديث جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - قال : لَمَّا قُتِلَ أَبِي ، جَعَلْتُ أَكْشِفُ الثُّوبَ عَنْ وَجْهِهِ ، أَبْكِي ، وَيَنْهَوْنِي

(١) نقائص جرير والأخطل ، ص ٢٠٨ .

عنه ، والنبي - ﷺ - لا ينهاني ، فَجَعَلَتْ عَمِّي فاطمة تبكي ، فقال النبي - ﷺ - : ((تبكين أو لا تبكين ما زالت الملائكة تُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا حَتَّى رَفَعْتُمُوهُ)) (١) .

وأما جنازة الكافر فقال عنها جرير : (وَالتَّغْلِيْبِيُّ جِنَازَةُ الشَّيْطَانِ) وهذا الحُكْم لم يأت به جرير من تلقاء نفسه وإنما وعاه وعرفه من القرآن الكريم ، ومن الحديث الشريف ، ففي القرآن الكريم يقول الله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ اتَّوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبِرَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾

[الأنفال : ٥٠] ، وقال تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبِرَهُمْ ﴾ [محمد : ٢٧] .

وفي الحديث عن عائشة أنها قالت : إنا مررنا برسول الله - ﷺ - على يهودية يئكي عليها أهلها ، فقال : ((إِنَّهُمْ لَيَبْكُونَ عَلَيْهَا ، وَإِنَّهَا لَتُعَذَّبُ فِي قَبْرِهَا)) (٢) ، وعن أبي أيوب قال : خرج النبي - ﷺ - وقد وجبت الشمس ، فسمع صوتاً ، فقال : ((يَهُودٌ تُعَذَّبُ فِي قُبُورِهَا)) (٣) . وهذا هو حال اليهود والنصارى في قبورهم لا تسلم عليهم الملائكة ، ولا تعتنى بهم بل تضربهم وتعذبهم ، فجنائزهم جنازات للشيطان - كما وصفها جرير - لا تباشرها الملائكة ولا تهتم بها وما أحسبها إلا كما قال المتنبي (٤) :

مَا يَقْبِضُ الْمَوْتُ نَفْسًا مِنْ نَفْسِهِمْ

إِلَّا وَفِي يَدِهِ مِنْ نَسْنِهَا عَوْدُ .

(١) صحيح البخاري ، ١ / ٢٩٩ .

(٢) المصدر السابق ، ١ / ٣٠٨ .

(٣) المصدر السابق ، ١ / ٣٢٩ .

(٤) ديوان أبي الطيب المتنبي ، شرح أبي البقاء العكبري ، ضبطه وصححه مصطفى السقا ، إبراهيم الأبياري ، عبد الحفيظ شلبي ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، ١٣٩٧ هـ ، ٢ / ٤٢ .

فالموت لا يباشر نفوسهم بيده مباشرة وإنما يتناولها بعُودٍ بسبب نتنها وقبحها كما يفعل مَنْ رأى جيفةً في الطريق فإنَّه يبعدها بعُودٍ أو بشيءٍ آخر حذراً من أن يمسَّ بيده القدر .

ويقول جرير (١) :

أَخِيَاؤُهُمْ شَرُّ أَحْيَاءٍ ، وَأَلَأْمُهُ ،

وَالْأَرْضُ تَلْفِظُ مَوْتَاهُمْ إِذَا قَبِرُوا .

إنَّه استمرارٌ من جرير في هجائه الأخطل وقومه بتركيزه على حال هؤلاء القوم مع الأرض ، ومع قبورهم التي يُدفنون فيها ، فهو حال يختلف تماماً عن حال المسلم ، وفوق ذلك فالتعلبيُّ كُلُّه شرٌّ سواء في حياته أو في مماته ، والأرضُ تتضايق من أجسادِ موتاهم ، وتتأذى منها بسبب نجاستها ممَّا يجعلها تلفظ تلك الأجساد المنتنة وتتخلص منها .

وفي تعبير جرير بكلمة (تَلْفِظُ) ما يوحي بأنَّ أجساد الموتى من التعلبيين قد بلغت حدًّا من القذارة والنجاسة والتعفن الأمر الذي حدا بالأرض أن تَلْفِظَهَا كما يَلْفِظُ البَحْرُ الجِيفَ المُنْتِنَةَ من أعماقه فلا يستقر في قاعه إلا الدرُّ واللالئ الثمينة .

وهكذا يؤكِّد جرير على تلك المنزلة الرفيعة التي يحظى بها المسلم في حياته وبعد مماته وحتى في تعامل الأرض معه ، واشتياقها إليه ، واعتنائها به (٢) .

وبالمقابل فإنَّ هذه النعمة العظيمة قد حُرِّمَ منها التعلبيون فَكُلُّ أرض تبغضهم ، وكلُّ سماء تمقتهم ، وهذه ضربة قويَّة وجَّهَهَا جرير إلى الأخطل ضمن سلسلة الضربات التي يتلقاها مع كُلِّ بيت يهجوه فيه جرير ، وتزداد هذه الضربات قوَّةً ومثانةً وحسارة حين تُدعمُ بقيم إيمانية إسلامية ترعرعت في أحضان الإسلام ، واتشاحت بوشاحه ، واستندت إلى رُكْنِه المتين الشَّديد .

(١) نقائص جرير والأخطل ، ص ١٧٧ .

(٢) وَحَرِيٌّ بِي هُنَا أَنْ أُشِيرَ إِلَى اعْتِنَاءِ الْأَرْضِ بِأَجْسَادِ الْأَنْبِيَاءِ كَمَا جَاءَ عَنْ أَوْسِ بْنِ أَوْسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : ((إِنَّ مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ الْجُمُعَةَ ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ ، وَفِيهِ قُبِضَ ، وَفِيهِ نَفَخَ الصُّورَ ، وَفِيهِ الصَّعْقَةُ ، فَأَكْثَرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ فِيهِ ، فَإِنَّ صَلَاتِكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ ، قَالُوا : وَكَيْفَ تُعْرَضُ صَلَاتُنَا عَلَيْكَ وَقَدْ أَرِمْتَ ؟ فَقَالَ : ((إِنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - حَرَّمَ عَلَيَّ الْأَرْضَ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ)) انظر المستدرک علی الصحیحین ، ٤ / ٥٦٠ .

عَاشِرًا : إِعْطَاءُ الْمُسْلِمِ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ :

إن إعطاء المسلم كتابه بيمينه يوم القيامة أمر يؤمن به كل مسلم ، ولا يشك فيه أحد منهم ، بل إنه من المسلّمات عند كل المسلمين ، وهو أمر بينه الله تعالى لنا في كتابه الكريم والمؤمن يصبو إلى أن ينال كتابه بيمينه في ذلك اليوم العصيب .

قال جرير ^(١) :

يُعْطَى كِتَابَ حِسَابِهِ بِشِمَالِهِ

وَكِتَابُنَا بِأَكْفُنَا الْأَيْمَانِ .

إنها حقيقة راسخة جاءت في كتاب الله يُهاجم من خلالها جرير خصمه الأخطل ، وهي أن المسلم يُعطى كتابه يوم القيامة بيمينه ، كما قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَآؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَةَ ﴾ ^(٢) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْتَقٍ حِسَابِيَةَ

﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ ^(٣) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾ ^(٤) ﴿

[الحاقة : ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢] ^(*) فهذه نعمة عظيمة من نعم الله - تعالى - يمتنُّ بها على عباده المؤمنين و ((يخبر تعالى عن سعادة من يؤتى كتابه يوم القيامة بيمينه وفرحه بذلك وأنه من شدة فرحه يقول لكل من لقيه : « هاؤم اقرأوا كتابيه »)) ^(٢) .

ولا يكتفي جرير في مواجهته للأخطل بهذه الحقيقة بل إنه يتصدى له بالحقيقة المقابلة لها وهي أن الكافر يُعطى كتابه يوم القيامة بشماله ، وهي علامة الخزي والعار والخسران والخيبة .

^(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ٢٠٨ .

^(*) وهذا المعنى أيضا في سورة الانشقاق في الآيات من ٧ - ١٢ .

^(٢) تفسير القرآن العظيم ، ٤ / ٤٤٢ .

وهذه الحقيقة نقلها جرير من القرآن الكريم ويعرفها كلُّ مؤمن في قوله تعالى :

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلِيَّتَنِي لِمَ أُوتِ كِتَابِيَّ ۗ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَّ ۗ ﴿٢٦﴾ يَلِيَّتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ ۗ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الحاقة : ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧] .

والعقابُ والحسابُ حقيقةٌ أخرى من حقائق الإسلام ، وقيمة إيمانية كبرى يؤكِّد عليها جرير ، ويتكئ في هجائه للأخطل وقومه عليها ، ففي قوله : (كِتَاب حِسَابِهِ) تركيز على هذه القيمة الإيمانية ، وَأَظُنُّ أَنَّ مَنْ يَهْتَمُّ بِهَذِهِ الْقِيَمَةِ ، وَيَعْرِفُهَا حَقَّ الْمَعْرِفَةِ يَتَمَتَّعُ بِحَسِّ إِيْمَانِيٍّ قَوِيٍّ يَفْتَنُ بِهٖ أَمَامَ حَصْمِهِ فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَفْتَقِرُ فِيهِ هَذَا الْخِصْمُ إِلَى أَقْلٍ الْقَلِيلِ مِنْ هَذَا الْحَسِّ الَّذِي لَيْسَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ الصَّادِقِ فِي إِيْمَانِهِ ، الْمُؤْمِنِ بِرَبِّهِ ، الْمَطْرَحِ لِكُلِّ هَوًى وَلِكُلِّ زَيْفٍ وَضَلَالَةٍ .

* * *

المَبْحَثُ الثَّانِي :

القيمُ الإيمانيَّةُ في النصرايةِ على
ضوءِ نقضِ جريرِ شعرِ الأخطلِ

تمهيد :

المسلمون يفردون الله تعالى بالعبادة ولا يشركون به عز وجل شيئاً ، ويأتمرون بأمره عز وجل فيفعلون ما يأمرهم الله تعالى به وينتھون عما نهاهم الله تعالى عنه ، ومما نهاهم الله تعالى عنه أكل لحم الخنزير ، كما أنهم يؤذنون للصلاة حينما يحين وقتها ، وبذلك هم يخالفون كلا من اليهود والنصارى . وهم لهم زيهم الإسلامي الذي يخالفون به غير المسلمين ، ولهم كل عام عيدان ، عيد الفطر وعيد الأضحى ، ومن هدي القرآن الكريم أن نهاهم عن إتيان النساء في المحيض .

والله تعالى قد جعل لكل أمة شرعة ومنهاجاً . وإن شاعرنا جريراً المعروف بنزعته الإسلامية الحسنة ، في نقضه شعر الأخطل ، لينطلق في شعره هذا من موقف الإسلام من هذه القضايا ، وهو موقف قد تتفق فيه الشرائع مثل توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة ، ومنها ما تختلف ، فقد جعل عز وجل لكل شرعة ومنهاجاً .

وكان جريراً ينظر بنظارتين اثنتين . فإذا نظر بنظارة الإسلام الأولى بدا مصيباً ، فإذا نظر بنظارته الخاصة به كانت الإصابة بمقدار الاقتراب من النظر بالنظارة الأولى فمن حق النصارى أن يكون لهم مثلاً عيدهم الخاص بهم ، وأن يقرعوا لصلاتهم بالنواقيس ولا ننسى أننا بصدد أحد الشعراء العظماء ، ومن سمات الشعراء الجموح العاطفي ، ولا ننسى كذلك أن شعر النقائض في العصر الأموي بخاصة ، لا يراد به الجذ خالصاً ، ولا الهزل محضاً .

وهذه هي القضايا التي لها صدى في نقض جرير شعر الأخطل في هذه الناحية :

- ١- عِبَادَةُ الصَّلِيبِ .
- ٢- أَكْلُ لَحْمِ الْخِنْزِيرِ .
- ٣- قَرَعُ النَّوَاقِيسِ .
- ٤- لُبْسُ بَرَانِسِ الرَّهْبَانِ .
- ٥- عِيدُ الْفِصْحِ .
- ٦- إِتْيَانُ النِّسَاءِ فِي الْمَحِيضِ .

أولاً : عبادة الصليب :

خلق الله البشر من أجل غاية نبيلة وشريفة وهي عبادته وحده لا شريك له ، لكن الكثير منهم جنحوا عن الجادة ، وابتعدوا عن الدين الذي لا يقبل الله من أحد أن يدين بغيره وهو دين الإسلام . وفي هذه المسألة تحديداً تعمد جرير أن يتعرض من خلال نقضه شعر الأخطل لقضية خطيرة جداً وهي قضية عبادة النصارى للصليب مستنكراً عليهم هذا الفعل الشنيع ، والتصرف المقيت ، مقتطعاً حيزاً من شعره ذاك لهذا الجانب .

قال جرير ^(١) :

لَيْسَ ابْنُ عَابِدَةَ الصَّلِيبِ بِمُنْتَهَى

حَتَّى يَذُوقَ بِكَأْسٍ مَن هَاجَانِي .

يهاجم جرير الأخطل ويهجوّه بأنّه ابن تلك المرأة التي تعبد الصليب ، ويهدّده بأنّه لن ينتهي عن وقوفه في وجهه حتّى يذيقه من نفس الكأس التي أذاق بقيّة الشعراء منها ، عند ذلك سينتهي الأخطل عن مهاجراته ، وسيتوقف - حتماً - عن التعرّض له ، وسيُعلن انهزامه ، وسينبذ جرير وراء ظهره كما نبذ غيره غير عابئ به .

وجرير يحكم على الأخطل وقومه بعبادتهم للصليب ، ويؤكد على ذلك في أكثر من موضع .. ولعله يذهب مذّهب ابن القيّم في ذلك ، فقد وردَ عن ابن القيّم أنّه قال : ((ورأوهم ^(٢) ينفرون من الصليب ، فإنّ في التوراة (التي بأيديهم) : ((ملعون من تعلّق بالصليب)) والنصارى تُقرّ بهذا فعبدوا هم الصليب ...)) ^(٣) .

والمعنى : أنّ النصارى يتبعون ما تكره اليهود ، واليهودُ تكره الصليب ولذلك عبده النصارى .

^(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ٢٠٩ .

^(٢) أي رأوا اليهود .

^(٣) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ، ابن القيم ، تحقيق ودراسة د. محمد أحمد الحاج ، دار القلم ، دمشق ، والدار الشامية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٦ هـ ، ص ٤٨٦ .

ولا أظنُّ جريراً يُلقِي بالكلام على عواهنه خصوصاً في مسألة مهمّة مثل مسألة عبادة النصّارى للصليب ، ونحن نعلمُ أنه عاشَ في القرن الأول الهجري وهو أوّل القرون المفضّلة حيث التّقاء العقديّ ، وحيث التّأصيل العلمي ، والمرجعيّة المعتمدة التي - ربّما - استأنس جريرٌ بآرائها فخرج علينا بهذا الحكم من كون النصّارى يعبدون الصليب .

ومسألة العبادة مسألة حسّاسة جداً ربّما تحصل بأقل القليل ، وربّما تقع بأقل من فعلِ النصّارى مع الصليب ، ففي الحديث الصحيح أنّ النبي - ﷺ - تلا قوله تعالى :

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ [التوبة : ٣١] ، على عديّ بن حاتم الطائي ، فقال : ((يا رسول الله ، لسنّا

نعبدهم . قال : أليس يُحلّون لكم ما حرّم الله فتحلّونه ، ويحرّمون ما أحلّ الله فتحرمّونه ؟ قال : بلى . قال النبي - ﷺ - : فتلك عبادتهم)) ^(١) .

إنّ جريراً وهو يهجو الأخطل وقومه بعبادتهم للصليب من دون الله إنّما يؤكّد على عظم الشّرك بالله - عز وجل - بل ويعلم - وهو الشّاعر المسلم - أنّ الشّرك بالله هو الذّنب الذي لا يغفره سبحانه وتعالى وذلك من خلال إدراكه للآيات القرآنية الدّالة على ذلك ، ومنها قوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٤٨] ، وقوله

تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ۗ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ [النساء : ١١٦] .

وفي بيت آخر يقول جرير ^(٢) :

^(١) فتح المحيد شرح كتاب التوحيد ، الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب ، تحقيق

عبد القادر الأرناؤوط ، مكتبة المؤيد ، الطائف ، ومكتبة دار البيان ، دمشق ، سوريا ، ط ٣ ،

١٤١٤ هـ ، ص ١٠٧ .

^(٢) نقائص جرير والأخطل ، ص ٨٧ .

عَبَدُوا الصَّلِيبَ ، وَكَذَّبُوا بِمُحَمَّدٍ

وَبَجِبْرَائِيلَ ، وَكَذَّبُوا مِيكَالًا .

هنا - أيضًا - يهجو جرير التَّغْلِبِيِّينَ ويعيِّرهم بعبادتهم للصَّلِيبِ ونلاحظ إكثاره من ذلك والسبب هو فداحة هذا الأمر في ذهنية شاعرٍ مسلمٍ ، فلا يمكن أن يتصور جرير أن يصرفَ أحدٌ من البشر عبادته لغير الله الذي خَلَقَهُ وَرَزَقَهُ ، وأحياه ، وهياً له سُبُلَ العيش .

وَيُرْسِخُ جرير تأكيده على عبادة التَّغْلِبِيِّينَ للصَّلِيبِ في أكثر من موضع حتَّى في هجائه لغيرهم ، كهجائه للفرزدق في قوله (١) :

رَهْطُ الْفَرَزْدَقِ مِنْ نَصَارَى تَغْلِبٍ

أَوْ يَدْعِي كَذِبًا دَعَاوَةَ زورٍ .

حُجُّوا الصَّلِيبَ ، وَقَرَّبُوا قُرْبَانَكُمْ

وَأَخَذُوا نَصِيبَكُمْ مِنَ الْخِنْزِيرِ .

والمعنى الذي يقصده جرير أن الفرزدق حين ينسب نفسه للتَّغْلِبِيِّينَ إنّما ذلك لضعف منه ، وإذا انتسب إليهم فعليه أن يحجَّ معهم للصَّلِيبِ لا إلى البيت الحرام ، وأن يُقَدِّمَ - كذلك - القَرَابِينَ للصَّلِيبِ لا أن ينحر الهدْيَ كما يفعل المسلمون .

ويقول جرير كذلك (٢) :

وَيَسْجُدُ للصَّلِيبِ مَعَ النَّصَارَى

وَأَفْلَجَ (٣) سَهْمُنَا فَلَنَا الْخِيَارُ .

ويؤكد جرير - كذلك - على هذه العبادة للصَّلِيبِ من قِبَلِ التَّغْلِبِيِّينَ في قوله (٤) :

(١) ديوان جرير ، ص ١٣٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٦٧ .

(٣) أَفْلَجَ : أي فاز وانتصر .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢١٧ .

نُبِّئْتُ تَغْلِبَ يَعْبُدُونَ صَلِيْبَهُمْ
 بِالرَّقَّتَيْنِ إِلَى جَنُوبِ الْمَاخِرِ (١) .
 يَسْتَنْصِرُونَ بِمَارَسَرَجِسَ وَأَبْنِهِ
 بَعْدَ الصَّلِيْبِ ، وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرٍ .
 خَسِرَ الْأَخِيْطَلُ وَالصَّلِيْبُ وَتَغْلِبُ
 وَيُكَالُ مَا جَمَعُوا بِمُدِّ خَاسِرٍ .

ففي هذه الآيات نلاحظ أن جريراً لا يزال يُصِرُّ على الحكم على التغلبين في عبادتهم للصليب في ذلك المكان المعروف بالرققتين إلى جنوب الماخِر .

وإلى جانب عبادتهم للصليب واستنصارهم به ، فهم كذلك يطلبون النصرة والعون من مَارَسَرَجِسَ - وهو من الأولياء الذين يقدسهم التغلبيون - ، ومن ابنه ، وهيئات أن يُقدِّموا لهم شيئاً من النَّفْعِ أو النَّزْرِ اليسير من النصرة والعون ، وينفي ذلك جرير بقوله : (وَمَالَهُمْ مِنْ نَاصِرٍ) ، وفي هذا التعبير تأثر واضح منه بألفاظ القرآن الكريم كما في قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتِ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٢٢] ، وفي قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ

كَفَرُوا فَأَعَذَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٥٦] . وغير ذلك من الآيات الكريمة التي اشتملت على نفس الألفاظ التي ختم بها جرير بيته الذي سبق ذكره قريباً .

ويعن جرير في تهكمه بالأخطل وبالصليب الذي يعبده ، والذي يحمله معه في المعارك راجياً منه العون والنصرة ، وهو أحقر من ذلك وأضعف من أن يُقدِّم شيئاً ، فيقول جرير (٢) :

(١) الماخِر : اسم مكان .

(٢) نقائص جرير والأخطل ، ص ١١٣ .

سَتَعْلَمُ مَا يُغْنِي الصَّلِيبُ إِذَا غَدَتْ

كَتَائِبُ قَيْسٍ كَالْمُعَبَّدَةِ الْجُرْبِ .

وهو تهديد شديد اللهجة من جرير وَجَّهَهُ إلى الأخطل الممعتد بصليبه ، السَّادِرِ في ضلاله ووهمه ، فكأنه يقول له : ستعلم أئُهَا الأخطل أن صَليْبَكَ لن يَحْمِيَكَ ، ولن يُقَدِّمَ لك نصراً عندما تنقضُّ عليك كتائبُ القيسيين . ما فيها من الفرسان الأبطال الألبسين تلك الدروع والتي يُخَيَّلُ لِلنَّاظِرِ أَنَّهُمْ حين يلبسونها كأنهم الإبل المذلَّة المطلبية بالقَطْران .

وهذا الأسلوب التهديديّ استفاده جريرٌ من القرآن الكريم من مثل قوله تعالى :

﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِّنَ الْكَذَابِ الْأَشْرُ ﴾ ، [القمر : ٢٦] .

ويختتم جريرٌ تلك الأبيات الثلاثة السابقة بالحكم بالخسارة على الأخطل - الذي استخدم معه التصغير في قوله : (الأخطل) للتحقير والتقليل من شأنه - ، والخسارة كذلك تلحق بالصليب وبالغلبين .

وجرير حين يُصدِرُ حُكْمَهُ ذاك على الأخطل وعلى الصليب ، وعلى التَّغْلِبِيَيْنِ فإنه يعلم تلك الخسارة علم اليقين ، ويؤمن بحصولها حق الإيمان ، فهو مسلم يؤمن بقوله تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ

الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِلَّا

خَسَارًا ﴾ [فاطر : ٣٩] ، وبقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا

سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا

كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ [يونس : ٤٥] .

ويقول جرير (١) :

أَفِ الصَّلِيبِ وَمَارِسَرَجِسَ تَثْقِي

شَهْبَاءَ (٢) ذَاتَ كَتَائِبِ جُمُهورًا (٣) .

يتساءل جرير متعجبًا مما يفعله الأخطل من حمّله للصليب في المعارك متوهّمًا أنه سيردُّ به عنه بأس تلك الكتيبة الشهباء المجتمعة والمدججة بالسلاح والحديد ، وفي الحقيقة فالصليب لا يردُّ شيئًا ، ولا يُجدي نفعًا ، ومَارِسَرَجِسَ كذلك لا يفيد ، ولا يقدم عونًا ولا نصرةً . بل إن الصليب وَمَارِسَرَجِسَ خَدَعَا وَغَرَّا التَّغْلِبِينَ في المعارك ، فبدلاً من أن يُقدِّمًا النَّصْرَ وَالْعُونَ لِتَغْلِبَ قَدَمًا لها القبر والموت !! وفي ذلك قال جرير (٤) :

غَرَّ الصَّلِيبُ ، وَمَارِسَرَجِسَ تَغْلِبًا

حَتَّى تَقَاذِفَ تَغْلِبَ الرَّجْوَانَ (٥) .

وفي حَمَلِ الصَّلِيبِ من قِبَلِ النَّصَارَى وتقديسِهِم له افتراءً على المسيح - عليه السلام - : ((وَحَمَلِ الصَّلِيبِ - كما يقول كُتَّابُهُمْ - إِشْعَارًا بِإِنْكَارِ النَّفْسِ ، واقتفاء أثر المسيح في هذا الإنكار ، والسير وراء مُخْلِصِهِمْ وفاديتهم)) (٦) ، ولو عَلِمَ المسيح بهذا العبث لما أقره ولأعلن عبوديته لله كما قال تعالى : ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ [مريم : ٣٠] ، وكما قال تعالى : ﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ

(١) نقائص جرير والأخطل ، ص ١٢٥ .

(٢) شهباء : وَصَفٌ وَصَفٌ به جرير الكتيبة لأنّها تظهر كذلك لكثرة السّلاح والحديد الذي يراه النَّاطِرُ أبيض اللون لامعًا .

(٣) جمهورًا : أي مجتمعة .

(٤) ديوان جرير ، ص ٤٢٩ .

(٥) الرَّجْوَانَ : حَافَتَا البئر وأراد هنا القبر .

(٦) محاضرات في النصراية ، الإمام محمد أبو زهرة ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، مصر ، الطبعة الثالثة ،

١٣٨١ هـ ، ص ١٠١ .

أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةَ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفَ عَنْ عِبَادَتِهِ
 وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿ [النساء : ١٧٢] ، وقال تعالى :
 ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ الْهَيْئِينَ
 مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ
 قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ
 عَالِمُ الْغُيُوبِ ﴿ [المائدة : ١١٦] .

ويقول جرير (١) :

وَلَمْ تَمْسَحِ الْبَيْتَ الْعَتِيقَ أَكْفُهَا

وَلَكِنْ بِقُرْبَانِ الصَّلِيبِ تَمَسَّحُ .

إنه استمرارٌ من جرير في هجاء الأخطل ، وذلك بما تفعله المرأة التغلبيّة من المسح بيدها
 على القربان الذي يُقدّم للصليب ، وهذا هو الأمر الذي يليق بالتغلبيّة لا أن تَمَسَّحَ بِكَفِّهَا
 على البيت العتيق وما ينبغي لها ذلك ؛ لأنّ المسح على البيت العتيق لا يليق إلا بالمسلم دون
 غيره ، ونلاحظ التعبير بكلمة (تمسح) في آخر البيت ، والتشديد لحرف السين فيها ، وهذا
 يوحي بالمبالغة والتحمُّس والإصرار من المرأة التغلبيّة على التمسح بالصليب .

فجرير حين عبّر بقوله : (تَمَسَّحُ) إنّما أراد أن ينقل صورةً واضحةً عمّا يفعله التغلبيون
 من إسرافٍ في عبادتهم ، وإرهاق أنفسهم فوق ما تحتمل ، ولو اتّبَعُوا الْحَقَّ وَالصَّوَابَ
 وَأَسْلَمُوا لَمَّا احتاجوا إلى مثل ذلك ولكنهم أبوا فأوكلهم الله إلى أنفسهم ، وهذا من مكره
 - عز وجل - بمن مكرّوا ، وَخِدَاعِهِ بِمَنْ خَادَعَهُ ، قال تعالى : ﴿ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلاَ

هَادِي لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿ [الأعراف : ١٨٦] .

(١) ديوان جرير ، ص ٨٠ .

ويقول جرير (١) :

وَأَدْعُو الْإِلَهَ وَتَدْعُو الصَّلِيبَ

وَأَدْعُو قُرَيْشًا وَأَنْصَارَهَا .

إنَّ جريراً في هذا البيت يهجو الأخطل ويعيره بأنَّه يدعو الصَّلِيبَ ويتوسَّلُ به ، ويعتمد عليه ، بينما هو يدعو الله الواحد الأحد ، ويستعين به ، فهو - سبحانه - خير معين ، وأكرم من يُرَجَى ، وأفضل من يُتوسَّلُ به .

فهي مقارنةٌ يعقدها جريرٌ بينه وبين خصمه الأخطل ، مقارنةٌ بين من يعبد الله وبين من يعبد الصَّلِيبَ ، مقارنةٌ بين من يدعو الواحد الأحد وبين من يدعو الصَّلِيبَ ، ... مقارنةٌ بين من يفخر بقريش وبين من فخره بالصَّلِيبِ وبالرُّهْبَانِ ، ومَارِسِرْجِسٍ وَتَعْلِبٍ ... مقارنةٌ بين من دينه الإسلام وبين من يدين بالنصراية .

وبعد تلك المقارنة يخلُصُ جريرٌ إلى القناعة الراسخة بأنَّه على حقٍّ ، وأنَّه على صوابٍ ، فلا مجال عنده لخلاف ذلك ، ولا شك يراوده على دينه ، فيدعو في بيت آخر بأن يُقَبِّحَ اللهُ مَنْ إِلَهُهُ الصَّلِيبَ مقتنعاً أنَّ التَّغْلِيْبِينَ عَبَدُوا الصَّلِيبَ ، واتَّخَذُوهُ إِلَهًا لَهُمْ فيقول (٢) :

قَبِّحَ الْإِلَهَ مِنَ الصَّلِيبِ إِلَهُهُ

وَاللَّابِسِينَ بَرَانِسَ الرُّهْبَانِ .

فجرير في هذا البيت يُكْمِلُ حَسْمَ تلك المقارنة ، ويؤكد ما توصل إليه من قناعة بدينه ، وإيمانٍ برَّبِّه ، وثباتٍ على عقيدته بقوله (٣) :

فَأَمَّا النَّصَارَى الْعَابِدُونَ صَلِيبَهُمْ

فَخَابُوا ، وَأَمَّا الْمُسْلِمُونَ فَأَفْلَحُوا .

(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ٤٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٠٨ .

(٣) ديوان جرير ، ص ٧٩ .

إنها قناعته بخسارة التعلبيين وبخيتهم ، ويقينه في الوقت نفسه بفوز المسلمين وبفلاحهم
وكأنه يُرَدُّ قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ، [المؤمنون : ١] .

ويقول جرير ^(١) :

يَقْضِي الْكِتَابُ عَلَى الصَّلِيبِ وَأَهْلِهِ

وَلِكُلِّ مُنْزَلٍ آيَةٍ تَأْوِيلُ .

يهاجم جرير في هذا البيت الأخطل بمواجهته مباشرة بأن القرآن الكريم قضى على الصليب والتعلبيين فليست لهم من حياة مادام القرآن قد نزل ، ولا نصراية مع وجود الإسلام ، ولا كتاب آخر غير القرآن فكل آية من نزلة لها تأويلها ولها تفسيرها ولها غايتها التي أنزلت من أجلها .

وكأنني بجرير يريد أن يوصل إلى الأخطل وقومه معنى عظيماً جليلاً اشتملت عليه الآية الكريمة التي قال الله فيها : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ، [آل عمران : ٨٥] .

فهو يريد أن ينقل للتعلبيين هيمنة القرآن الكريم على ما سواه من الكتب السماوية ، وهو ما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ ﴾ ، [المائدة : ٤٨] .

^(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٨٤ .

ثانياً : أكل لحم الخنزير :

ما من طيب إلا أحله الله ، وما من خبيث إلا حرمه ، وما كان الله ليحرم أمراً وفيه فائدة لعبادة ، أو يجل شيئاً وفيه ضرر لهم... وما أحله الله لعباده أكثر مما حرمه عليهم ، فالغرابة كل الغرابة ، والعجب كل العجب أن يحجر المرء واسعاً ، وأن يسير بقدميه في أضيق الطرق ، وأن يضيق على نفسه بعد أن وسع الله عليه .

ويقيناً أن امرأ بلغ من الخذلان هذا الحد إنما هو شخص غير سوي لا يرى نوراً بعينه في وضوح النهار ، ولا يجد طعمًا لحلاوة الماء الزلال في فمه المر .

من هنا استغرب جرير أن يُقدم التغلبيون على أكل لحم الخنزير رغم كل صفات القبح التي تتمثل فيه ، ورغم كل ما يحمله من نجاسة وقذارة .

قال جرير (١) :

أَيْفَحَرُّ عَبْدُ أُمَّهُ تَغْلِبِيَّةُ

قَدْ اخْضَرَ مِنْ أَكْلِ الْخَنَائِصِ (٢) نَابُهَا .

غَلِيظَةُ جِلْدِ الْمَنْخَرَيْنِ مُصِنَّةُ (٣)

عَلَى أَنْفِ خِنْزِيرٍ يُشَدُّ نِقَابُهَا (٤) .

يهجو جرير التغلبيين ويحقر الأخطل ويهجوهم بأمة التي اعتادت أكل الخنازير حتى اخضرت أنيابها من كثرة أكلها ، ولأن جريراً مسلماً فهو يعلم تماماً أن أكل لحم الخنزير محرّم في الإسلام لقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ... ﴾ [البقرة : ١٧٣] ، وقوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ... ﴾

(١) انظر ديوان جرير ، ص ٤٦ .

(٢) الخنايص : صغار الخنازير .

(٣) مُصِنَّةٌ : نَتْنَةٌ كريهة الرائحة .

(٤) نِقَابُهَا : ما تَنَقَّبُ به المرأة من ثياب .

[المائدة : ٣] ، وغير ذلك من الآيات الكريمة التي تُحرِّم تحريمًا صريحًا أكلَ لحم الخنزير على المسلمين ، ولأنَّ جريرًا يعلم ذلك ويعلم أنَّ الإسلام إنما حرَّم أكلَ لحم الخنزير لما فيه من الضَّرر والقَدَرِ ، والإسلامُ دينُ الطَّهارة والنَّظافة ، ودينٌ يحثُّ على ما ينفع المرء وينهى عن كُلِّ ما يضرُّه من أجلِّ ذلك فقد جعلَ جريرٌ من أكلِ التَّغْلبيين لِلحَمِ الخنزير وقودًا يذكي قريحته لِتَتَوَالِي منها عبارات الهجاء ، والتَّحقير ، والتَّعْيير لأولئك القوم وفي مقدمتهم الأخطل ..

وفي البيت الثاني يكمل جريرٌ هجاءه بإظهار أمِّ الأخطل في صورةٍ حقيرةٍ مزريّةٍ فهي امرأةٌ غليظة الأنفِ ، مُصِنَّةٌ ، والمُصِنَّهُ هو المُنْتِنُ ، أَصَنَّ اللَّحْمُ : أَنْتَنَ ^(١) ، فهي نتنة الرائحة تفوح منها روائح الخناييص القدرة ، وكأنَّ أنفها أنف خنزيرٍ يُشدُّ عليه النَّقَابُ .
ويقول جرير ^(٢) :

وَالذَّابِحِينَ إِذَا تَقَارَبَ فِصْحُهُمْ ^(٣)

شُهْبَ ^(٤) الْجُلُودِ خَسِيَسَةَ الْأَثْمَانِ .

مِنْ كُلِّ سَاجِي الطَّرْفِ أَعْصَلَ نَابُهُ

فِي كُلِّ قَائِمَةٍ لَهُ ظِلْفَانِ ^(٥) .

(١) لسان العرب ، ١٣ / ٢٥٠ ، مادة (صنن) .

(٢) نقائص جرير والأخطل ، ص ٢٠٨ .

(٣) عيدهم .

(٤) شهب الجلود : يعني الخنازير فهي كناية عن كثرة الدهن الذي يشهب عند الشواء فيتحوّل لونه إلى غير البياض . (الشُّهْبُ والشُّهْبَةُ : لونٌ بياضٌ يصدّعه سوادٌ في خلاله ، وأنشد : وعلا المفارق ربُّع شيبٍ أشهبٍ . وقال أبو عبيدة : الشُّهْبَةُ في ألوان الخيل ، أن تشقَّ معظمَ لونه شعرةً أو شعراتٍ بيضٌ . كَمَيْتًا كان ، أو أشقرًا أو أدهم) انظر : لسان العرب ، ١ / ٥٠٨ ، مادة : (شهب) .

(٥) ساجي الطرف : ساكن الطرف وفاتر . أعصل نابه : مُعْج النَّابِ (يصف الخنزير) .

إنَّ جريراً يستمرّ في هجاء التّغليبين بأكلهم لَحْمِ الخنازير ، واصفاً تلك الخنازير بأبشع الصّفات الّتي تنفر منها الفطرة السّليمة فهي خنازير خسيسة الأثمان ، وهي شُهْبُ الجلود ، والواحد منها ساكنُ الطّرفِ مُعَوِّجُ النَّابِ له في كُلِّ قائمة من قوائم الأربعة ظلفان ، ومع كل تلك الصفات القبيحة فإنّ التّغليبين يذبحون الخنزير في أفضل أيّامهم وهي أيام عيد الفِصْحِ عندهم ، وكان جريراً عندما يذكُرُ ذبح التّغليبين لِلخنازيرِ في يوم عيدهم يريد أن يلفتَ أنظارَ القومِ إلى ما يفعله المسلمون من ذبح الأضاحي المباركة ، السّليمة الخلقَة ، الطّيبة المأكَلِ في أيّام عيد الأضحى إحياءً منهم لِسُنَّةِ أبيهم إبراهيم - عليه السلام - واقتداءً بِسُنَّةِ مُحَمَّدٍ - ﷺ - في الوقت الذي يخالف فيه التّغليبيون هُجَجَ المسيح - عليه السلام - في تحريمه أكل لحم الخنزير ، فهو - عليه السلام - حَرَمَهُ ، ولم يَطْعَمَ منه شيئاً ، وهم يُجِلُّونه ويُصِرُّونَ على أَكْلِهِمِ لِلحَمِهِ ، افتراءً منهم وانحرافاً عن الجادّة ، وإمعاناً في الضّلالِ .

قال ابنُ القَيِّمِ - رحمه الله - : ((والمسيحُ حَرَمَ الخنزيرَ ، وَلَعَنَ أَكْلَهُ ، وَبَالَغَ فِي ذَمِّهِ - (والنّصارى) تُصِرُّ بِذَلِكَ - (ولقد رُفِعَ إلى الله) وما طَعِمَ من لَحْمِهِ وَزَنَ شَعِيرَةَ ، والنّصارى تَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ بِأَكْلِهِ)) (١) .

ويقول جرير (٢) :

إِنَّ الْأَخِيَّ طِلَّ خِنْزِيرٌ أَطَافَ بِهِ
إِخْدَى الدَّوَاهِي الَّتِي تُخْشَى وَتُنْتَظَرُ (٣) .
مِنْ كُلِّ مُخْضَرَّةِ الْأَنْيَابِ فَغَرَهَا
لَحْمُ الْخَنَانِيصِ يَغْلِي فَوْقَهُ السَّكْرُ .

(١) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ، ص ٤٨٤ ، ٤٨٥ .

(٢) نقائص جرير والأخطل ، ص ١٧٥ ، ١٧٦ .

(٣) هذا الشطر أخذه جرير من قول الأخطل :

وَقَدْ أَصَابَتْ كِلَابًا مِنْ عَدَاوَتِنَا
إِخْدَى الدَّوَاهِي الَّتِي تُخْشَى وَتُنْتَظَرُ .

انظر ديوان الأخطل ، ص ٩٤ .

إن هذه الجريمة الكبرى والسيئة العظمى التي اقترفها التعلبيون من أكلهم للحم الخنزير لم يكن ليتخيلها عقل سليم ، أو يصدقها نظرٌ ثاقبٌ مما حداً بجرير إلى أن يتخيل كلَّ تغلبيٍّ وقد مُسَخَّ حَنْزِيرًا ، إذ لا يُقَدِّمُ على أكل لحم هذا الحيوان القدر ، الكريه المنظر سوى مَنْ يُمَاتِلُهُ فِي الْقَدَارَةِ وَالْخَلْقَةِ ، ودناءة الطَّبَعِ وَانْحِدَارِ الْهِمَّةِ .

فالأخطلُ أصبح في نظر جرير خنزيراً ولذلك يستحقُّ أن يتلقَى الصَّرَبَاتِ المَوْجَعَةَ ، وَأَنْ تَقَعَ عَلَيْهِ المَصَائِبُ والقوارعُ المهلكةُ التي يراها مع كُلِّ بيتٍ يهجو به جرير .
وَمِنْ أعظم تلك المصائب التي يخشاها الأخطلُ وينتظرها ما أنزله جرير بِكُلِّ امرأةٍ من تغلب دون هوادة من وصفها بأنها امرأةٌ أصبحت فَاغِرَةً دائماً من فرط أكلها لِلحَمِ الخنانيص الذي يغلي فوقه السَّكَّرُ ، إلى جانب قذارة أسنانها التي أصبحت مَخْضَرَّةً من هذا اللحم القدر .

ويقول جرير ^(١) :

الصَّاحِكُونَ إِلَى الخِنْزِيرِ شَهْوَتُهُ

يَا قُبَّحَتْ تِلْكَ أَفْوَاهًا إِذَا كَشَرُوا ^(٢) .

وَالْمُقْرِعُونَ عَلَى الخِنْزِيرِ مَيْسِرَهُمْ

بِئْسَ الْجَزُورُ وَبِئْسَ الْقَوْمُ إِذْ جَزَرُوا ^(٣) .

يهجو جريرُ التَّغْلِبِيِّينَ بما فيهم من شهوةٍ مفرطةٍ في أكل لحم الخنزير ، وبما يحثُّه الخنزيرُ عندهم من اهتمام يفوق العادة فهم حين يرون لحم الخنزير يُكشِّرون عن أنيابهم شهوةً فيه ، ورغبةً في الأكل منه، وفوق ذلك فهُم في أثناء جلوسهم مجالس

^(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٧٦ .

^(٢) كشرُوا : ضحكوا ، وظهرت أنيابهم .

^(٣) جاء الشطر الثاني من هذا البيت هكذا : (بِئْسَ الْجَزُورُ وَبِئْسَ الْقَوْمُ إِذْ يَسْرُوا) ديوان جرير ، ص

١٨٣ ، والمراد بـ (يَسْرُوا) : أي يلعبون الميسر وهو ضرب من القمار .

الْقِمَارِ يَجْعَلُونَ قُرْعَتَهُمْ هَذِهِ الْخَنَازِيرِ الْقَذْرَةَ ، فَتُقَبِّحَتْ مِنْ خَنَازِيرٍ ، وَقُبِّحُوا مِنْ قَوْمٍ هَوَتْ بِهِمْ نُفُوسُهُمْ إِلَى هَذِهِ الدَّرَكَاتِ الْمُنْحَطَّةِ .
ويقول جرير (١) :

يَقِئْنَ صُبَابَاتٍ مِنَ الْخَمْرِ فَوْقَهَا

صَهِيرُ خَنَازِيرِ السَّوَادِ الْمُمَلَّحِ (٢) .
إنَّه الهجاء المقذع من جرير للنساء التَّغْلِيَّاتِ اللَّوَاتِي يَشْرَبْنَ مِنَ الْخَمْرِ إِلَى دَرَجَةِ التَّقْيِئِ مِنْهَا مَعَ مَا فِي بَطُونِهِنَّ مِمَّا أَكَلْنَهُ مِنْ لَحْمِ الْخَنَازِيرِ الْمُمَلَّحِ وَالْمَشْوِيِّ إِلَى دَرَجَةِ السَّوَادِ .. وهذه الدَّرَجَةُ الْعَالِيَةُ مِنَ الْهَجَاءِ وَوَجِدَتْ عِنْدَ جَرِيرٍ بِسَبَبِ تَأْثِيرِ الْإِسْلَامِ فِيهِ ، فَالْإِسْلَامُ يُحَرِّمُ تَحْرِيمًا قَاطِعًا أَكْلَ لَحْمِ الْخَنَازِيرِ ، وَالْمُسْلِمُ لَا يُمْكِنُ أَنْ تُسَوَّلَ لَهُ نَفْسُهُ الْإِقْدَامَ عَلَى الْأَكْلِ مِنْ لَحْمِ هَذَا الْحَيْوَانِ الْقَذِرِ وَلِذَلِكَ فَقَدْ صَبَّ جَرِيرٌ جَامَ غَضْبِهِ عَلَى الْأَخْطَلِ وَعَلَى قَوْمِهِ مِنَ التَّغْلِيَّاتِ وَالْمَشْوِيِّاتِ ، الْأَمْرُ الَّذِي رَأَيْتُ مَعَهُ جَرِيرًا يُنَادِي الْأَخْطَلِ بِغَيْرِ لَقَبِهِ فَيَجْعَلُ لَفْظَ (الْخَنَازِيرِ) بَدَلًا مِنْ لَقَبِ (الْأَخْطَلِ) ، وَيَقُولُ : (الْخَنَازِيرِ) عِنْدَمَا يَرِيدُ أَنْ يَتَكَلَّمَ عَنِ (التَّغْلِيَّاتِ) ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ (٣) :

تَمَنَّتْ خَنَازِيرُ الْجَزِيرَةِ حَرْبَنَا

وَقَدْ حَجَرَتْ مِنْ زَارٍ لَيْثٍ كِلَابُهَا .
فجريرٌ هنا يُشَبِّهُ التَّغْلِيَّاتِ بِالْخَنَازِيرِ وَبِالْكِلَابِ - أَيْضًا - حَيْثُ يُحَجِّرُ عَلَيْهِمْ حِمَايَةً لَهُمْ مِنْ بَرَاثِنِ الْأَسَدِ الْقَيْسِيِّ .
وَفِي قَوْلِهِ : (تَمَنَّتْ) مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ التَّغْلِيَّاتِ لَا يُمْكِنُهُنَّ مُوَاجَهَةَ الْقَيْسِيِّينَ وَأَنََّّهُمْ أَحْقَرُ وَأَضْعَفُ مِنْ ذَلِكَ ، فَهَمْ يَتَمَنُّونَ - مُجْرَدَ تَمَنٍّ - حَرْبَ جَرِيرٍ وَقَوْمِهِ .

(١) ديوان جرير ، ص ٨٠ .

(٢) صُبَابَاتٌ : جَمْعُ صُبَابَةٍ ، وَهِيَ الْبَقِيَّةُ .

صهير : المراد المصهور وهو المذاب .

(٣) ديوان جرير ، ص ٤٥ .

ويقول جرير ^(١) :

وَلَلْقَيْنِ وَالْخَنْزِيرِ مِنِّي بَدِيهَةٌ

وَإِنْ عَاوَدَانِي كُنْتُ لِلْعَوْدِ أَحْمَدًا .

إنَّ جريراً في هذا البيت يُعَرِّضُ بالفرزدق والأخطل ، فالقَيْنُ يقصد به الفرزدق ، والخنزير يقصد به الأخطل ، والذي يعنينا في هذا المقام هو قوله : (والخنزير) فنلاحظ أنَّه لم يقل : الأخطل كما اعتاد من قبل وإنما رأيناه يُعَرِّضُ به ويُشَبِّهُهُ بالخنزير الذي أكل من لحمه كثيراً ، وإلى جانب ذلك التَّعْرِيزُ فَإِنَّهُ يتَوَعَّدُ الفرزدق والأخطل إذا كانت البداية منهما بالهجاء ؛ أَنَّهُ سوف يعود بقوةٍ إلى الرَّدِّ عليهما والتَّصَدِّي لهجائهما .

ويستمر جريرٌ في أسلوب التَّعْرِيزِ بالأخطل مُشَبِّهاً له بالخنزير في مثل قوله ^(٢) :

قَالَ الْخَلِيفَةُ وَالْخَنْزِيرُ مُنْهَزِمٌ :

مَا كُنْتُ أَوَّلَ عَبْدٍ مُحْلِبٍ خَانًا .

والمحلبُ هنا هو النَّاصِرُ من غير قومك .

فجريرٌ يقول : إِنَّ الخليفةَ يُوبِّخُ وَيُعَنِّفُ الأخطلَ بِأَنَّهُ تَنَكَّرَ لِمَنْ نَاصَرَهُ ، وَجَحَدَ مَنْ وَقَفَ مَعَهُ ، وَخَانَ مَنْ سَاعَدَهُ .

ويقول جرير ^(٣) :

لَعَلَّكَ يَا خَنْزِيرَ تَغْلِبَ فَاحِرٌ

إِذَا مُضِرٌّ مِنْهَا تَسَامَى بِنُورِ الْحَرْبِ .

نلاحظ في هذا البيت - أيضاً - تناسي جريرٍ لِلْقَبِ المعهود لهذا الشاعر وهو (الأخطل) وأصبح يناديه (يا خنزير تغلب) وهذا إمعانٌ

^(١) ديوان جرير ، ص ١٣٣ .

^(٢) المصدر السابق ، ص ٤٤٦ .

^(٣) نقائض جرير والأخطل ، ص ١١٣ .

منه في الهجاء ، وبسبب فداحة أكل لحم الخنزير عنده ، وإضافةً إلى تشبيهه الأخطل بالخنزير فإنه يهجو - كذلك - بأنه ذليل لا يمكن أن يتسامى بأصله الوضيع الحقيقير ، وإنما يفخر بأولئك القوم الذين تحالف معهم ومنهم الأمويون .
ويقول جرير ^(١) :

تَعَذَّرْتَ يَا خِنْزِيرَ تَغْلِبَ بَعْدَمَا

عَلِقْتَ بِحَبْلِي ذِي مُعَاسِرَةٍ صَعْبٍ ^(٢) .

يوصل جرير نداء الأخطل وهجاءه بقوله : (يا خنزير تغلب) مُعَنَّفاً له بقوله :
إِنَّكَ أَيُّهَا الْخِنْزِيرُ وَقَعْتَ بَيْنَ يَدَيِ شَاعِرٍ شَدِيدٍ بِأَسْهُ ، عَسِيرٍ نَزَّالُهُ ، صَعْبٍ مِرَاسُهُ .
ويقول جرير ^(٣) :

فَلَمَّا سَقَيْتُ السُّمَّ خِنْزِيرَ تَغْلِبِ

أَبَا مَالِكٍ جَدَّعْتُ قَيْنَ الصَّعَاصِعِ ^(٤) .

فهذا تعريضٌ جديد من جرير بالأخطل ، وتشبيهه له بالخنزير ، ثم إنه انتصر عليه وفي ذلك قال : (سَقَيْتُ السُّمَّ) وفيه دليلٌ على نشوة الانتصار الذي لا يُتَوَقَّعُ معه عودة الأخطل إلى المُنَازَلَةِ من جديد . ثم أكد جرير أنه بعد أن فرغ من الأخطل جَدَّعَ أَنْفَ الفرزدق بانتصاره عليه هو الآخر .

^(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ١١٣ .

^(٢) تَعَذَّرْتَ : تَعَسَّرْتَ وَصَعِبَ عَلَيْكَ .

^(٣) ديوان جرير ، ص ٢٥٧ .

^(٤) جَدَّعَ : قَطَعَ الْأَنْفَ .

قَيْنَ الصَّعَاصِعِ : الْفِرْزَدِقُ حَيْثُ نَسَبَهُ إِلَى جَدِّهِ صَعُصَعَةَ .

ويقول جرير^(١) :

وَمَا زِلْتَ يَا خِنْزِيرَ تَغْلِبَ جَاحِرًا

بِمَنْزِلَةٍ يُحْمَى عَلَيْكَ وَلَا تَحْمِي (٢) .

لازال هذا اللقب الجديد (خنزير تغلب) ملازمًا لجرير في هجائه الأخطل مضيفًا إليه أنه في موقع القوة والمنعة بحيث إن الأخطل أصبح عاجزًا مختبئًا في جحره لا يملك حيلة ولا يهتدي سبيلًا، محتاجًا إلى من يُقدم له الحماية فلم يعد يستطيع الدفاع عن نفسه .

ويقول جرير^(٣) :

كَأَنْتَ وَقَائِعُ قُلْنَا لَنْ يُرَى أَبَدًا

مِنْ تَغْلِبِ بَعْدَهَا عَيْنٌ وَلَا أَثْرُ .

حَتَّى سَمِعْتُ بِخِنْزِيرٍ ضَعَا جَزَعًا

فَقُلْتُ : إِنِّي أَرَى الْأَمْوَاتَ قَدْ نُشِرُوا (٤) .

لازال جرير يلاحق الأخطل ويهجوّه ويشبّهه بالخنزير ، وهو في هذين البيتين يذكر أنّهم ألحقوا بالتغلبيين الخسائر والهزائم خلال تلك الوقائع والحروب الطاحنة التي خاضوها ضدهم ، والتي يظن الظانّ مما حصل فيها من قتل عظيمٍ للتغلبيين ألاّ يبقى منهم بعدها أثرٌ ، وأن يكون مألهم الموت جميعًا، لكنّ جريرًا فوجئ بسَماعه صوت الأخطل الذي شبّهه بالخنزير الذي يصيح من شدّة الهول فاعتقد أنّ الأموات قد بعثوا من قبورهم .

(١) ديوان جرير ، ص ٣٨٣ .

(٢) جاحرًا : مقيمًا في الجحر .

(٣) نقاض جرير والأخطل ، ص ١٧٤ .

(٤) ضعًا : صاح .

الأموات قد نُشِرُوا : بعثهم الله وأعادهم إلى الحياة .

ولم يكنف جريرٌ بتشبيه الأخطل بالخنزير وإثماً أجرى هذا التشبيه على سائر التغليبين والتغليات ، ومن ذلك قوله (١) :

خَنَازِيرُ نَامُوا عَنِ الْمَكْرَمَاتِ
فَنَبَّهَهُمْ قَدْرٌ لَمْ يَنَمْ .
فَيَا قُبْحَهُمْ فِي الَّذِي خُوِّلُوا
وَيَا حُسْنَهُمْ فِي زَوَالِ النَّعَمِ .

فجريرٌ في البيت الأول يشبّه التغليبين بالخنزير ، فهو كأنه يرى أن من أكل من لحم هذا الخنزير القدر فلا ينبغي أن يُدعى باسمه وإنما يجب أن يُطلق عليه اسم الخنزير .

وهؤلاء الخنازير - كما وصفهم جريرٌ - ناموا عن كل عملٍ شريفٍ كريمٍ ، ولكن القدر الذي لا ينام نبّههم له ، وهم يصبّحون قبيحين عندما يعطيهم الله النعم ، والأفضل لهم زوال تلك النعم عنهم فبزوالها يظهر جهالمهم ، إذ لا يصلح لهم إلا الفقر والعوز والفاقة .

وقال جرير (٢) :

وَخَاضَتْ حُجُولُ الْوَرْدِ بِالْمَرْجِ مِنْكُمْ
دِمَاءً ، وَأَفْوَاهُ الْخَنَازِيرِ كَلْحُ (٣) .

يهجو جريرٌ في هذا البيت التغليبين ويشبّههم بالخنزير ويذكرهم بانتصار القيسيين عليهم في مرج الكحيل وهو الموقع الذي حصّلت فيه المعركة بين الطرفين حيث أصبحت الإبل ترد

(١) ديوان جرير ، ص ٤١٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٧٩ .

(٣) حُجُولُ : الإبل التي في قوائمها بياض .

الْوَرْدُ : الإقبال على الماء والإشراف عليه .

الْمَرْجُ : مرج الكحيل وفيه انتصرت قيس على تغلب .

كَلْحُ : تكشّفت شفتاه عن أسنانه .

وتخوض في دماء التَّغْلبيين ، وَمَنْ لَمْ يَمُتْ مِنْهُمْ فَإِنَّهُ أَضْحَى كَالِحاً قَدْ تَكَشَّفَتْ شَفْتَاهُ
عن أسنانه ، وعبس وجهه من هول الموقف ، وَمِنْ فِدَاحَةِ الْهَزِيمَةِ .
ويقول جرير^(١) :

أَلَمْ تَرَ قَيْسًا قَيْسَ عَيْلَانَ دَمَّرَتْ

خَنَازِيرَ بَيْنَ الشَّرْعَبِيَّةِ وَالدَّرْبِ^(٢) .

نلاحظ استمرار جرير في تشبيه التَّغْلبيين بالخنازير ويهجوهم ويعيرهم بالهزيمة السَّاحِقَةَ
الَّتِي لَحِقَتْ بِهِمْ عَلَى يَدِ الْقَيْسِيِّينَ بَيْنَ الشَّرْعَبِيَّةِ وَالدَّرْبِ .

*** **

ويبدو أن شِدَّةَ كراهية جرير لهذا الحيوان القذر ، وكثرة
تَرْدَادِهِ لِاسْمِهِ فِي أَثْنَاءِ هَجَائِهِ لِلْأَخْطَلِ وَلِلتَّغْلِبِيِّينَ جَعَلَتْ مِنْ اسْمِ
الخنزير شيئاً مألوفاً دارجاً على لسانه حتَّى فِي هَجَائِهِ لِغَيْرِ التَّغْلِبِيِّينَ .
ونظراً لموقف جرير من الخنزير ، وكرهه الشَّدِيدَ لَهُ ، وَتَأَثُّرًا مِنْهُ بِمَوْقِفِ الْإِسْلَامِ مِنْ
هَذَا الْحَيْوَانِ الْقَذِرِ حَيْثُ يُحَرِّمُ الدِّينُ الْإِسْلَامِيُّ أَكْلَ لَحْمِ الْخَنْزِيرِ ، فَقَدْ تَوَلَّدَ عَنْ ذَلِكَ
الموقف من جرير أن وَصَفَ الْخَنْزِيرَ بِصِفَاتٍ كَثِيرَةٍ هِيَ غَايَةٌ فِي الْقُبْحِ وَالْإِزْدِرَاءِ ،
يَنْفُرُ مِنْهَا أَصْحَابُ الذَّوْقِ السَّلِيمِ ، وَيَتَّقِرُّ مِنْ ذِكْرِهَا الْأَسْوِيَاءُ ، وَلَكِنَّ مِثْلَ تِلْكَ
الصفات القبيحة لم تثنِ التَّغْلِبِيِّينَ عَنْ أَنْ يَتَّخِذُوا مِنْ لَحْمِهِ طَعَامًا مُفَضَّلًا يُقَدِّمُ فِي الْمُنَاسَبَاتِ
الرَفِيعَةِ عِنْدَهُمْ ، وَيَتِمُّ الْإِقْتِرَاعُ عَلَيْهِ فِي مَجَالِسِ الْمَيْسَرِ ، فَصَاحِبُ الْحِظِّ السَّعِيدِ مَنْ ظَفَرَ بِهِ ،
والتَّعْيِيسُ مَنْ حُرِمَ مِنْهُ !! إِضَافَةً إِلَى الْإِعْتِنَاءِ بِهَذَا الْحَيْوَانِ غَايَةَ الْإِعْتِنَاءِ ، وَتَرْبِيَتِهِ فِي الْمَنَازِلِ
رَغْمَ نَجَاسَتِهِ وَشَكْلِهِ الْمَقْرُزِ ، وَرَغْمَ مَا يَنْقُلُهُ مِنْ أَمْرَاضٍ كُلِّ ذَلِكَ لِأَنَّ نَفْسَ الْقَوْمِ قَدْ
انْحَرَفَتْ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ إِلَى طَرِقِ الْغَوَايَةِ ، وَمَهَاوِي الضَّلَالَةِ .

(١) نقاض جرير والأخطل ، ص ١١٣ .

(٢) الشَّرْعَبِيَّةُ : مَوْقِعٌ بِالْجَزِيرَةِ فِي بِلَادِ تَغْلِبَ كَانَتْ بِهَا وَقْعَةٌ بَيْنَ سُلَيْمٍ وَتَغْلِبَ (انظر المصدر السابق
، ص ١١٣) .

الدَّرْبُ : دَرْبُ الرُّومِ فِي بِلَادِ الرُّومِ ، وَهُوَ مُضِيقٌ فِي الْجَبَلِ صَعْبُ الْمَسْلِكِ .

إنَّ مثلَ هذه التَّراكُماتِ الَّتِي ضاقَ بِها جَريرٌ ذرعًا جَعَلَتْهُ يَبِينُ صِفَاتِ القُبْحِ لَدَى هَذَا الحيوانِ عَلَها تَقْضِي حاجَةً فِي نَفْسِهِ ، أو تُزَلْزَلُ نَفوسَ خُصومِهِ ، وَمِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ ما سَبَقَ ذِكْرُهُ مِثْلَ : خَسِيسَةِ الأَثْمَانِ ، وشُهْبِ الجُلُودِ ، وساجِي الطَّرْفِ ، وَأَعْصَلِ النَّابِ .
وَمِنَ الصِّفَاتِ القَبِيحَةِ الَّتِي وَصَفَ بِها جَريرٌ الخَنْزِيرَ وَالتي لَمْ يَتَقَدَّمْ ذِكْرُها : قولُهُ :
مُخْتَلِفِ النَّابَيْنِ نَخَّارٌ ، حينَ قال (١) :

أُمُّ الأَخِيطِلِ أُمُّ غَيْرِ مُنْجِبَةٍ

أَدَّتْ لِمُخْتَلِفِ النَّابَيْنِ نَخَّارِ (٢) .
فَهي امْرَأَةٌ غَيْرُ مُنْجِبَةٍ ، وَفي نِهايةِ أمرِها انْتَهَتْ إلى وَكَلِدِ مُشَوِّهِ الخَلْقَةِ
فِيهِ صِفَاتِ الخَنْزِيرِ .

*** **

وَمِنَ الصِّفَاتِ القَبِيحَةِ الَّتِي أَطْلَقَها جَريرٌ عَلى الخَنْزِيرِ أَنْ وَصَفَها
بِالمُخَفِّخِ وَالخَنَّانِ وَذَلِكَ فِي قولِهِ (٣) :

قَبَحَ الإِلَهُ سِبَالِ تَغْلِبِ إِئْهَها

ضُرِبَتْ بِكُلِّ مُخَفِّخِ خَنَّانِ (٤) .
وَالخَفِّخَةُ - كما قال ابن منظور في لسان العرب - : صوت
الحُبارَى والضَّبُعِ وَالخَنْزِيرِ (٥) . (وَخَفِّخَ : صَوَّتَ .

(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٤٧ ، وقد جاء البيت برواية أخرى هي :
أُمُّ الأَخِيطِلِ أُمُّ غَيْرِ مُنْجِبَةٍ أَدَّتْ لِأَشْهَبِ وَسَطِ البَقِّ نَخَّارِ .

ديوان جرير ، ص ٢٢٠ .

(٢) مُخْتَلِفِ النَّابَيْنِ : كناية عن الخنزير .

نَخَّارٌ : يُصَوِّتُ مِنْ خِياشِيمِهِ .

(٣) ديوان جرير ، ص ٤٢٩ .

(٤) مُخَفِّخِ خَنَّانِ : المراد الخنزير .

(٥) لسان العرب ، (خفف) ، ٩ / ٨٢ .

(الخَفَخَافُ) : الَّذِي كَانَ صَوْتُهُ يَخْرُجُ مِنْ أَنْفِهِ ، وَيُقَالُ :
هُوَ خَفَخَافُ الصَّوْتِ (١) .

و (الخَنِينُ : ضَرْبٌ مِنَ الْبُكَاءِ دُونَ الْإِنْتِحَابِ ، وَأَصْلُ الْخَنِينِ خُرُوجُ
الصَّوْتِ مِنَ الْأَنْفِ ، وَفِي حَدِيثِ أَنَسٍ : فَغَطَّى أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ -
وُجُوهَهُمْ لَهُمْ خَنِينٌ . قَالَ ابْنُ سَيِّدِهِ : وَالْخَنَنْ وَالْخُنَّةُ وَالْمَخَنَّةُ كَالْعُنَّةِ ،
وَقِيلَ : هُوَ فَوْقَ الْعُنَّةِ وَأَقْبَحُ مِنْهَا . وَقَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ : وَالْخَنِينُ مِنَ الْأَنْفِ .
وَقَالَ الْفَصِيحُ مِنْ أَعْرَابِ بَنِي كِلَابٍ : الْخَنِينُ سَدَدٌ فِي الْخِيَاشِيمِ ،
وَالْخَنَانُ : دَاءٌ يَأْخُذُ فِي الْأَنْفِ (٢) ، وَالسَّبَالُ : (السَّبَلَةُ مَا عَلَى الشَّفَةِ
الْعُلْيَا مِنَ الشَّعْرِ يَجْمَعُ الشَّارِبِينَ وَمَا بَيْنَهُمَا ، وَالْمَرْأَةُ إِذَا كَانَ لَهَا
هَنَّاكَ شَعْرٌ قِيلَ : امْرَأَةٌ سَبَالٌ ، وَالسَّبَلَةُ عِنْدَ الْعَرَبِ مُقَدَّمُ اللَّحْيَةِ ،
وَيُقَالُ : جَاءَ فُلَانٌ وَقَدْ نَشَرَ سَبَلَتَهُ إِذَا جَاءَ يَتَوَعَّدُ .

وَيُقَالُ لِلْأَعْدَاءِ : هُمْ صُهْبُ السَّبَالِ (٣) وَأَرَادَ جَرِيرٌ بِالسَّبَالِ وَجْهَ التَّغْلِبِيِّينَ .
وَفِي هَذَا الْبَيْتِ يَدْعُو جَرِيرٌ عَلَى التَّغْلِبِيِّينَ بِأَنْ يُقَبِّحَ الْإِلَهَ وَجْهَهُمْ وَأَنْ
يَمَسَّخَهُمْ خَنَازِيرَ .

*** **

وَيُؤَاصِلُ جَرِيرٌ هَجَاءَ الْأَخْطَلِ حَيْثُ يُعَيِّرُهُ بِأُمَّهِ فَيَقُولُ (٤) :
نَزَتْ أُمُّ الْأَخْيَطِلِ وَهِيَ نَشْوَى
عَلَى الْخَنَزِيرِ تَحْسَبُهُ غَزَالًا (٥)

(١) المعجم الوسيط ، مادة (خَفَخَفَ) ، ١ / ٢٤٦ .

(٢) انظر لسان العرب ، مادة (خَنَنْ) ، ١٣ / ١٤٢ ، ١٤٣ .

(٣) انظر المصدر السابق ، مادة (سَبَل) ، ١١ / ٣٢٢ .

(٤) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٩٥ .

(٥) نَزَتْ : طَمِحتْ وَرَغِبَتْ .

نَشْوَى : سَكْرَى .

ولعل البيت التالي يكون ضربةً قاصمةً لِلظَّهْرِ وَجَهَهَا جَرِيرٌ لِالأخطل حيث قال
يهجوه بِأُمَّه (١) :

تَغْلِي الخَنَانِيصُ وَالْفُولُ الَّذِي أَكَلْتُ

فِي حَاوِيَا وَي رَدُّومِ اللَّيْلِ مِجْعَارٍ (٢) .
يُريدُ جَرِيرٌ هُنَا أَنْ يَنْقُلَ صُورَةً بِشِعْرَةٍ لِمَا يُحْدِثُهُ لَحْمُ
الخَنَانِيصِ الَّذِي أَكَلْتَهُ أُمَّ الأخطلِ مَعَ ذَلِكَ الفُولِ حَيْثُ يَجْعَلُهَا
فِي حَالَةٍ مَزْرِيَةٍ طَوَالَ اللَّيْلِ فَهِيَ رَدُّومٌ طَوَالَ اللَّيْلِ ، وَهِيَ مِجْعَارٌ ،
و (المَجْعَرُ : الدُّبْرُ . وَيُقَالُ لِلدُّبْرِ : الجَاعِرَةُ والجَعْرَاءُ . والجَعْرُ :
نَجْوُ كُلِّ ذَاتِ مِخْلَبٍ مِنَ السَّبَاعِ . والجَعْرُ : مَا تَيَبَّسَ فِي
الدِّبْرِ مِنَ العَذْرَةِ . والجَعْرُ : يُبْسُ الطَّبِيعَةَ ، وَحَصَّ ابْنُ
الأَعْرَابِيِّ بِهِ جَعَرَ الإنسانَ إِذَا كَانَ يَابِسًا ، وَالجَمْعُ جُعُورٌ ؛
وَرَجُلٌ مِجْعَارٌ إِذَا كَانَ كَذَلِكَ) (٣) .

(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٤٨ ، وجاء البيت في ديوان جرير هكذا :
تَضَعُو الخَنَانِيصُ وَالْفُولُ الَّذِي أَكَلْتُ فِي حَاوِيَاتِ رَدُّومِ اللَّيْلِ مِجْعَارٍ .

ديوان جرير ، ص ٢٢٠ .

(٢) حَاوِيَا وَي : الأَمْعَاءُ .

ردوم : ضَرُوطُ .

(٣) لسان العرب ، ٤ / ١٤٠ ، مادّة (جعر) .

ويقول جرير ^(١) :

لَقِحَتْ لِأَشْهَبَ بِالْكُنَاسَةِ دَاجِنٍ

خِنْزِيرَةً فَتَوَالَدَا خِنْزِيرًا ^(٢) .

هنا جعل جرير من والدي الأخطل خنزيرين تزوجا في ذلك المكان القذر
وكان نتيجة هذا الزواج أن ولد لهما خنزير وهو الأخطل .

*** **

^(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٢٦ .

^(٢) أشهب : أي مثل الخنزير في لونه .

الكناسة : اسم موضع بالكوفة ، والكناسة أيضاً : المكان الذي تُلقى فيه
القمامة وكذلك مريض البهائم . داجن : هو الحيوان الأليف المستوطن .

ثالثاً : قرع النواقيس :

قرع النواقيس وسيلة يعبر بها النصارى عموماً عن دخول أوقات صلاتهم ، وقد لاحظ جرير ذلك السلوك عند نصارى تغلب خصوصاً وذلك السلوك عند أولئك القوم يمثل قيمة إيمانية .

وكان جريراً يقارن في أعماقه بين الأذان الذي هدى الله تعالى إليه المسلمين وبين وسيلة النصارى للإعلان عن وقت الصلاة وكأنه يشعر بسمو الأذان بالقياس إلى غيره من الوسائل ، ومنها وسيلة النصارى . فهذا هو ذا شعور جرير يتجلى في هيئة هجومه على الأخطل من زاوية النداء بهذه الوسيلة المرجومة في أعماقه .

قال جرير (١) :

صُبَّتْ عَلَيْهِمْ عَقِيمٌ لَمْ تَزَلْ بِهِمْ
حَتَّى أَصَابَهُمْ بِالْحَاصِبِ الْقَدْرُ .
رَجَسٌ يَكُونُ إِذَا صَلَّى أَدَانُهُمْ

قرع النواقيس لا يذرون ما السور .

يهجو جرير التعلبيين واصفاً إياهم بالرجس ، ومُعيراً لهم بما اتَّخَذُوهُ أَدَانًا لهم قبل صلاتهم ، وهو قرع النواقيس ، فكأنه بذلك يعقد مقارنةً بين ما يفعله المسلمون قبل الصلاة من أذانٍ ، وبين ما يفعله التعلبيون من قرعٍ للنواقيس .

فالأذان عند المسلمين يحمل كلمة التوحيد ، ويتضمن الشهادة ، ويدعو المسلمين إلى الصلاة ، وإلى الفلاح ، وإلى التكبير لله - تعالى - بينما رأى جرير أن تلك المعاني والقيم الإسلامية مغيبةً تماماً في قرع التعلبيين لنواقيسهم قبل صلواتهم (٢) . فهذه القيمة الإيمانية عند أولئك التعلبيين ليست كقيمة الأذان عند المسلمين .

(١) نقاض جرير والأخطل ، ص ١٧٢ .

(٢) ((والصلاة عندهم ركن من أركان الدين ، وهي في زعمهم تقرهم إلى الله عن طريق المسيح ... والصلاة عندهم لها شرطان أساسيان لا توجد بدونهما ، هما منها بمرتلة الدعامة ، الشرط الأول : أن تُقدّم باسم المسيح .. الشرط الثاني : أن يسبق الصلاة الإيمان الكامل بما عندهم ، فقد جاء في

وقد وظف جرير هذا الشعور في هجومه العام على الأخطل .
 وفي البيت الأول نلاحظ استحضر جرير في هجائه الأخطل والتعليين لما وصف الله به في
 القرآن الكريم نوعين من الريح التي سَلَطَهَا على بعض الأقسام عقاباً منه - سبحانه -
 فالنوع الأول : هي الريح العقيم ^(١) التي لا تثير سحاباً ، ولا تأتي بخير ، والثاني : هي الريح
 الحاصب ^(٢) وهي الشديدة القوية التي تحمّل معها البرد والحصاء والتراب .
 فيذكر جرير أنهم تصدوا للتعليين كتلك العاصفة العقيم التي لا تمطر ، حتى دمروهم ،
 وألحقوا بهم الهزيمة الساحقة .

* * *

...الإصحاح الحادي عشر من إنجيل مرقس ما نصه : ((لذلك أقول لكم كل ما تطلبونه حينما
 تُصلُّون فآمنوا أن تنالوه ، فيكون لكم)) ((انظر محاضرات في النصراية ، ص ١٠٢ ، ١٠٣ .
 وجاء في (الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة) حول بيان كيفية الصلاة عند النصاري :
 ((الصلاة : ليس لها عدد معلوم مع التركيز على صلاتي الصباح والمساء ، وهي عبارة عن أدعية
 وتساييح وإنشاد ، كما أن الانتظام في الصوم والصلاة إنما هو تصرف اختياري لا إجباري .
)) انظر الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ، الندوة العالمية للشباب الإسلامي ،
 الرياض ، الطبعة الثانية ، ص ٥٠٤ .

^(١) الريح العقيم أرسلها الله على قوم عاد ، كما قال تعالى : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ
 الْعَقِيمَ ﴾ ، [الذاريات : ٤١] .

^(٢) الريح الحاصب أرسلها الله على قوم لوط ، كما قال تعالى : ﴿ كَذَبَتْ قَوْمٌ لُوطٍ بِالنُّذُرِ
 ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ حَاصِبًا إِلَّا ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴾ ، [القمر : ٣٣ ،
 ٣٤] ، وفي قوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾ ، [العنكبوت : ٤٠] قال
 ابن كثير : ((وهم عاد وذلك أنهم قالوا من أشد منا قوة فجاءهم ريح صرصر باردة شديدة
 البرد عاتية شديدة المبوب جداً تحمّل عليهم حصاء الأرض فتلقاها عليهم وتقتلعهم من الأرض
 ...)) انظر تفسير القرآن العظيم ٣ / ٤٢٤ .

رابعًا : لُبْسُ بَرَانِسِ الرَّهْبَانِ :

أباح الإسلام للمسلم أن يلبس ما يشاء من اللباس في حدود ما جاءت به الشريعة السمحة من حث على لباس الستر والوقار والتواضع بعيدا عن كل لباس فيه إسراف أو خيلاء أو تشبه بكافر أو أن يلبس الرجل لباس المرأة ، أو المرأة لباس الرجل ... أما لباس الرهينة فليس من الإسلام في شيء ، ولهذا رأينا جريرا يشن حربه الهجائية على التغليبين بأن هجاهم بما يلبسونه من البرانس .

وجرير ينطلق في هجومه على الأخطل من زاوية الشعور في أعماقه بسمو الملابس الإسلامية ، والزبي الإسلامي .

قال جرير (١) :

قَبَحَ الْإِلَهُ مَنِ الصَّلِيبُ إِلَهُهُ

وَاللَّابِسِينَ بَرَانِسَ الرَّهْبَانِ .

يهجو جرير التغليبين ويُعَيِّرُهُمْ بلبسهم تلك البرانس التي يرتديها الرهبان ، والبُرُنْسُ : كلُّ ثوبٍ رأسه منه ، مُلتزِقٌ به (٢) ، وجرير لم يعب البرانس جملةً وإنما عاب تلك البرانس التي يلبسها الرهبان ، فقال : برانس الرهبان .

ونلاحظ أن جريراً لم يُغفلُ حتَّى مسألة اللباس في هجائه للأخطل ولقومه ، وهذا يدل على تأثره بالإسلام تأثراً واضحاً فهو يعلم أن المسلم له زيُّه الخاص الذي يتفرّد به عن سائر أهل الأديان الأخرى فلا يلبس المسلم لباساً فيه تشبُّه بالكفار ، ولا يلبس لباس الكبر والخيلاء ، ولا يرتدي الحرير ، ولا يجرُّ ثوبه خيلاء ، ولا يتنطع بلباس الرهبنة المتدعة أو التصوف المقيت ، ولذلك فقد هجا التغليبين في لباسهم ، وكأنه في الوقت نفسه يفخر بلباسه الإسلامي الذي اختاره له الإسلام ، وعنيت به الشريعة .

(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ٢٠٨ .

(٢) المعجم الوسيط ، ١ / ٥٢ مادة (تَبْرُنْسَ) . وفي لسان العرب (البُرُنْسُ : قَلَنْسُوةٌ طويلة ، وكان التُّسَّاكُ يلبسونها في صدر الإسلام ، وهو من البُرْسِ ، بكسر الباء ، القطن ، والنون زائدة ، وقيل : إنه غير عربي) انظر لسان العرب ، (بسس) ، ٦ / ٢٦ .

خامساً : عيدُ الفصحِ :

عيد من أعياد النصارى يحيون فيه ذكرى خروج اليهود من مصر مع نبي الله موسى عليه السلام ، ولهم معه الكثير من المراسم والعادات من أهمها ذبح الخنازير احتفاءً به والأكل من لحومها .

قال جرير (١) :

وَالذَّابِحِينَ إِذَا تَقَارَبَ فِصْحُهُمْ

شُهَبَ الْجُلُودِ حَسِيَسَةَ الْأَثْمَانِ .

يذكر جريرٌ في معرض هجائه التَّغْلِبِيِّينَ عِيدَ الْفِصْحِ و (هو عيد تذكّار خروج اليهود من مصر ، مع موسى عليه السلام ، والنَّصُّ عليه في سفر اللاويين هو : ((في الشَّهْرِ الْأَوَّلِ فِي الرَّابِعِ عَشَرَ مِنَ الشَّهْرِ بَيْنَ الْعِشَاءِ بَيْنَ فِصْحٍ لِلرَّبِّ)) (٢) .

و (يبدأ من ١٤ أبريل مساءً وينتهي مساءً ٢١ منه ويكون الطعام فيه خبزاً غيرَ مَخْتَمِرٍ) (٣) ، وحين يهجو جريرُ الأخطلَ وقومه ويُعَيِّرُهُمْ بهذا العيد وبما يصنعون فيه من ذبح للخنازير ، وأكل للحومها القذرة فكأنه يفتخر في اللحظة ذاتها بإسلامه ، وبما شرَّعه اللهُ للمسلمين من عِيدَيْنِ اثْنَيْنِ فِي كُلِّ عَامٍ يَفْرَحُونَ فِيهِمَا الْفَرَحَ الْمَبَاحَ الْمُنضَبَطَ بِضَوَابِطِ الشَّرِيعَةِ ، وَيَأْكُلُونَ مِمَّا أَحَلَّ اللهُ لَهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، وَيَلْبَسُونَ الْمَلَابِسَ الْجَدِيدَةَ ، وَيَتَطَيَّبُونَ مِنَ الطَّيِّبِ الزَّكِيِّ الرَّائِحَةِ وَلَيْسَ كَمَا يَفْعَلُ التَّغْلِبِيُّونَ حِينَ يَخْتَارُونَ ذَلِكَ الْحَيَوَانَ الْقَذِرَ لِيَكُونَ طَعَامَهُمْ فِي أَعْيَادِهِمْ فَيَجْمَعُونَ بِذَلِكَ بَيْنَ مَا يَصِلُ إِلَى بَطُونِهِمْ مِنْ لَحْمٍ قَذِرٍ ، وَبَيْنَ مَا يَنْبَعُثُ مِنْهُمْ مِنَ الرِّوَائِحِ الْكَرِيهَةِ نَتِيجَةً أَكَلَ لَحْمَ ذَلِكَ الْحَيَوَانَ ، وَهَذَا مَا يَأْنِفُ مِنْهُ الْمُسْلِمُونَ .

* * *

(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ٢٠٨ .

(٢) حقيقة النصيرية من الكتب المقدسة ، علي الجوهري ، دار الفضيلة ، القاهرة ، مصر ، ص ٢٤٣ .

(٣) انظر الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ، ص ٥٧٠ .

سادساً : إثبات النساء في المحيض :

سلوك مشين حرمه الإسلام لما يكتنفه من الضرر الكبير ، ولما فيه من منافاة للفطرة السوية ، لكن نصارى تغلب لم يتخرجوا من أن يأتي الواحد منهم زوجته وهي حائض !! بل والأدهى من ذلك أن يستحب أحدهم أن يواقع زوجته حالة حيضها أكثر من أن يواقعها وهي طاهرة — كما زعم ذلك جرير — وكأن جريرا يريد أن يبين لنا عظمة الإسلام وطهارته ، ويبرز جانب النقاء والصفاء فيه ، وفي الطرف الآخر نرى الغشاوة التي تعتري التغليبين وتجعل من توجهاتهم الدينية توجهات مشكوكا في صوابها، وحققتها. قال جرير^(١):

وَلَا يَتَّقُونَ مَحِيضَ النِّسَاءِ

وَلَا يَسْتَجِبُونَ أَطْهَارَهَا .

يهجو جرير التغليبين هجاءً مُقْذِعاً وذلك بأنهم يأتون النساء حالة حيضهن ، بل ويُبالغ في هجائهم بأنهم يرغبون ذلك رغبةً شديدةً ، ويكون إتيانهم للمرأة وهي في الحيض أطيبَ عندهم من إتيانها وهي في الطهر فقال : ولا يستجيبون أطهارها . والتغليون إنما يفعلون ذلك مُخَالَفَةً لِلْيَهُودِ ، وتطبيقاً لما يكرهونه ، قال ابن القيم - رحمه الله - : ((ورأوهم^(٢) يجتنبون من (مؤاكلة) الحائض (وملامستها) فجامعوها هم ...))^(٣) .

إن مؤاكلة الحائض وملامستها أمرٌ لا ضير فيه في الإسلام ، وإنما النهي والتحریم في الإسلام يكمن في إثبات النساء في المحيض ، وأمَّا التغليون نتيجةً لتخبُّطهم ، فقد وقَعوا فيما وقَعوا فيه من الأخطاء الفاحشة ممَّا هو محل التنديد والاستنكار عند العقلاء ، وقد رأى جرير في ذلك الفعل فرصةً سانحةً لِيَنْقِضَ عَلَى خِصْمِهِ زَاجِراً لَهُ وَلِقَوْمِهِ عَلَى تِلْكَ الْأَفْعَالِ الرِّخِيصَةِ ، ومفتخراً عليهم في أعماقه بما يَعْلَمُهُ الْأَخْطَلُ مِنْ تَحْرِيمِ الْإِسْلَامِ إِتْيَانَ النِّسَاءِ فِي الْمَحِيضِ .

(١) نقائص جرير والأخطل ، ص ٤٧ .

(٢) المراد بقوله : (ورأوهم) أي : رأوا اليهود .

(٣) انظر هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ، ص ٤٨٦ .

المبحث الثالث :

القيم السلوكية في الإسلام على
ضوء نقض جرير شعر الأخطل .

عندما نستعرض شعر شاعرٍ مسلمٍ فإننا لا نعدم أن نجد القيمَ السلوكيةَ الإسلاميةَ متناثرةً في بعض قصائده إن لم يكن فيها جميعاً ، وهذا ما رأيتُهُ واضحاً جلياً في شعرِ جرير ، ويزيد من هذا الحضور الملحوظ لتلك القيم السلوكية الإسلامية في شعره أنه إزاء شاعرٍ يدين بغير دينه فهو معه على طرفي نقيض .

وكانت القيم السلوكية الإسلامية في نقض جرير شعر الأخطل على النحو التالي :

أولاً : الخُضوعُ لله وحده - دُونَ سِوَاهُ - ، وَحَمْدُهُ وَشُكْرُهُ .

ثانياً : الفخرُ برسولِ الله - ﷺ - وَبِالْأَمَاكِنِ الْمُقَدَّسَةِ .

ثالثاً : طَلْبُ الشَّهَادَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالتَّضَرُّعُ إِلَيْهِ بِالِدُّعَاءِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً .

رابعاً : المُسْلِمُ يَأْتِمِرُ بِكُلِّ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ ، وَيَنْتَهِي عَنِ كُلِّ مَا نَهَى عَنْهُ .

خامساً : كَثْرَةُ الاسْتِمَاعِ إِلَى آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ .

سادساً : الْكِرَامُ وَإِقْرَاءُ الضَّيْفِ وَحِمَايَةُ النَّازِلِينَ وَالدَّفَاعُ عَنْهُمْ .

سابعاً : التَّأَثُّرُ بِاللُّغَاظِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، وَالحَدِيثِ الشَّرِيفِ ، وَبِمَا فِيهِمَا مِنْ أَحْدَاثِ .

ثامناً : العَيْرَةُ عَلَى المَحَارِمِ .

تاسعاً : إِقَامَةُ العَدْلِ ، وَاسْتِنكَارُ الضَّيِّمِ .

* * *

أولاً : الخُضُوعُ لِلَّهِ وَحْدَهُ - دُونَ سِوَاهُ - ، وَحَمْدُهُ وَشُكْرُهُ :

المسلم لا يخضع إلا لله تعالى ولا يطأطئ رأسه لغيره لأنه يعلم علم اليقين أن الله تعالى هو الذي بيده النفع والضرر ، والحياة والممات وبيده الجنة والنار ، وأنه سبحانه — مالك الملك ، وعالم الغيب والشهادة والسر والنجوى ، فلا يستحق أحد الخضوع له من دون الله ، وبالتالي لا يمكن أن يتوجه المسلم بالحمد والشكر إلا لله — تبارك وتعالى — قال جرير (١) :

عَجِبْتُ لِفَخْرِ التَّغْلِبِيِّ وَتَغْلِبٍ

تُؤَدِّي جِزْيَ النَّيْرُوزِ خُضْعًا رِقَابِيهَا (٢) .

يتعجب جرير في هذا البيت من فخر التغلبيين في الوقت الذي يجدر بهم أن يكونوا ذليلين لأنهم يدفعون الجزية وهم صاغرون ذليلون ، وهذا الذل عبّر عنه بقوله : خضعاً رقابها ، والحق — جلّ وعلا — جعل أهل الكتاب يعطون الجزية يداً بيد وهم صاغرون بقصد حملهم على الشعور بألم الذل كي يتخلصوا منه بالمبادرة إلى اعتناق دين الإسلام ، وأما المسلم فلا يخضع إلا لله — تبارك وتعالى — فهو عزيز ، أعزه الله بالإسلام ، وكرمه بالعقيدة السمحة ، وبالتوحيد الخالص له — سبحانه وتعالى — ومن أجل هذه العزة التي جعلها الله لعبده المؤمن كان لزاماً على جرير أن يحمده ربّه على ذلك وحده لا شريك له فنجده يقول (٣) :

فَأَحْمَدُ اللَّهَ حَمْدًا لَا شَرِيكَ لَهُ

إِذْ لَا يُعَادِلُنَا مِنْ خَلْقِهِ بَشَرٌ .

فهذا اليقين من جرير حين يقول جازماً : إذ لا يعادلنا من خلقه بشر ؛ إنما هو يقين نابع من عزة المسلم وأنفته ، وشعوره بعميق الامتنان ، ووجوب القيام بعظيم الشكر لله — تعالى — على نعمة الإسلام .

(١) ديوان جرير ، ص ٤٥ .

(٢) النيروز : من أعياد الفرس يكون أول الربيع .

(٣) نقائص جرير والأخطل ، ص ١٦٩ .

ثَانِيًا : الْفَخْرُ بِرَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - وَبِالْأَمَاكِنِ الْمُقَدَّسَةِ :

إن الفخر برسول الله صلى الله عليه وسلم وبالأماكن المقدسة سلوك إسلامي يتميز به المسلم ، بل ويشرف به فإذا فخر المسلم بهذا الرسول فهو لا يفخر بمجرد رجل كبقية الرجال ، أو بقائد كسائر القادة ، أو بسيد كأولئك السادة ، بل يفخر بأنموذج لم يتكرر ولن يتكرر على مر التاريخ ، وفي فخر المسلم بالأماكن المقدسة ما يوحي إلى التزامه بما هو أعظم منها وأشرف في دين الإسلام كالتوحيد ونبذ الشرك وإقامة الشعائر . قال جرير (١) :

وَمِنَّا رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا وَلَمْ يَنْزَلْ

لَنَا بَطْنٌ بَطْحَاوِيٌّ مَنِيٌّ وَقِبَابُهَا .

إن تلك العزة التي عبر عنها جرير فيما سبق والتي تنبع من خضوع المسلم لله وحده لا شريك له تتأكد هنا من جديد في كل أمر يتعلق بالإسلام وينضوي تحت لوائه ، ومن ذلك افتخار جرير برسول الله - ﷺ - وأنه منهم ، وأنهم يُقيمون بتلك الأماكن المقدسة التي زادها الإسلام شرفاً إلى شرفها ، ومكانة إلى مكانتها ، وأنهم الذين تُضرب عليهم القباب مما يدل على منزلتهم العالية الرفيعة .

ويستمر جرير وهو يهجو الأخطل فيشيد بذلك العز الذي يتقلب فيه بنو تميم والذي بناه الله لهم وأعلاه ، فلولا بناء الله له ما بُني ولا ارتفع فهو عز قائم على الإسلام أتشاح بوشاحه ، وتحلى بحلته وأتزر بإزاره .

يقول جرير (٢) :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ عِزَّ بَنِي تَمِيمٍ

بَنَاهُ اللَّهُ يَوْمَ بَنَى الْجِبَالَ .

بَنَى لَهُمْ رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ

وَعَالَى اللَّهِ ذُرُوتَهُ فَطَالَ .

(١) ديوان جرير ، ص ٤٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٠١ .

فَعَزُّ التَّمِيمِيِّينَ عَزٌّ قَدِيمٌ بَنَاهُ اللَّهُ يَوْمَ أَنْ بَنَى تِلْكَ الْجِبَالَ الرَّوَاسِي ،
وهو كذلك شامخٌ كشموحها .

ويستمرُّ جرير مُمَعَّنًا في هذه القِيَمَةِ السُّلُوكِيَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ فيقول (١) :

إِنَّا تَفْضَلُ فِي الْحَيَاةِ حَيَاتِنَا

وَنَسُودُ مَنْ دَخَلَ الْقُبُورَ قُبُورًا .

اللَّهُ فَضَّلَنَا وَأَخْزَى تَغْلِبًا

لَنْ تَسْتَطِيعَ لِمَا قَضَى تَغْيِيرًا .

فهو فخرٌ ينبثقُ من دين الإسلام يشعرُ به كلُّ مسلم ، لن يستطيع أحدٌ
زحزحةَ المسلم عنه لأنَّ الله هو الذي قدره وقضَى به ، وهو الذي كتَبَ الحياةَ
الطَّيِّبَةَ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةَ لِلْمُسْلِمِينَ .

ومن هذا المنطلق يفخر جرير بما في الإسلام من تأصيلٍ للخِلافةِ ، وشيوعٍ لمبدأ
الشُّورى ، وَحَثٌّ عَلَى التَّشَاوُرِ فِي الْأُمُورِ الَّتِي تَدْعُو الْحَاجَةَ إِلَى التَّشَاوُرِ فِيهَا ،
والاستئناس برأي كلِّ عاقلٍ حصيفٍ ، يقول جرير (٢) :

فِينَا الْخِلَافَةُ وَالنُّبُوَّةُ وَالْهُدَى

وَذَوُّ الْمَشُورَةِ كُلِّ يَوْمٍ تَشَاوُرٍ .

فالخِلافةُ كما يراها جرير ، والنُّبُوَّةُ وَالْهُدَى ، وَأَصْحَابُ الرَّأْيِ وَالْمَشُورَةِ
كُلُّهَا أُمُورٌ تَدْعُو الْمُسْلِمَ إِلَى الْفَخْرِ بِدِينِهِ ، وَتَزِيدُهُ عِزَّةً وَمَنْعَةً .

* * *

(١) ديوان جرير ، ص ٢٠٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢١٨ .

ثالثاً : **طَلَبُ الشَّهَادَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالتَّضَرُّعُ إِلَيْهِ بِالِدُّعَاءِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً :**

إن الغاية التي يتوق إليها المسلم الحق هي أن ينال الشهادة في سبيل الله لعلمه يقيناً بما للشهيد من خصال جليلة ، ومراتب عليّة ، فهو يقدم أعلى ما يملك ، يقدم روحه التي بين جنبيه مهراً لجنة عرضها السماوات والأرض .
والتضرع إلى الله بالدعاء سرّاً وعلانية مؤشر مهم من مؤشرات قوة الإيمان بل ربما كان هو العبادة ذاتها . قال جرير (١) :

أَبَا مَالِكٍ مَالَتْ بِرَأْسِكَ نَشْوَةٌ

وَبِالْبَشْرِ قَتَلَى لَمْ تُطَهَّرْ ثِيَابُهَا (٢) .

فَمِنْهُمْ مُسَجَّى فِي الْعِبَاءَةِ لَمْ يَمُتْ

شَهِيدًا ، وَدَاعِي دَعْوَةٍ لَا يُثَابُهَا .

إن جريراً يخاطب الأخطل ((أبا مالك)) ويهجوّه بفعلته الشنيعة حيث يتلذذ بالخمر ويستعذب نشوتها بينما لم يفكر لحظة في أولئك القتلى من التغلبيين الذين قتلوا في (البشر) فلم يأخذ بثأرهم . وفي البيت الثاني يبين جرير أن أولئك القتلى من قوم الأخطل لم ينالوا الشهادة بمقتلهم لأنهم ليسوا مسلمين فلا ثواب لهم . وهنا تتأكد لنا تلك القيمة السلوكية الإسلامية التي وعها جرير جيداً وهي طلب الشهادة في سبيل الله وسعي المسلم الحق للظفر بها وبالأجر العظيم المترتب عليها . ولم يتحدث جرير عن هذه القيمة السلوكية إلا وهو يعلم علم اليقين فضلها من خلال ثناء القرآن الكريم على المجاهدين في أكثر من آية ، منها قوله تعالى : ﴿ فليقتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالأخرة ومن يقتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً ﴾ [النساء : ٧٤] ، ومن

حلال ثناء النبي - ﷺ - على المجاهدين في سبيل الله على نحو ما رواه أبو هريرة - رضي الله عنه -

حلال ثناء النبي - ﷺ - على المجاهدين في سبيل الله على نحو ما رواه أبو هريرة - رضي الله عنه -

حلال ثناء النبي - ﷺ - على المجاهدين في سبيل الله على نحو ما رواه أبو هريرة - رضي الله عنه -

(١) ديوان جرير ، ص ٤٥ .

(٢) البشر : موقع وقعت فيه معركة بين بني تغلب وقيس عيلان .

عن النَّبِيِّ - ﷺ - قال : ((تَكْفَلَ اللَّهُ لِمَنْ جَاهَدَ فِي سَبِيلِهِ ، لَا يُخْرِجُهُ مِنْ بَيْتِهِ إِلَّا جِهَادًا فِي سَبِيلِهِ وَتَصْدِيقُ كَلِمَتِهِ ، بَأَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ ، أَوْ يُرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ ، مَعَ مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ)) (١) .

وفي قول جرير : وداعي دعوة لا يثابها ، إشارة منه إلى ذلك السلوك الإسلامي العظيم من دعاء المسلم ربُّه الذي يَسْتَجِيبُ دَعَاءَ مَنْ دَعَاهُ وَتَضَرَّعَ إِلَيْهِ وَابْتَهَلَ ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٦] .
فجرير يريد أن يَهْجُوَ الأخطلَ بِمَا حُرِمَ مِنْهُ هُوَ وَقَوْمُهُ مِنَ التَّغْلِبِيِّينَ مَنْ أَنْ دَعَوْتَهُمْ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا ، وَإِنَّمَا يَسْتَجِيبُ اللَّهُ دَعَاءَ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّهُ - سبحانه - قَرِيبٌ مَجِيبٌ (٢) .

ويعزُّزُ جرير حُجَّتَهُ فِيمَا ذَكَرَهُ فِي بَيْتٍ آخَرَ حَيْثُ أَشَارَ إِلَى مَا يَحْصُلُ مِنْ صَاحِبِ السَّفِينَةِ الَّتِي تَتَجَاذَبُهَا الْأَمْوَاجُ الْعَاتِيَةُ فِي عَرْضِ الْبَحْرِ حَيْثُ لَا يَجِدُ بُدًّا مِنْ أَنْ يَدْعُوَ رَبَّهُ سِرًّا وَعَلَانِيَةً لِيَقِينَهُ أَنَّهُ - سبحانه - هُوَ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْعَهُ ، وَهُوَ الَّذِي يَسْمَعُ مَنَاجِيَهُ وَاسْتِغَاثَتَهُ . يقول جرير (٣) :

كَصَاحِبِ الْمَوْجِ إِذْ مَالَتْ سَفِينَتُهُ

يَدْعُو إِلَى اللَّهِ إِسْرَارًا وَإِعْلَانًا .

(١) صحيح مسلم ، كتاب الجهاد ، ص ٨٠٣ .

(٢) قال ابن أبي حاتم : حَدَّثَنَا أَبِي أَنَّ أَعْرَابِيًّا قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْكَ وَسَلَّمَ ، أَقْرَبُ رَبَّنَا

فَمَنَاجِيَهُ أَمْ بَعِيدٌ فَمَنَاجِيَهُ ؟ فَسَكَتَ النَّبِيُّ - ﷺ - فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي

فَأِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي ﴾ إِذَا أَمَرْتَهُمْ

أَنْ يَدْعُونِي فَدَعُونِي اسْتَجِبْتُ)) انظر تفسير القرآن العظيم ، ١ / ٢٢٤ .

(٣) ديوان جرير ، ص ٤٤٢ .

رَابِعًا : الْمُسْلِمُ يَأْتِمِرُ بِكُلِّ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ ، وَيَنْتَهِي عَنْ كُلِّ مَا نَهَى عَنْهُ :

إنَّ المسلم يسيرُ في حياته وفق ما شرَّعه الله له فليس في دين الإسلام انفصالٌ بين العبادة والحياة ، ولا تنافر بين الشريعة وبين ما يمارسه المسلم في عمَلِهِ وفي تجارته وفي تعامله ، فالمسلم مسلم في كُلِّ مكان ، يضع دينه أمامه في كُلِّ تصرُّفٍ ، وفي كُلِّ تعامل .. ومن هنا كانت القيمُ السلوكية ماثوثةً في كُلِّ قصيدة من قصائد جرير فالإسلام حَرَّمَ شَرْبَ الخمر والمسلم يشرف بالتزامه بهذا التَّحريم ، والإسلام حَرَّمَ الميسر والمسلم يرى أنَّ من واجبه أن يسلك طريقاً يبعده عن هذا الميسر ، ولذلك كانت الأبيات التي هجا بها جريرُ الأخطل وقومه كثيرةً جداً في جانب شربهم للخمر ، ولعبهم للميسر وهما سلوكان مشينان لا يسلكهما مسلم يخاف الله ، ويصبو إلى جنَّة عرضها السَّمَاوات والأرض .

قال جرير (١) :

نَزَتْ أُمُّ الْأَخِي طِيلٍ وَهِيَ نَشْوَى

عَلَى الْخِنْزِيرِ تَحْسَبُهُ غَزَالًا .

تَظَلُّ الْخَمْرُ تَخْلِجُ أَخْدَعِيهَا

وَتَشْكُو فِي قَوَائِمِهَا امْدِلَالًا (٢) .

فهو يُعَيِّرُ أُمَّ الْأَخِي بِشربها للخمر وكأنَّه في الوقت نفسه يريد أن يؤكِّد على أنَّ هذا السلوك المشين لا يفعله المسلم .

(١) نقائص جرير والأخطل ، ص ١٩٥ ، ١٩٦ .

(٢) تخرج : أي تحرك .

الأخدعان : عرقان في العنق .

امدلالا : النشاط الذي يشعر به السكران من نشوة الخمر . (وقيل : استرخاء يصيب الرَّجُل ،

يقال : مَدَلَّتْ رِجْلُهُ وَاْمَدَلَّتْ) انظر المصدر السابق ، ص ١٩٦ .

ويقول جرير (١) :

وَالْمُقْرَعَيْنِ عَلَى الْخَنْزِيرِ مَيْسِرَهُمْ

بِئْسَ الْجَزُورُ ، وَبِئْسَ الْقَوْمُ إِذِ يَسْرُوا .

يشير جرير إلى أن التَّغْلِيَّينِ يمارسون الميسر وأن اقتراعهم يكون على الخنزير المعروف بالقدارة .

وفي البيت التالي يهجو جرير التَّغْلِيَّينِ بأن نساءهم يتجردن من الدين ، وكأنه بذلك يشيد بما يتَّمتَّع به النساء المسلمات من الالتزام بدين الإسلام ، وبما فيهن من حِلْمٍ وجمالٍ وَحَسَبٍ وفضيلةٍ وكرامةٍ فيقول (٢) :

نِسْوَانُ تَغْلِبَ لَا حِلْمٌ وَلَا حَسَبٌ

وَلَا جَمَالٌ وَلَا دِينَ وَلَا خَفَرٌ (٣) .

ومن الواضح في هذا البيت أن جريراً يهجو النساء التَّغْلِيَّياتِ بأنهن لا يملكن أي خصلة من الخصال التي تجعل الرجل السوي يقبل على الزواج بالمرأة منهن . والمعنى الذي يريد جرير الوصول إليه من خلال البيتين السابقين هو إثبات أنه من القيم السلوكية في الإسلام البعد كل البعد عن لعب الميسر ، والتزام النساء المسلمات بالحلم والدين ، والقيم الحسنة .

* * *

وهناك قيمتان سلوكيتان إسلاميتان يتحلَّى بهما المسلم ذكراًهما جرير ذكراً عابراً ، وأوماً إليهما في سياق تهكمه بالأخطل ،

(١) ديوان جرير ، ص ١٨٣ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٨٤ .

(٣) الخَفَرُ ، بالفتح : الحياء ومنه حديث أم سلمة لعائشة : غَضُّ الأَطْرَافِ وَخَفَرُ الأَعْرَاضِ أي الحياء من كل ما يكره لمن أن ينظرن إليه ، فأضافت الخَفَرَ إلى الأعراض ... انظر لسان العرب ، ٤ /

وهما الحلال والحرام ، فالمسلم يُجِلُّ ما أحله الله ، وَيُحَرِّمُ مَا حَرَّمَهُ .
يقول جرير (١) :

إِنْ حَرَّمُوكَ لَتَحْرُمَنَّ عَلَيَّ الْعِدَى

أَوْ حَلَّلُوكَ لَتُؤَكَّلَنَّ حَالَا .

والمعنى في هذا البيت أن قوم جرير يسيطرون على الأخطل ، فمتى
حموه أصبح آمنا ، وإن هم أباحوه أصبح لقمة سائغة ، وفريسة سانحة ،
وكان جريرا يريد أن يقول : إن المسلمين هم الذين يجمون - بإذن الله -
أهل الكتاب الذين يدفعون الجزية ، وهم الذين يخذلونهم حال
عدم دفع الجزية .

وإن الإشارة إلى الحلال والحرام في البيت ينبّهان على سلوكين إسلاميين
يتحلّى بهما المسلمون ؛ هما إحلال الحلال ، وتحريم الحرام .

*** **

ومن السلوكيات الإسلامية التي يسلكها المسلمون تطبيقاً لما أمر الله
به إقامة الصلوات الخمس في المسجد ، قال جرير (٢) :

فِينَا الْمَسَاجِدُ وَالْإِمَامُ وَلَا تَرَى

فِي دَارٍ تَغْلِبُ مَسْجِدًا مَعْمُورًا .

فالمساجد في الإسلام لم تُبنَ إلا من أجل إقامة الصلوات الخمس جماعة
فيها ، فجرير يعلم فضل إقامة الصلاة جماعة من حلال ما يعرفه من آيات
كريمة ، منها قوله تعالى : ﴿ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا

أَسْمُهُ يُسَبَّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٦٦﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا

(١) ديوان جرير ، ص ٣٣١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٠٤ .

بِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ
 الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ [النور : ٣٦ ، ٣٧] ، وقوله تعالى : ﴿ أَتَلُمَا
 أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ابْنَ الصَّلَاةِ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ
 وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٥] .

* * *

خامساً : كثرة الاستماع إلى آيات القرآن الكريم :

القرآن الكريم كتاب منهج وإرشاد يهتدي به المسلم إلى صراط الله المستقيم، ولهذا فالمسلم الحق وثيق الصلة به يكثر من قراءته ويتدبر معانيه ، ويعمل بكل أوامره ، ويجتنب كل نواهيه . وفي التزام المسلم بكل ذلك الهداية المسددة ، والأجر العظيم والثواب الجزيل من الله — تبارك وتعالى — . وأما غير المسلم فإنه محروم من استماع آيات القرآن الكريم ، ومن الإفادة منه ، ومن ذلك قول جرير (١) :

صَمَاءُ عَنْ سُورِ الْكِتَابِ وَذِكْرِهِ

بَعْدَ الْهَجُوعِ ، سَمِيعَةٌ لِلْعَافِرِ (٢) .

يهجو جرير المرأة التغلبيّة بأنّها ليست كالمرأة المسلمة ، فهي امرأة بعيدة عن ذكر الله ، وعن سماع سور القرآن الكريم أثناء الليل .

ومفهوم المخالفة الذي يريده جرير من هجاء المرأة التغلبيّة بهذا الشيء أنّ يُسَلِّطَ الضَّوْءَ بالمقابل على سلوك المرأة المسلمة المطيعة لربها المخلصة لدينها ، التي تقضي ليلها تالية لآيات القرآن الكريم أو مُسْتَمِعَةً لها ، مبتعدةً عن الخنا والضلال .

وقد عبّر جرير تعبيراً دقيقاً بقوله : (صَمَاءُ) حيث إنّ هذه اللفظة تتّعدّ بالمرأة التغلبيّة عن أقلّ القليل من الخير ، وعن أيّ أمل في الصّلاح ، وكأنّني به واضعاً آيةً في كتاب الله أمام عينيه وهو يصدر هذا الحكم ؛

وهي قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا

وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال : ٢٣] ، كما أنّ لفظه (صَمَاءُ) في بيت جرير السّابق

تومئ إلى الذين يصمّون آذانهم عن سماع الحقّ كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ

(١) ديوان جرير ، ص ٢١٧ .

(٢) العافر : الكلام الفاحش من طرب وغيره . ((كلامٌ لا عَقْرَ فيه : لا عَوِيصَ فيه)) انظر القاموس المحيط ، الفيروز آبادي ، قدم له وعلّق حواشيه الشيخ أبو الوفا نصر المهوريني ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط ١ ، ١٤٢٥ هـ ، باب الراء ، فصل العين ، ص : ٤٦٧ .

عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿ [الأنفال : ٢٢] . فالمرأة
التَّغْلِبِيَّةُ صَمَّاءُ عن سماع سور القرآن الكريم ، والمشركون صُمَّ
عن سماع الحق .

وفي اختيار جرير لوقت الهجوع دلالة كبيرة على تأثره بآيات الذكر
الحكيم ، فوقت الهجوع من أفضل الأوقات لِلْخُلُوةِ مع الله - سبحانه وتعالى -
ولقراءة القرآن الكريم ، وللدُّعاء ، وللعبادة كما قال تعالى : ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ
عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾

[السجدة : ١٦] وقال تعالى : ﴿ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات : ١٨] .

قال الشاعر ^(١) :

قُلْتُ لِلَّيْلِ : هَلْ بِجَوْفِكَ سِرٌّ

عَامِرٌ بِالْحَدِيثِ وَالْأَسْرَارِ ؟ .

قال : لَمْ أَلْقَ فِي حَيَاتِي حَدِيثًا

كَسُجُودِ الْأَبْرَارِ فِي الْأَسْحَارِ .

إن جريراً يعلم أهمية أوقات السَّحْرِ ، وثُلُثِ اللَّيْلِ الأخير ، ويعلم فضل قيام
اللَّيْلِ من خلال سيرة المصطفى - ﷺ - وسيرة أصحابه الأخيار - رضي الله
عنهم جميعاً - فالرَّسُولُ - ﷺ - أفضل من قام اللَّيْلِ ، وأجلُّ من دعا واستغفر
وخشع لربه في أوقات السَّحْرِ ، وفي هجعة اللَّيْلِ ، والصَّحابة - رضوان الله عليهم -
كان لهم شرف اقتفاء أثر خير البرية ، ومن هنا كان جريرٌ محققاً في الإشارة
إلى هذا السلوك الإسلامي ، وفي هجاء التَّغْلِبِيِّين بما يضافه من سلوك حين
يقضون ليلاً في الفساد والخناس واللَّهو والفحش .

^(١) انظر على شبكة (الإنترنت) موقع :

<http://www.islameiat.com/ramadan/article.php?sid=31>

من مقال في موقع : رمضان مشاعر وشعائر .

سادساً : الكرم وإقراء الضيف وحماية النازلين والدفاع عنهم :

الخصال الإسلامية الحميدة أكثر من أن يحصيها خاص ، أو أن يعدها عاد فهي المكارم الأخلاقية النبيلة وهي السمات الرفيعة ، وهي الطباع السوية وما عداها مما يناقضها من أخلاق سيئة ، وصفات ذميمة فالإسلام منها براء .

وقد ذكر جرير عدداً من الصفات الإسلامية الحميدة التي رسخ مفهومها الإسلام وأصل جذورها في معرض نقضه شعر الأخطل فقال في إحدى نقائضه ^(١) :

وَأَنَا لِنَقْرِي حِينَ يُحْمَدُ بِالْقَرَى

وَلَمْ يَبْقَ نَقِيٌّ فِي سُلَامَى وَلَا صُلْبٍ ^(٢) .

إِذَا الْأُفُقُ الْعَرَبِيُّ أَمْسَى كَأَنَّهُ

سَلَا فَرَسٍ شَقْرَاءَ مُكْتَبِ الْعَصَبِ ^(٣) .

وَتَعْرِفُ حَقَّ النَّازِلِينَ وَلَمْ تَزَلْ

فَوَارِسُنَا يَحْمُونَ قَاصِيَةَ السَّرْبِ ^(٤) .

يفتخر جريرٌ على الأخطل وقومه بحسن ضيافتهم عندما يحل الجوع ويظهر أثره على الأصلاب فتضعف ويبدو الهزال على الأصابع ، وتشتد السنة على الخلق .

بل ويزداد كرمهم للضيف عند قسوة العيش ، واشتداد الجوع الذي عبّر عنه وكنى بصورة وهياة الأفق الأحمر الذي يبدو صافياً خالياً من الشحب الممطرة .

^(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ١١٠ ، ١١١ .

^(٢) القري : طعام الضيف .

نقي : التقى المخ .

السلامى : كل عظم مجوف كعظام الأصابع .

^(٣) سلا : الكيس الذي يكون فيه الفصيل في بطن أمه .

المكتب : الحزين العابس القبيح .

العصب : نوع من الثياب والبرود وقد استعاره هنا لوجه الأفق .

^(٤) السرب : (كل ما رعى من أموال القوم الإبل والغنم) انظر المصدر السابق ، ص ١١١ .

حينئذ يتخلى الناس عن الضيافة ، ويزداد البخيل بخلاً ، ويقلّ الكرماء .
 أمّا جرير وقومه فإنهم يستمرون في كرمهم وضيافتهم وجودهم ، وهنا
 يبرز السلوك الإسلامي الفريد ، وتظهر سماحة الإسلام ، وترتسم صورة
 الجود الإسلامي والعطاء الحمدي^(١) ، والكرم الإبراهيمي^(٢) واضحة ،
 زاهية الألوان أمام عيني جرير ليرصع البيتين السابقين في التأكيد على السلوك الإسلامي
 الذي يهدي إلى الكرم والجود وإقراء الضيف .

وقبل أن أشرح البيت الثالث أتوقف مع بيت آخر هجا به جرير التغلبيين
 ووصفهم فيه بأحط أوصاف البخلاء حيث يقول^(٣) :

الْأَكْلُونَ خَبِيثَ الزَّادِ وَحَدَهُمْ

وَالنَّازِلُونَ إِذَا وَارَاهُمُ الْخَمْرُ^(٤) .

يرسم جرير لوحة قاتمة الألوان للأخطل وقومه ، فهم قوم بخلاء بلغ
 بهم البخل أن يستتروا عن الضيوف في الأماكن التي تكثر فيها الأشجار لتحول

(١) كان رسول الله - ﷺ - يعطي عطاء من لا يخشى الفقر ، وكان سيد الكرماء
 - عليه الصلاة والسلام - ، قال ابن عباس : ((كان رسول الله - ﷺ - أجود الناس بالخير
 ، وكان أجود ما يكون في شهر رمضان ، إن جبريل - عليه السلام - كان يلقاه في
 كل سنة في رمضان حتى ينسلخ ، فيعرض عليه رسول الله - ﷺ - القرآن ، فإذا
 لقيه جبريل كان رسول الله - ﷺ - أجود بالخير من الريح المرسله)) انظر
 صحيح مسلم ، كتاب الفضائل ، ص ٩٧٢ .

(٢) أتنى الله على إبراهيم - عليه السلام - وامتدحه بالكرم في القرآن الكريم ، كما قال تعالى :
 ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَمًا قَالَ سَلْمًا فَمَا لَبِثَ أَنْ
 جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيدٍ ﴾ [هود : ٦٩] ، وقال تعالى : ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ
 سَمِينٍ ﴾ [الذاريات : ٢٦] .

(٣) ديوان جرير ، ص ١٨٢ .

(٤) الخمر : المكان الذي تكثر فيه الأشجار بحيث لا يرى النازل فيه
 من كثرة الأشجار .

بينهم وبين أن يراهم الضَّيف ، وليتهم حين يتخفَّون بين تلك الأشجار بعيداً عن الضُّيوف يأكلون الزَّادَ الطَّيِّبَ النَّظِيفَ ولكنَّهم لا يفعلون ذلك بل يأكلون الزَّادَ النَّجسَ الخبيث .

إنَّها صورة مغايرة لتلك الصُّورة الجميلة التي يظهر بها قوم جرير من المسلمين الذين يتوقُّون لرؤية الضَّيف وإكرامه حتَّى في أحلك الظروف ، وعند اشتداد السَّنين وشح الزَّاد وقلَّة الأمطار .

وبعد أن فرغ جرير من الإشادة بكرم قومه ، ومن تعميق تلك السُّلوكيات النَّبيلة عند المسلمين فإنَّه يَنْتَقِلُ سريعاً مُلتَفِتاً إلى سلوك آخر يمتاز به المسلمون حيث قال :

وَعَرِفُ حَقَّ النَّازِلِينَ وَلَمْ تَزَلْ

فَوَارِسُنَا يَحْمُونَ قَاصِيَةَ السَّرْبِ .

حيث يذكر حماية قومه لأولئك الضعفاء المساكين الذين لا يجدون من يحتويهم ولا من يقف معهم أو يحالفهم ضد من يعتدي عليهم ، وهذه الحماية تأتي بعد إكرامهم ومعرفة حقهم وضيافتهم .

ولعل هذا البيت يقودنا إلى قيمة سلوكية إسلامية تَرَبَّى عليها المسلمون صغاراً وكباراً ، ذكوراً وإناثاً ، وتعلموها من الرسول - ﷺ - حين كان يركب فرسه مسرعاً إذا سمع صوتاً ، أو عَلِمَ خطراً⁽¹⁾ ، وعندما كان يقترب من الأعداء في المعارك ،

(1) اقْتَبَسْتُ ذلك من حديث أنس - ﷺ - قال : ((كان النبي - ﷺ - أحسن النَّاسِ ، وأشجع النَّاسِ ، ولقد فرغ أهل المدينة ليلةً ، فخرجوا نحو الصَّوت ، فاستقبلهم النبي - ﷺ - ، وقد استبرأ الخبر وهو على فرس لأبي طلحة عُرِّي وفي عنقه السَّيف ، وهو يقول : لم تُراعوا، لم تُراعوا. ثم قال: وجدناه بجرّاً أو قال : إنَّه لبحرٌ)) انظر اللؤلؤ والمرجان ←

والصَّحابة - رضوان الله عليهم - خلفه ^(١) ناصرًا لدين الإسلام ،
وذائبًا عن حياضه من جهة ، ومُعَلِّمًا لأصحابه وللأُمَّة قيمةً سلوكيةً إسلاميةً
من جهة أخرى ألاً وهي الشَّجاعة التي أصَلَّهَا - عليه الصَّلَاة والسَّلَام -
في نفوس أصحابه والتي أصبح معها الجميع يتنافسون على حضور ساحات الوغى
وحتى الصبية الصَّغار ^(٢) بل وحتى النساء ^(٣) الكلُّ يتمنى أن يموت شهيدًا في سبيل الله .
من كان يرُدُّه رسول الله - ﷺ - بسبب عدم قدرته - عليه الصَّلَاة والسَّلَام - على
حمِّله إلى ميدان القتال كان يعودُ وهو يبكي ^(٤) كما وصفهم بذلك ربنا فقال :

فيما اتَّفَقَ عليه الشَّيخان ، وضعه محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الحديث ، ١٤٠٧ هـ ، ج ٣ ،
ص ٩٩ ، كتاب الفضائل ، باب شجاعة النَّبِيِّ - ﷺ - وتقدّمه للحرب .
ولا يخفى - كذلك - موقف النَّبِيِّ - ﷺ - يوم حُنين ، حتى إن العباس - ﷺ -
كان يمنع بغلة النَّبِيِّ - ﷺ - من الاندفاع تجاه المشركين .

^(١) استفتت ذلك من قول علي بن أبي طالب - ﷺ - : ((كُنَّا إِذَا حَمِيَ الْبَأْسُ ، وَاحْمَرَّتِ الْجِدْقُ
أَتَقِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - ، فَمَا يَكُونُ أَحَدٌ أَقْرَبَ إِلَى الْعَدُوِّ مِنْهُ ، وَلَقَدْ رَأَيْتَنِي يَوْمَ بَدْرٍ وَنَحْنُ
نَلُودُ بِالنَّبِيِّ - ﷺ - وَهُوَ أَقْرَبُنَا إِلَى الْعَدُوِّ ، وَكَانَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ بَأْسًا)) رواه أحمد ،
انظر السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة ، دراسة محررة جمعت بين أصالة القديم ، وجدّة الحديث ،
د. محمد بن محمد أبو شهبة ، دار القلم ، الطبعة الثالثة ، ١٤١٧ هـ ، ج ٢ ، ص ٦٤٢ .

^(٢) جاء في كتاب السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة ، تحت عنوان (استعراض الجيش وردّ
بعض الصبيان) : ((وفي الطريق استعرض رسول الله الجيش ، وكان خرج مع الرجال بعض
الغلمان ممن لا طاقة لهم على الجهاد رغبةً في الجهاد ، وحبًا للاستشهاد في سبيل الله ، فردّهم النبي
لصغرهم ، منهم : عبد الله بن عمر ، والبراء بن عازب ، وأسامة بن زيد ، وزيد بن ثابت ، وعُرابة بن
أوس ، وأجازهم يوم الخندق ، وكان الرسول ردَّ سُمرة بن جندب ، ورافع بن خديج ، وهما ابنا خمس
عشرة سنة فقيل له : يا رسول الله إن رافعًا رجلٌ رام فأجازه ، فقيل له : فإن سُمرة يصرع رافعًا ،
فأجازه)) انظر المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٩٠ .

^(٣) مثل أم عُمارة (نُسَيْبَة) في غزوة أحد .

^(٤) ((قال محمد بن إسحاق في سياق غزوة تبوك : ثُمَّ إِنَّ رَجَالًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ -

وهم البكّاءون، وهم سبعة نفرٍ من الأنصار وغيرهم... فاستحملوا رسول الله - ﷺ - ←

﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ

تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴾ [التوبة: ٩٢]

، كل تلك النماذج المشرقة وغيرها جعلت جريراً يؤكد على الشجاعة كقيمة سلوكية إسلامية وهو يهجو الأخطل وقومه ، ومن ذلك قوله (١) :

وَإِذَا الدُّعَاءُ عَلَا بِقَيْسِ الْجُمُومَا

شُعْثًا عَوَابِسَ كَالْقُنِيِّ ذُكُورًا (٢) .

حيث يفتخر بأن داعي القتال إذا دعا القيسيين فإنهم يجهزون الخيول للقتال فهم ليسوا جبناء ، بل يسعون إلى الموت سعياً ، ويطلبونه طلباً .

* * *

وكانوا أهل حاجة فقال : ((لا أجد ما أحملكم عليه ...)) انظر تفسير القرآن العظيم ، ج ٢ ، ص ٣٩٦ ، وفيهم قال - ﷺ - : ((إن بالمدينة لرجالاً ما سيرتهم مسيراً ، ولا قطعتم وادياً ، إلا كانوا معكم ، حبسهم المرض)) انظر صحيح مسلم ، كتاب الإمارة ، ص ٨١٤ .

(١) نقاض جرير والأخطل ، ص ١٢٤ .

(٢) شعثاً : الأشعث : ملبد الشعر مغبره .

ذُكُورًا : الذكور قطع الفولاذ تزداد في رأس الفأس أو السيف . (انظر شرح

ديوان جرير ، ص ٣١٨) .

سَابِعًا : التَّأَثُّرُ بِأَلْفَاظِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، وَالْحَدِيثِ الشَّرِيفِ ،
وَبِمَا فِيهِمَا مِنْ أَحْدَاثٍ :

من السلوكيات التي تظهر على المسلم تأثره الملحوظ بما في كل من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف من معانٍ وألفاظٍ ، وذلك لصلته الوثيقة بهذين المصدرين وفوق ذلك تأثره بما فيهما من أحداثٍ ومن ذلك ما رأيتُه واضحًا في الكثير من أبيات جرير محل الدراسة حيث أتى بألفاظ قرآنية ، وبألفاظ من أحاديث المصطفى - صلى الله عليه وسلم - كانت واضحة أشد الوضوح لا يملك القارئ أمامها إلا أن يعزوها إلى ألفاظ في القرآن أو الحديث ، ومن ذلك قول جرير ^(١) :

مُوتُوا مِنَ الْغَيْظِ غَمًّا فِي جَزِيرَتِكُمْ

لَنْ تَقْطَعُوا بَطْنَ وَاذِ دُونَهُ مُضَرُّ .

أي إنَّ التَّغْلِبِيَّينَ لَنْ يَسْتَطِيعُوا الْخُرُوجَ مِنْ جَزِيرَتِهِمْ لِأَنَّ الْمُضَرِّيَّينَ أَمَامَهُمْ سَوْفَ يَعْتَرِضُونَهُمْ وَيَمْنَعُونَهُمْ مِنْ ذَلِكَ . وفي قول جرير : مُوتُوا مِنَ الْغَيْظِ مَا يُذَكِّرُنَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [آل عمران : ١١٩] . فالمسلم الذي يعيش مع القرآن الكريم تلاوةً وسماعًا لا تغيب عنه آيات الذكر الحكيم مع كلِّ حديثٍ يتحدَّثُ به ، أو في كلِّ قصيدةٍ ينظمها فالآيات تُسَعِّفُهُ فِي كُلِّ مَوْقِفٍ ، وَأَلْفَاظُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ تَجْرِي عَلَى لِسَانِهِ فِي كُلِّ مَنَاسِبَةٍ ، وَهَذَا هُوَ سَلُوكُ الْمُسْلِمِ الْحَقِّ سَوَاءً أَكَانَ خَطِيئًا أَمْ شَاعِرًا أَوْ وَاغِظًا أَوْ مَعْلَمًا أَوْ كَاتِبًا ...

(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٧٣ .

وقال جرير^(١) :

وَأَجْرٌ مُطَّرِدُ الْكُغُوبِ كَأَنَّهُ

مَسَدٌ يُنَازِعُ مِنْ لَصَافٍ جَرُورًا^(٢) .

يصف جرير ما يفعلونه في أعدائهم في المعارك من طعنهم بالرماح التي تبقى غارزة في أجسادهم وكأنها تلك الحبال الموجودة في آبار بني نهشل .

ونلاحظ التأثير من قبل جرير بلفظة من ألفاظ القرآن الكريم وهي (مَسَد)

الواردة في قوله تعالى : ﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ [المسد : ٥] .

وقال جرير^(٣) :

فَأَمَّا النَّصَارَى الْعَابِدُونَ صَلِيْبَهُمْ

فَخَابُوا ، وَأَمَّا الْمُسْلِمُونَ فَأَفْلَحُوا .

فقول جرير : وأما المسلمون فأفلحوا ، يُذَكِّرُنَا بقوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ

الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [المؤمنون : ١] ، وقبل ذلك فإن قول جرير : فَأَمَّا النَّصَارَى

الْعَابِدُونَ صَلِيْبَهُمْ فَخَابُوا ، فَإِنَّهُ قَوْلٌ يُذَكِّرُنَا بقوله تعالى :

﴿ ... وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ [طه : ١١١] .

(١) ديوان جرير ، ص ٢٠٥ ، وهو بيتٌ ضمَّن نقيضةً نقضَ بها جرير قصيدةً للأخطل ، ولكنَّهُ لم يرد في القصيدة الموجودة في نقائض جرير والأخطل ، ولم أجده إلا ضمَّن القصيدة الموجودة في ديوان جرير .

(٢) أُجِرَّ : طعن وترك الرمح مكان الطعنة .

المسد : صفة للحبل .

لَصَافٍ : ماء لبني نهشل .

الجرور : البئر البعيدة القعر .

(٣) المصدر السابق ، ص ٧٩ .

وقال جرير ^(١) :

فَقَدْ قَذَفَتْ مِنْ حَرْبِ قَيْسٍ نِسَاءُكُمْ

بِأَوْلَادِهَا ، مِنْهَا تَمَامٌ وَمُعْجَلٌ .

يهجو جرير التغلبيين ويذكرهم بهول تلك الحرب التي خاضها القيسيون ضدهم والتي لشدتها وضراوتها وضعت النساء التغليات ما في بطونهن من أولاد مكتملين وغير مكتملين ، وهذا المشهد الذي ذكره جرير يذهب بنا إلى قوله تعالى : ﴿ ... وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا ... ﴾ [الحج : ٢] . مع الفرق الكبير فيما بين المشهدين فلا مقارنة أصلاً بين ما حصل لنساء تغلب حين أغار القيسيون عليهن وبين ما يحدث للحوامل عند زلزلة الساعة ، فأمر الساعة أمر مهول لا يعادله شيء .

وقال جرير ^(٢) :

لَقَدْ سُلَّ أَسِيفُ الْهُذَيْلِ عَلَيْكُمْ

رِقَاقَ النَّوَاحِي لَيْسَ فِيهِنَّ مُصْفَحٌ ^(٣) .

إنه يهجو الأخطل وقومه بما أحدثه الهذليون فيهم حيث سألوا عليهم السيف الحادة القاطعة فمزقوا أوصالهم ، وقطعوا أعضائهم ، وأعملوا فيهم القتل الشنيع .

وفي قول جرير : ليس فيهن مصفح ، ما يذكرنا بقول سعد بن عبادة : لو رأيت رجلاً مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح عنه ، فبلغ ذلك

^(١) ديوان جرير ، ص ٣٣٤ ، في قصيدة يهجو بها الأخطل وقومه .

^(٢) المصدر السابق ، ص ٧٩ ، في قصيدة يهجو بها الأخطل وقومه .

^(٣) المصفح : الذي يضرب بعرض السيف ، وليس بحده .

رقاق النواحي : حادة شديدة القطع .

رسول الله - ﷺ - فقال : ((أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ ؟ فَوَاللَّهِ ، لَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ ، وَاللَّهُ أَغْيَرُ مِنِّي ، ...)) (١) .

وقال جرير (٢) :

جَاءَتْ سَوَابِقُنَا غُرًّا مُحَجَّلَةً

إِذْ لَيْسَ بِالنَّاسِ تَحْجِيلٌ وَلَا غُرٌّ (٣) .

فهو يفتخرُ بتلك الخيول الشهيرة التي تمتازُ بسرعتها وبجمالها فهي خيولٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ يخوضون بها المعارك .

وفي قوله : غُرًّا مُحَجَّلَةً ، تَأْتُرُ بِقَوْلِ النَّبِيِّ - ﷺ - : ((أَنْتُمْ الْغُرُّ الْمُحَجَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، مِنْ إِسْبَاحِ الْوُضُوءِ ، فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ فَلْيُطِلْ غُرَّتَهُ وَتَحْجِيلَهُ)) (٤) ، ويقوله - ﷺ - : ((إِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ أَثَرِ الْوُضُوءِ ، فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُطِيلَ غُرَّتَهُ فَلْيَفْعَلْ)) (٥) .

فهذا التَأْتُرُ الملحوظُ من جرير بألفاظ القرآن الكريم ، وبألفاظ الحديث الشريف في نقائضه يدلُّ دلالةً واضحةً على سُلوِكِ إسلاميٍّ دَرَجَ عَلَيْهِ الرَّجُلُ في شعره كما هو الحال عند الكثير من شعراء الإسلام مِمَّا جَعَلَنِي أُصْنَفُ ذلك كقيمةٍ سُلوِكِيَّةٍ إسلاميَّةٍ عند جرير ، وهي ليست حُكْرًا عليه فَحَسْبُ بل إِنَّهَا ظاهرةٌ سُلوِكِيَّةٌ - كما سبق وَذَكَرْتُ - عند المسلمين بجميع فئاتهم .

* * *

(١) انظر صحيح مسلم ، كتاب اللعان ، ص ٦١٨ ، ٦١٩ .

(٢) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٦٩ .

(٣) سوابقنا : السَّوابِقُ من الخيل الشريفة .

غُرًّا : العُرَّةُ بياضٌ في جبهة الفرس .

مُحَجَّلَةٌ : التَّحْجِيلُ بياضٌ في القوائم .

(٤) صحيح مسلم ، كتاب الطَّهارة ، ص ١٢٢ .

(٥) المصدر السَّابِقُ ، كتاب الطَّهارة ، نفس الصفحة .

ثَامِنًا : الْعَيْرَةُ عَلَى الْمَحَارِمِ :

سلوك إسلامي حميد تربي المسلمون عليه ، بل وأصبح جزءاً من حياتهم فلا يهناً مسلم إذا انتهك عرضه ولا تقر له عين إذا مس شرفه واعتدي على أمه أو ابنته أو أخته أو زوجته ، أو على أي مسلمة من المسلمات ، بل يقدم روحه ودمه ويجود بحياته في سبيل حفظ الأعراس والمحرمات . قال جرير ^(١) :

كَذَبَ الْأَخِيْطِلُ مَا لِنِسْوَةِ تَغْلِبِ

حَامِي الذَّمَارِ ، وَمَا يَغَارُ حَلِيلُ ^(٢) .

إنه يهجو الأخطل بالكذب فنساء تغلب لا حامي لهن ، ولا أحد يصون أعراضهن ، ولا أزواج يغارون عليهن . وهو بذلك يُقرُّ سلوكاً إسلامياً عظيماً وهو حماية الأعراس ، والعيرة على المحارم ، فالمرأة في الإسلام ذرةٌ مضمونةٌ لها قدرها واحترامها وإجلالها فهي طاهرة عفيفة تصون نفسها وحياءها عن كل ما يخدش ، وعن كل ما يعيب ، وهي ليست وحدها في القيام بذلك بل يساعدها ويساندها الأب إذا كانت بنتاً ، والزوج إذا كانت زوجةً كما سبق وذكرنا قول سعد بن عبادة : ((لو رأيت رجلاً مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح عنه)) وما كان من رد من النبي - ﷺ - لَمَّا بَلَغَهُ ذَلِكَ فَقَالَ : ((أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ ؟ فَوَاللَّهِ ، لَأَنَا أَعْيَرُ مِنْهُ ، وَاللَّهُ أَعْيَرُ مِنِّي ، ...)) ^(٣) ، وَكَأَنَّ جَرِيرًا حِينَ أَطْلَقَ الْبَيْتَ السَّابِقَ فِي وَجْهِ الْأَخِيْطِلِ يَتَسَاءَلُ : هَلْ فِي شَرِيعَةِ التَّغْلِبِيِّينَ مَا يَصُونُ الْأَعْرَاضَ ؟ وَهَلْ عِنْدَهُمْ مَا يَحْمِي الْمَرْأَةَ ؟ وَهَلْ فِي رِجَالِهِمْ مَنْ يَغَارُ عَلَى زَوْجَتِهِ ؟ !! .

^(١) نقاض جرير والأخطل ، ص ١٨٦ .

^(٢) الذمار : كل ما يجب حمايته وصونه كالأهل والعرض .

الحليل : الزوج .

^(٣) صحيح مسلم ، كتاب اللعان ، ص ٦١٨ ، ٦١٩ .

تاسعاً : إِقَامَةُ الْعَدْلِ ، وَاسْتِنكَارُ الضَّيْمِ :

ما كان المسلم ظالماً ولا ينبغي له ذلك ، وما كان أبداً ليعيش ذليلاً قابعاً تحت وطأة ضيم أو منقصة . ومن أجل ذلك عاب جرير على التغلبيين ظلهم واستنكر عليهم دعوتهم ومسكنتهم في الوقت الذي يضمامون فيه أشد الضيم فقال ^(١) :

وَتَغْلِبُ لَا وُلَاةَ قَضَاءٍ عَدْلٍ

وَلَا مُسْتَنْكَرُونَ لِأَن يُضَامُوا .

فهو يهجو تغلب ويَعِيْرُهُمْ بِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْهُمْ أَهْلُ قَضَاءٍ وَعَدْلٍ ، وَهَمَّ ذَلِيلُونَ وَمَعَ ذَلِكَ لَا تَجِدُ فِيهِمْ مَنْ يَسْتَنْكَرُ أَوْ يَقِفُ فِي وَجْهِ مَنْ يَظْلِمُهُمْ ، وَمِنْ خِلَالِ تِلْكَ الصُّورَةِ الْقَاتِمَةِ الَّتِي يُصَوِّرُ بِهَا التَّغْلِبِيُّونَ ، أَرَادَ جَرِيرٌ أَنْ يَكْشِفَ السُّتَارَ عَنِ الصُّورَةِ الْمَشْرُوقَةِ وَالسُّلُوكِ الْعَظِيمِ فِي الْإِسْلَامِ فِي قَضِيَّةِ إِقَامَةِ الْعَدْلِ فَهُوَ يَعْلَمُ حَثَّ الْإِسْلَامِ عَلَى الْعَدْلِ ، وَنَبْذَهُ لِلظُّلْمِ ، وَأَخَذَهُ عَلَى أَيْدِي الظَّالِمِينَ مِنْ خِلَالِ مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عَلَى نَحْوِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ... ﴾ [النحل : ٩٠] ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ... فَإِنِ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات : ٩] ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ... وَلِيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كِتَابًا بِالْعَدْلِ ... ﴾ [البقرة : ٢٨٢] ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهِدُوا بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ [المائدة : ١٠٦] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الْكَرِيمَاتِ الَّتِي تَوْجِبُ إِقَامَةَ الْعَدْلِ فِي كُلِّ مَنْحَى مِنْ مَنَاحِي الْحَيَاةِ ، وَهَذَا مَا وَعَاهُ جَرِيرٌ وَقَطِنَ لَهُ قَبْلَ أَنْ يُؤَكِّدَ عَلَى هَذِهِ الْقِيَمَةِ السُّلُوكِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي الْبَيْتِ السَّابِقِ مِنْ خِلَالِ ذِكْرِ ضِدِّهَا فَبِضِدِّهِ يَتَمَيَّزُ الضِّدُّ . وَالْمُسْلِمُ - كَذَلِكَ - يَسْتَنْكَرُ الضَّيْمَ فَهُوَ عَزِيزٌ دَائِمًا وَأَبِيُّ النَّفْسِ يَسْتَمُدُّ كُلَّ ذَلِكَ مِنْ عِزَّةِ الْإِسْلَامِ وَعَدْلِهِ ، وَتَعَالِيمِهِ السَّمْحَةِ وَتَوْجِيهَاتِهِ الْحَكِيمَةِ الَّتِي تَزِيدُ الْمُسْلِمَ إِبَاءً وَشَمَمًا فَلَا يُطَاطِئُ رَأْسَهُ إِلَّا اللَّهُ .

(١) ديوان جرير ، ص ٣٧٨ .

المبحث الرابع :

الصفات السلوكية عند

نصارى تغلب على ضوء نقض

جرير شعر الأخطل .

تمهيد :

حينما ننظر إلى الصفات السلوكية عند نصارى تغلب في ضوء نقض جرير شعر الأخطل ، نستطيع أن نكرر قولنا السابق بين يدي القيم الإيمانية في النصرانية على ضوء نقض جرير شعر الأخطل . فلا نزال بصدد النظارتين اللتين يرتديهما الشاعر جرير . الأولى هي نظارة الإسلام ، وذلك حينما يتحدث مثلا عن فرض الإسلام الجزية ، وتبيين حكمة الإسلام من كيفية إعطائها، والنظارة الأخرى هي التي ضخم بها جرير بعض السلوكيات التي ارتبط بها في ظن جرير بعض السلبيات مثل عدم استنكار الضيم والخوف والجبن وما إلى ذلك . ولا ننسى أننا أمام شاعر من أكبر شعراء النقائص ، وبصدد فن النقائص الذي يختلط فيه الحق بالباطل ، والحابل بالنابل .

وينبغي أن أذكر من باب الإنصاف أن هذه الصفات التي ذكرها جرير إنما تعبر عن رأيه ، وقد قالها في عنفوان غضبه وحرصه على أن يؤلم خصمه الأخطل أشد الإيلام ، ولا يمكننا أن نتخذ منها قاعدة ، أو أن نصدر من خلالها حكماً على أولئك القوم من نصارى تغلب بأنهم جناء ، أو حمقى أو غير ذلك من الصفات التي وصفهم بها . فالشجاعة موجودة في كل زمان ومكان ، وفي كل قوم ومجتمع ، وكذلك الحماسة موجودة في الأفراد والجماعات بنسب مختلفة .

وأنا أجزم أنه لا ينبغي تصيّد العثرات لمن عثر ، أو تتبع الزلات لمن زلّ ، أو السعي المفرط وراء السقطات فالكمال لا يمكن أن يكون إلا لله وحده ، وأمّا البشر جميعاً - لا أستثني أهل دين، أو لون، أو جنس - فإنّ النقص مركبهم ، والزّلل مطيتهم .

الصفة الأولى : الذلة ودفع الجزية :

الجزية : " وهي الوظيفة المأخوذة من الكافر لإقامته بدار الإسلام في كل عام ، وهي فعلة من جزى يجزي إذا قضى " (١).

فلا مجال أمام الذمي ليتخلص من هذا الذل إلا بدخوله في الإسلام ، وما عدا ذلك فلا عزة له . ومن هنا كان الإسلام حكيماً ورحيماً في أن ينتشل الذليلين ويجعل منهم أعزاء شرفاء لهم ما للمسلمين من حقوق ، وعليهم ما عليهم من واجبات ، ولا تمييز بين أحد عند ذلك إلا بالتقوى .

وهنا كان جرير مقتنصاً لهذه الصفة عند أولئك القوم مشنعاً لهم ما هم فيه من ذل فقال (٢) :

لَنَا كُلُّ عَامٍ جِزِيَةٌ تَقِي بِهَا

عَلَيْكَ ، وَمَا تَلَقَى مِنَ الذُّلِّ أَبْرَحُ .

إنَّه يَهْجُو الْأَخْطَلُ وَقَوْمَهُ مِنْ نَصَارَى تَغْلِبَ بِدَفْعِ الْجِزِيَةِ فِي كُلِّ عَامٍ ، ويقول : إنَّ ما تَلَقَاهُ - أَيُّهَا الْأَخْطَلُ - عِنْدَ دَفْعِكَ لَهَا مِنَ الذُّلِّ وَالصَّغَارِ أَقْوَى وَأَعْنَفُ وَأَلَمٌ .

(١) المغني والشرح الكبير على متن المقنع في فقه الإمام أحمد بن حنبل ، للإمامين موفق الدين وشمس الدين ابني قدامة ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٤ هـ ، ج ١٠ ، ص ٥٥٧ .

(٢) ديوان جرير ، ص ٧٩ .

ويقول جرير^(١) :

وَيَسْمَعِي التَّغْلِبِي إِذَا اجْتَبَيْنَا

بِجَزِيَّتِهِ وَيَنْتَظِرُ الْهَالِلَا .

يستمر جرير في هجاء نصارى تغلب بدفعهم الجزية للمسلمين عندما يحين وقت خراجها فقد أصبح التَّغْلِبِيُّ ينتظر ويترقب الهلال بعد الهلال حتى يقوم بدفع الجزية .

وهذه الصفة السلوكية أدركها جرير من خلال القرآن الكريم في مثل قوله تعالى :

﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ

وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا

الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة : ٢٩] ، وأدركها - كذلك - من

خلال معاصرته لبعض النصارى في الدولة الإسلامية ، وما يراه من دفعهم للجزية في كل عام ، الأمر الذي معه أصبحت الفرصة سانحة في أن يوظف هذه القيمة ضد خصمه ، وأن تصبح رافداً ضمن مجموعة الروافد التي اتكأ عليها في مشواره الطويل مع الأخطل .

ولا بد أن أعيد هنا حكمة الإسلام في أن يدفع أهل الذمة الجزية عن يدٍ وهم صاغرون وذلك من أجل أن يتخلص الذمي من هذا الصغار وتلك الذلة بدخوله في دين الإسلام .

ويقول جرير^(٢) :

أدَّ الْجِزْيَ وَدَعَّ الْفَخَارَ بِتَغْلِبِ

وَإِخْسَاءً بِمَنْزِلَةِ الذَّلِيلِ الصَّاغِرِ .

إنه يستمر في تعييره الأخطل قائلاً : ما ينبغي لك أن تفتخر بقبيلتك فليس لها من أجمادٍ تستحق الفخر ، ولذلك فليس لك إلا أن تبقى ذليلاً صاغراً خاسئاً تؤدِّي الجزية المفروضة عليك .

(١) نقائص جرير والأخطل ، ص ١٩٥ .

(٢) ديوان جرير ، ص ٢١٧ .

ونلاحظ استخدام جرير للفظه (الصَّاعِر) التي تدلُّ على تأثره بالآية السابقة وبالتحديد بقوله تعالى : ﴿ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة : ٢٩] ، و (صاغرون) كما قال ابن كثير - رحمه الله - : ((أي ذليلون حقيرون مهانون فلهذا لا يجوز إعزاز أهل الذمَّة ولا رفعهم على المسلمين بل هم أذلاءً صغيرة أشقياء ...))^(١) .

وإمعاناً في هذه المذلة التي يراها جرير في نصارى تغلب فإنَّه ركَّز جهده عليها كثيراً حيث لحظ مفعولها القوي في دحر خصمه ، وردّه بغيظه لم ينل حيراً، ولذلك قال في بيتٍ آخر^(٢) :

تُكْفَرُ بِالْيَدَيْنِ إِذَا التَّقِينَا

وَأَدِّإِلَى خَلِيفَتِنَا جِزَاكَ .

فمن إمعان جرير في تحقير الأخطل وإصراره على ذلك قوله : إِنَّ عَلَيْكَ - أَيُّهَا الأخطل - أَنْ تَكْفُرَ عَنْ كُلِّ زَلَّةٍ اقْتَرَفْتَهَا بِحَقِّي بِتَقْبِيلِ يَدِي ، وقبل ذلك أن تؤدي الجزية إلى الخليفة . فبسبب هذه الجزية التي يدفعها التغلبيون حفظ المسلمون لهم مكاناً وقدرًا وهو ما جعل جرير يقول^(٣) :

لَوْلَا الْجِزَا قَسِمَ السَّوَادُ وَتَغْلِبُ

فِي الْمُسْلِمِينَ ، فَكُنْتُمْ أَنْفَالاً^(٤) .

(١) تفسير القرآن العظيم ، ٢ / ٣٦١ .

(٢) ديوان جرير ، ص ٢٩٩ .

(٣) نقائص جرير والأخطل ، ص ٩٧ .

(٤) السَّوَادُ : هو سواد العراق ، وهي الأماكن الخصبه التي يراها القادم من الجزيرة العربية خضراء بسبب كثافة الأشجار والنباتات الأمر الذي يجعل تلك الخضرة سواداً في نظر الرائي لها من بعيد بسبب الكثافة والكثرة .
الأنفال : مفردتها نَفْلٌ وهي غنائم الحرب .

فالمعنى الذي يرمى إليه جريرٌ أنّه لولا أنّ التّغلبيّين يدفعون الجزية للمسلمين لكانوا في المعاملة كغنائم الحرب .

ويواصل جريرٌ فخّره على نصارى تغلب بأنّ المُضريّين هم الذين يحكمون عليهم بدفع الجزية ، ولكنّهم - أي المضريّين - في الوقت نفسه هُدى ونورٌ لإخوانهم المسلمين ، وفي ذلك يقول (١) :

الضَّارِبُونَ عَلَى النَّصَارَى جِزِيَةً

وَهُدَى لِمَنْ تَبَعَ الْكِتَابَ وَتُورًا (٢) .

*** **

وأما الأسباب التي علّلَ بها جريرٌ دفع نصارى تغلب الجزية ، ووجّهها للأخطل في سياق هجائه ، وجعل منها أسباباً مقنعة لهذا الفعلِ فإنّه أوجزها في الآيات التالية :
قال جرير (٣) :

فَعَلَيْكَ جِزِيَةٌ مَعَشِرٍ لَمْ يَشْهَدُوا

وَاللَّهِ إِنَّ مُحَمَّدًا لَرَسُولٌ (٤) .

فهذه الجزية يفرضها الخليفة على نصارى تغلب لأنّهم لم يشهدوا ولم يعترفوا بأنّ محمداً رسول الله .

وقال (٥) :

خَالَفْتُمْ سُبُلَ النَّبُوءَةِ فَاخْضَعُوا

بِجِزَا الْخَلِيفَةِ ، وَالذَّلِيلُ ذَلِيلٌ .

(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٢٤ .

(٢) الكتاب : القرآن الكريم .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٨٤ .

(٤) جاء الشطر الثاني من هذا البيت مع اختلاف طفيف في ديوان جرير هكذا :
لِلَّهِ إِنَّ مُحَمَّدًا لَرَسُولٌ . انظر ديوان جرير ، ص ٣٤٧ .

(٥) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٨٤ .

إن ابتعاد نصارى تغلب عن طريق الإسلام ، وعن هدي الإسلام أوجب عليهم أن يدفعوا الجزية للخليفة فما ينبغي للذليل إلا أن يبقى ذليلاً .
وقال ^(١) :

عَجِبْتُ لِفَخْرِ التَّغْلِبِيِّ وَتَغْلِبِ

تُوْدِي جَزَى النَّيْرُوزِ ، خُضْعًا رِقَابُهَا .

إن الخضوع لغير الله أوجب على نصارى تغلب دفع الجزية ، وهذا سبب مهم علل به جرير دفعهم لها .

فمن الدلة عدم شهادتهم بأن محمداً رسول الله ، ومن الدلة أن يخالفوا طريق الإسلام ، ومن الدلة خضوعهم لغير الله رب العالمين .
وبعد ذلك يرى جرير أسباباً عديدة لتلك الدلة التي يقبع تحت وطأتها قوم الأخطل من نصارى تغلب ؛ وهي :

أ - أن نصارى تغلب لا أجد لهم ؛ وفي ذلك يقول ^(٢) :

قَيْسٌ وَخِنْذِفٌ أَهْلُ الْمَجْدِ قَبْلَكُمْ

لَسْتُمْ إِلَيْهِمْ وَلَا أَنْتُمْ لَهُمْ خَطَرٌ .

فالتغلبيون - كما حكم عليهم جرير - لا يستطيعون منافسة خنذف وقيس في الرفعة والسؤدد ، إذ لا قدرة لهم على ذلك .
ويقول كذلك ^(٣) :

وَمَا لِتَغْلِبَ إِنْ عَدَّتْ مَسَاعِيَهَا

نَجْمٌ يُضِيءُ وَلَا شَمْسٌ وَلَا قَمَرٌ .

إنه بيت يكمل معنى البيت السابق فالتغلبيون غارت نجوم أمجادهم وكسفت شمسها وخسفت قمرها .

^(١) ديوان جرير ، ص ٤٥ .

^(٢) المصدر السابق ، ص ١٨٣ .

^(٣) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

ب - أنّهم في منزلة العبيد فهم في مؤخرة القوم دائماً :

يقول جرير^(١) :

والتَّغْلِبِيُّ إِذَا تَمَّتْ مُرُوءَتُهُ

عَبْدٌ يَسُوقُ رِكَابَ الْقَوْمِ مُؤْتَجِرٌ .

فَمِنْ طَبَعِ الْعَبِيدِ أَنْ يَسُوقُوا الرِّكَابَ وَالْمَطَايَا ، وَأَنَّهُمْ أُجْرَاءُ .

ويقول^(٢) :

تَلْقَى إِذَا اجْتَمَعَ الْكِرَامُ بِمَوْطِنِ

أَشْرَافٍ تَغْلِبَ سَائِلًا وَأَجِيرًا .

إِنَّ الْأَخْيَطِلَ لَوْ يُفَاضِلُ خِنْدِفًا

لَقِيَ الْهَوَانَ هُنَاكَ وَالتَّصْغِيرَ^(٣) .

يُحَقِّرُ جَرِيرٌ التَّغْلِبِيِّينَ بِأَنَّ أَشْرَافَهُمْ وَأَسْيَادَهُمْ يَقُومُونَ عَلَى خِدْمَةِ

الكرام مقابل الأجرة ، ثمَّ يُحَقِّرُ الْأَخْيَطِلَ خَاصَّةً وَذَلِكَ بِلَفْظِ التَّصْغِيرِ (الْأَخْيَطِلُ)

فَهُوَ صَاغِرٌ وَذَلِيلٌ دَائِمًا .

(١) ديوان جرير ، ص ١٨٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٠٤ .

(٣) خِنْدِفٌ : اسم لقبيلة .

ويقول جرير^(١) :

تَفِدُ الْوُفُودُ وَتَغْلِبُ مَنْفِيَّةٌ

خَلْفَ الزَّوَامِلِ ، وَالْعَوَاتِقُ مَيْلٌ^(٢) .

يُدْعَى إِذَا نَزَلُوا لِيَأْخُذَ زَادَهُ

وَيُقَالُ : إِنَّكَ لِلضَّيَاعِ مَخِيلٌ^(٣) .

حَظُّ الْأَخْيَطِ مِنْ تَلْمَسِهِ الرَّشَا

فِي الرَّأْسِ لِأَمْعَةِ الْفَرَاشِ دَحُولٌ^(٤) .

إنها ضربات قوية يوجهها جرير للأخطل وقومه التغلبيين فهم أجراء يبقون وراء المطايا ، وأما الكرام ففي المقدمة دائماً ، والتغلبيون يصفهم بالعبيد ، والأخطل يدعى ذليلاً ليأخذ لقمته فهو مظنة الشؤم ، ونظراً لكثرة الأحمال التي يحملها للقوم فإن الحبل الذي تُشدُّ به تلك الأحمال يترك أثراً في رأسه تماماً كالأثر الذي يتركه الحبل الذي يُربط فيه الدلو ؛ في حافة البئر .

(١) ديوان جرير ، ص ٣٤٩ .

(٢) الزوامل : المطايا التي تحمل الأحمال .

العواتق : المتون مفردها متن .

مَيْلٌ : أي مائلات .

(٣) مَخِيلٌ : المخيل : طائر الشؤم ، والذي يُتشاءم منه .

(٤) الرَّشَا : الحبل .

الْفَرَاشِ : فراش الدماغ .

الدَّحُولُ : البئر .

ج - أن التغلبيين لا أحساب لهم ولا أنساب :

يقول جرير^(١) :

وَكَيْفَ يَصُولُ أَرْضَعُ تَغْلِبِيٍّ

وَمَا لِلْعَبْدِ مِنْ حَسَبٍ قَدِيمٍ^(٢) .

وقال^(٣) :

وَلَوْ أَنَّ تَغْلِبَ جَمَعَتْ أَحْسَابَهَا

يَوْمَ التَّفَاضُلِ لَمْ تَزِنْ مِثْقَالَ^(٤) .

د - أن التغلبيين ليست لهم خؤولة أصيلة :

يقول جرير^(٥) :

لَا تَطْلُبَنَّ خُؤُولَةً فِي تَغْلِبِ

فَالزَّنَجُ أَكْرَمُ مِنْهُمْ أَخْوَالًا^(٦) .

فَهُمْ - كما يقول جرير - أقل من العبيد أصالةً إذ لا أصل لخؤولتهم .

هـ - أن الله ضرب عليهم الذلة والعار بدايةً :

قال جرير^(٧) :

لَا تَفْخَرَنَّ فَإِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ كُفْمَ

يَا خُزَرَ تَغْلِبَ دَارَ الذُّلِّ وَالْعَارِ .

(١) ديوان جرير ، ص ٣٦٣ .

(٢) الأَرْضَعُ : الخفيف العجز .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٣٢ .

(٤) المثقال : وزنٌ مقداره درهم وثلاثة أسباع درهم . انظر المعجم الوسيط ، مادة (ثَقَل) ،

٩٨ / ١ .

(٥) ديوان جرير ، ص ٣٣٢ .

(٦) الزنج : العبيد .

(٧) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٤٧ .

فهو يرى أن التغلبيين أذلهم الله ، وكتب العار عليهم ، وهذا سببٌ يُضاف إلى أسباب ذلتهم بل ربّما يكون أهمها لأنّ الله إذا أهانَ قوماً فما لهم من مكْرِمٍ كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ [الحج : ١٨] .

و - الحُمُقُ الذي يُمَيِّزهم :

قال جرير^(١) :

فَإِنْ تُغْلِبُ فَإِنَّكَ تَغْلِبِي

نَزَلَتْ بِغَايَةِ الْحَمِيقِ اللَّئِيمِ .

يرى أن التغلبيين - ويقصد الأخطل - إذا غلبَ فهو أمرٌ معهود

لا غرابة فيه لأنّه نشأ على الحمافة واللؤم .

(١) ديوان جرير ، ص ٣٦٣ .

الصفة الثانية: الختم على رقاب نصارى تغلب بطابع من الرصاص:

سلوك عرفه نصارى تغلب واعتادوا عليه حين يطبع على رقبة أحدهم ختما من الرصاص دليلاً وعلامة على أنهم نصارى ، وهذا الأمر كان محل ملاحظة جرير ومتابعته حين جعل منه سببة يعنف من خلالها الأخطل فقال (١):

أَتَحْسِبُ فَلْسَ أُمَّكَ كَانَ مَجْدًا

وَجَذَّكُمْ عَنِ النَّقْدِ الْجُفَالَا (٢).

والفلس: الخاتم من الرصاص يُخْتَمُ به عُنُقُهَا (٣).

إن جريراً يُعَيِّرُ الأخطل ويتهكم به قائلاً: أظنُّ أن الختم على عنق أمك بطابع من الرصاص هو مجدٌ لكم؟ وأن مجدكم أن تقصوا وتجزوا شعرَ وصوف صغار الماعز؟ فهو هجاءٌ لاذعٌ من جريرٍ يوجهه للأخطل ويُعيِّره بخصلتين ذميتين أولاهما الطبع على رقابهم بطابع من الرصاص ، وثانيتها: الفقر المدقع الذي لا يملك معه التغلبيون سوى جز شعر صغار الماعز .

وقال جرير (٤):

جَزَعْتَ ابْنَ ذَاتِ الْفَلْسِ لَمَّا تَدَارَكَتْ

مِنَ الْحَرْبِ أَنْيَابٌ عَلَيْكَ وَكَلْكَ (٥).

يهجو جريرُ الأخطل قائلاً: إنك قد خفت يا بن المرأة التي ختم على عنقها بالرصاص ، لَمَّا تَوَالَتْ وَتَتَابَعَتْ عَلَيْكَ الْحَرْبُ الْقَوِيَّةَ .

(١) نقائص جرير والأخطل ، ص ١٩٦ .

(٢) النَّقْدُ: صغار الغنم وهي من المعزى خاصة قصار الأذان قليلة الألبان كَمِشُّ الضُّرُوعِ .

والجفَال: الشعرُ والصوف . انظر المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٣) انظر المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٤) المصدر السابق ، ص ٦٦ .

(٥) الكلكل: الصدر .

الصفة الثالثة : عدم إقامة العدل ، وعدم استنكار الضيم :

إن الحياة لا يمكن أن تكون سعيدة ما لم يحفل البشر فيها بإقامة العدالة ، ونبذ الظلم الذي يمقته الإسلام ، فالعدل أساس الحياة وأساس العيش وعنصر الألفة والمحبة بين البشر وحين يُقضى الظلم ويشيع العدل تسير الحياة سيرها الصحيح وفي حالة افتقاد العدل يجب على أصحاب الطباع السليمة أن يقفوا موقفا يبعد بهم عن الاستكانة والقبوع تحت استبداد الضيم والقهر ، فالضيم والرضا بالذل يستويان في ميزان الشرفاء مع الموت ، من أجل ذلك عاب جرير على أولئك القوم ظلمهم وعدم استنكارهم لأن يضاموا فقال (١) :

وَتَغْلِبُ لَا وُلَاةَ قَضَاءِ عَدْلٍ

وَلَا مُسْتَنَكِرُونَ لِأَنْ يُضَامُوا .

إنهما صفتان سلوكيتان عند نصارى تغلب - كما ذكر ذلك جرير - يقابلهما - كما ذكرت في المبحث الثالث - قيمتان سلوكيتان إسلاميتان هما إقامة العدل ، واستنكار الضيم .

وكنت قد ذكرت في المبحث الثالث قيمة سلوكية إسلامية ذكرها جرير ، وهي من أهم القيم السلوكية التي يتميز بها المسلمون ، والتي لا يمكن أن ينزعهم فيها أحد ، ألا وهي الكرم وإقراء الضيف ، وهي قيمة نفاها جرير عن التغلبيين في قوله (٢) :

وَتَغْلِبُ لَا يُصَاهِرُهُمْ كَرِيمٌ

وَلَا أَخْوَالُ مَنْ وَلَدُوا كِرَامٌ .

إِذَا اجْتَمَعُوا عَلَى سَكْرٍ بَفَلْسٍ

فَنَصُّوْ عِنْدَ ذَلِكَ وَالْطَّامُ (٣) .

(١) ديوان جرير ، ص ٣٧٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٧٩ .

(٣) النَّصُّ : أَنْ يَأْخُذَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِنَاصِيَةِ صَاحِبِهِ .

إنَّه يهجوهم بالبخل حيث لا يتقدّم إليهم كريمٌ ليتزوج من بناتهم لأنَّ الكريم لا يُصاهر البخلاء ، وأبناء التَّغْلِيَّين بخلاء لأنَّ أخوالهم بخلاء .
ومن إمعان جرير في وصف أولئك القوم بالبخل أنَّهم إذا اجتمعوا على شرب خمرٍ قيمتهُ فلس واحد حصل التَّزاع بينهم ، واحتدمت المعركة وأخذ كلُّ واحدٍ منهم يشدُّ ناصية صاحبه ، وحصل اللطم بينهم ، فقد اجتمع فيهم ضياع العقل بسبب السكر ، والبخل الشديد .
وقد سبق وأن ذكرتُ في المبحث الثالث بيئاً وصف فيه جرير التَّغْلِيَّين بأقبح صفات البخل وذلك أنَّهم يتخفَّون عن الضُّيوف بين الأشجار الكثيفة حتَّى لا يرونهم ، فقال في ذلك (١) :

الْأَكْلُونَ خَبِيثَ الزَّادِ وَحَدَهُمْ

وَالنَّازِلُونَ إِذَا وَارَاهُمُ الْخَمَرُ .

عند ذلك يستحق جرير أن يفخر بقومه الكرماء ، وأن يعلن هذا الكرم في وجه الأخطل وقومه فيقول (٢) :

مَا أَوْقَدَ النَّاسُ مِنْ نِيرَانِ مَكْرُمَةٍ

إِلَّا اصْطَلَيْنَا وَكُنَّا مُوقِدِي النَّارِ .

*** **

(١) ديوان جرير ، ص ١٨٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٢٠ .

الصفة الرابعة : الخوف والجبن :

صفتان مقيتان يستنكرهما الشرفاء في كل مجتمع وفي كل دين ولا يمكن أن تسمى الأعراس ولا أن تصان الحدود أو تسترد الديار المغتصبة والحقوق المنهوبة إذا تمكنتا في مجتمع من المجتمعات .

قال جرير مستنكرا على نصارى تغلب ما هم فيه من خوف وجبن. ^(١) :

وَلَا عَرَفُوا مَوَاقِفَ يَوْمِ جَمْعٍ ،

وَلَا حَوْضَ السَّقَايَةِ وَالْأَرَكَاءِ .

تُكَفِّرُ بِالْيَدَيْنِ ، إِذَا التَّقِينَا ،

وَتُلْقِي مِنْ مَخَافَتِنَا عَصَاكَ .

يهجو جرير القوم بجبنهم وخورهم المعهود مؤكداً على ذلك بأنهم لم يعرفوا البطولات ، ولم تُسجل لهم الانتصارات ، ولم يظفروا بأماكن المياه أو الأماكن الخصبة لأنهم أحقر وأضعف من أن يحصلوا على شيء من ذلك كما زعم . وهذا الهجاء جمع فيه جرير التغلبيين جميعاً ، ثم أفرد بعد ذلك الأخطل بهجاء خاص حيث ذكر أنه من شدة خوفه يعلن الاستسلام فيلقي سلاحه ويهبط مسرعاً إلى أن يُقبل يدي جرير طالباً رضاه وصفحته عن كل ما اقترفه بحقّه . ويقول جرير ^(٢) :

أَنْسَيْتَ يَوْمَكَ بِالْجَزِيرَةِ بَعْدَ مَا

كَانَتْ عَوَاقِبُهُ عَلَيْكَ وَبِالْأَلَا .

حَمَلَتْ عَلَيْكَ حُمَاةَ قَيْسٍ خَيْلَهَا

شُعْنًا عَوَابِسَ تَحْمِلُ الْأَبْطَالَ .

مَا زِلْتَ تَحْسِبُ كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَهُمْ

خَيْلاً تَشُدُّ عَلَيْكُمْ وَرَجَالاً .

^(١) ديوان جرير ، ص ٢٩٨ .

^(٢) المصدر السابق ، ص ٣٣٠ .

إنَّه هجاءٌ شديدٌ يوجهه جريرٌ لخصمه حيث يذكره بذلك اليوم الذي دارت الدوائر فيه عليه وكانت عواقبه وخيمةً ، وذلك عندما خاض القيسيُّون الأبطالُ حرباً ضدهُ بخيولهم وبفرسانهم الأشاوس . ومن هول ما رآه الأخطل وقومه في هذه المعركة فقد تسلَّل الخوف إلى قلوبهم ، ودَبَّ الرُّعبُ في مفاصلهم فأصبح يُخَيَّلُ إليهم أن كلَّ شيءٍ بعدها خيلٌ تُهاجمهم ، وفرسانٌ يغيرون عليهم .
وتجسيداُ لنفس الصُّورة التي يظهر فيها القوم في حالةٍ من الخوف والرُّعب قال جريرٌ^(١) :

وَكَأَنَّ تَغْلِبَ يَوْمَ لَأَقْوَا خَيْلَنَا

خِرْبَانُ ذِي حُسْمٍ لَقِينَا صُقُورًا^(٢) .

إنَّه يصف الحالة المزرية للتغلبيين عندما وقعت المعركة فيصف انقضاضهم عليهم بهجوم الصُّقور على الجباري التي في وادي ذي حُسْمٍ حيث تقوم الصُّقور بتمزيق تلك الطيور شرًّا ممزق. وفي نفس الموقف قال جريرٌ^(٣) :

فَلَا خَيْلٌ لَكُمْ صَبَرَتْ لِخَيْلٍ ؛

وَلَا أَغْنَتْ رِجَالُكُمْ رِجَالًا .

وَأَسْلَمْتُمْ شُعَيْثَ بَنِي مُلَيْلٍ ،

أَصَابَ السَّيْفُ عَاتِقَهُ فَمَالًا^(٤) .

لا زال جرير يهجو التغلبيين بما عهدده فيهم من الخوف والرُّعب فخيولهم ورجالهم لا تملك حولاً ولا قوَّةً أمام خيول القيسييين ورجالهم الصنناديد ، ولو كان التغلبيون شجعاناً لما تخلَّوا عن صاحبهم الذي ضربه القيسيُّون

^(١) ديوان جرير ، ص ٢٠٥ .

^(٢) خِرْبَان : جَمْعُ مفردة خِرْبٌ وهو ذَكَرُ الجباري . ذو حُسْم : اسم لواد معروف وقتند .

^(٣) المصدر السابق ، ص ٣٠٢ .

^(٤) شعيث بني مُلَيْل : رَجُلٌ من تغلب .

بالسيف في عاتقه فسقط ، ولكنهم أثبتوا - كما وصفهم بذلك جرير -
أنهم جبناء . وقال جرير^(١) :

تَرَكَ الْفَوَارِسُ مِنْ سُلَيْمٍ نَسْوَةً

عُجْلاً لَهْنًا عَلَى الرَّحُوبِ عَوِيْلٌ^(٢) .

إِذْ ظَلَّ يَحْسَبُ كُلَّ شَخْصٍ فَارِسًا

وَيَرَى نِعَامَةً ظَلَّهَ فَيَحُولُ^(٣) .

يواصل جرير هجاء التغلبيين فيقول : إن فرسان بني سليم خاضوا معركة شرسة
أسفرت عن جعل النساء التغلبيات تكالي يبكين بكاءً شديداً على أولئك القتلى ،
ونتيجة لهذا الرعب ، وبسبب شدة الأهوال أصبح التغلبي يتوهم كل ما يراه
وقد صار فارساً من سليم ، بل وأصبح يخاف من ظله ..

وهذه صورة مخزية أراد أن يرسمها جرير للتغلبيين ، وضَّح من خلالها حالة من
الخوف والجبن والهلع تُسيطر عليهم في كل معركة يدخلونها الأمر الذي ولَّد قناعة
عنده بأنهم قوم جبناء لا يريدون الدخول في أي معركة وهذا ما جعله يقول^(٤) :

قَالَ الْأَخْيَطُ إِذْ رَأَى رَايَاتِنَا :

يَا مَارَ سَرَجِسَ لَا نُرِيدُ قِتَالًا .

فالأخطل - كما يقول جرير - ما إن يرى رايات القيسيين حتى يهرب

مسرعاً مستنجداً بمارسرجس قائلاً له : إننا لا نريد القتال .

(١) ديوان جرير ، ص ٣٤٨ .

(٢) الرحوب : يوم البشر وهو اليوم الذي انتصر فيه الجحاف على تغلب .

العُجْلُ : مفردها العجول وهي الثكلى .

(٣) الشخص : ما يخايل للعين لرؤيته .

(٤) نقائض جرير والأخطل ، ص ٩٠ .

الصفة الخامسة : اللؤمُ والحماقة :

حصلتان من خصال النقض عابها جرير على نصارى تغلب وكانتا أداتين مهمتين من أدوات الهجاء الذي شنّه جرير على خصمه الأخطل فقال ^(١) :

والتغلبى لئيم حين تجهره

والتغلبى لئيم حين يختبر ^(٢) .

إنّه هجاء من نوع آخر حين يهجو جرير خصمه الأخطل بخصلة قبيحة وهي اللؤم . والتأثر جعله يهجو الأخطل بما ليس في الإسلام من خصال النقص كهذه الخصلة الذميمة والتي أصبحت طبيعة - على حد قوله - في الأخطل ، وفي التغلبين ولا يمكنهم التنصل منها أو الانفكاك عنها .

بل والأكثر من ذلك أنّ هذه الخصلة ورثها التغلبيون ، وأصبحت ملازمة لهم تماماً كما تلازمهم ثيابهم التي يتسربلون بها ، وكما تلازمهم جلودهم التي لن يعيشوا بدونها ، ومثل تلك الأخلاق التي يتخلقون بها .

^(١) ديوان جرير ، ص ١٨٣ .

^(٢) تجهره : أي تصبح معه وجهاً لوجه لا يحول بينكما حائل .

وهذا هو تماماً ما قال عنه جرير^(١) :

تَسْرَبُلُوا اللَّؤْمَ خَلْقًا مِنْ جُلُودِهِمْ

ثُمَّ ارْتَدُوا بِشِيَابِ اللَّؤْمِ وَاتَّزَرُوا .

ورأيتُ أن جريراً في بيت آخر هجا به الأخطل ، قد أضافَ خَصْلَةً ذَمِيمَةً أُخْرَى إِلَى

جانب اللؤم وهي الحماقة حين قال^(٢) :

فَإِنْ تُغْلَبَ فَإِنَّكَ تَغْلِبِي

نَزَلَتْ بِغَايَةِ الْحَمِيقِ اللَّئِيمِ .

حيث يسخرُ من الأخطل قائلاً : إِنَّكَ - أَيُّهَا الأخطل - لا يستغربُ منك

أن تُغْلَبَ لأنَّ الهزائمَ طُبِعَ لِلتَّغْلِبِيِّينَ الَّذِينَ اشْتَهَرُوا بِالْحَمَاقَةِ وَاللُّؤْمِ .

^(١) ديوان جرير ، ص ١٨٤ . وهذه الخصلة الذميمة لم يخص بها جريرُ الأخطلَ وقومه من التَّغْلِبِيِّينَ فَحَسَبَ وَإِنَّمَا رَأَيْتُهُ أَصْلَهَا وَأَكَّدَ عَلَيْهَا كصفةٍ ذميمةٍ خُلِقَتْ مع الفرزدق وهو في بطنِ أُمِّهِ ، بل

ورضعها من الثدي الذي يرضع منه اللبن من صدرها ، وفي ذلك يقول :

أَصَابَ قَرَارَ اللَّؤْمِ فِي بَطْنِ أُمِّهِ وَرَاضَعَ ثَدْيِي اللَّؤْمِ فَهُوَ رَضِيعُ

انظر المصدر السابق ، ص ٢٥٥ . وهذا الهجاء للفرزدق جاء في سياق هجاء جرير للأخطل حين قال :

أَبَا مَالِكٍ لَا بُدَّ أَنْ يَ قَارِعُ لِعَظْمِكَ ، إِنِّي لِلْعِظَامِ قَرُوعُ .
أَتَغْضَبُ لِمَا ضَيَّعَ الْقَيْنُ عِرْضَهُ وَأَنْتَ لَأُمٍّ دُونَ ذَلِكَ مُضْضِعُ ؟ .

انظر المصدر السابق ، نفس الصفحة . وقرع العظم : أي كسره .

فكانَ جريراً حين هجا الفرزدق باللؤم أراد أن يُعَرِّضَ بالأخطل وأن يَصِفَهُ باللؤم بطريقة غير

مباشرة ، فإذا كان الفرزدق قد ضيَّعَ عِرْضَهُ - كما حَكَّمَ بذلك جرير - وإذا كان الأخطل قد

ضَيَّعَ عِرْضَ أُمِّهِ كَثِيراً - على حد قول جرير - فالنتيجة تلتقي في نقطة واحدة ، والأخطل

والفرزدق يلتقيان في بؤرة واحدة وهي أن كليهما لئيمٌ .

^(٢) المصدر السابق ، ص ٣٦٣ .

البَابُ الثَّانِي

الْقِيمُ الْفَنِّيَّةُ وَالْجَمَالِيَّةُ

المَبْحَثُ الأَوَّلُ

المُعْجَمُ اللُّغَوِيُّ لِجَرِيرٍ فِي
نَقْضِهِ شِعْرَ الأَخْطَلِ

من خلال معاشتي لشعر جرير ، ومن خلال قراءتي المتأثية لكل بيت قاله وبالأخص فيما يتعلق بنقضه شعر الأخطل ، استوقفتني ألفاظه السهلة التي لا ثقل فيها ، ولا تعقيد ، ولا تكلف ، فاستنتجت أن له معجماً لغوياً شعرياً سهلاً ميسراً ، لا تحتاج ألفاظه - في الغالب - إلى كثير بحث ، ولا يحتاج القارئ أو السامع معها إلى الرجوع إلى المعجم اللغوي إلا فيما قلّ وندر .

((وكان جريراً سكّب من عاطفته شيئاً على مبناه فجاء أسلوبه لطيفاً جذاباً يتنكب فيه عن الألفاظ الثقيلة والتعابير الجافة ...))^(١)

غير أن هذه الألفاظ السهلة الميسرة في شعر جرير عامة ، وفي نقائضه خاصة ، لم تضعف من شعره ، بل رأيناه شعراً قوياً مؤثراً ، وذا عاطفة جيّاشة .

ولا نستغرب ذلك عند جرير فقد ((وهبه الله عاطفة رقيقة ، ووفّر له من الأحوال مازادها ثموراً ورقّة . فاستغلّها في كل مظاهر حياته : في الدين كان مؤمناً مخلصاً . في الحب ، كان زوجاً وفيّاً . في المديح : كان شاعراً مسلماً . وفي المهجاء : كان جراحاً مؤلماً . وفي الفخر كان متحمساً حتى التهور))^(٢)

ومن أجل كل ما تقدّم فقد حاولت أن أدرس المعجم اللغوي الشعري عند جرير ، محدّداً هذه الدراسة في نقضه شعر الأخطل ، ومختصراً في ذلك بالقدر الذي لا إخلال فيه .

وقد دارت دراستي حول التقسيمات التالية :

- أ- ألفاظ من جسم الإنسان وغيره .
- ب- ألفاظ لبعض الأماكن والمواضع .
- ج- ألفاظ الحرب .
- د- ألفاظ من الطبيعة .

(١) انظر جرير ، د. محمد حمّود ، دار الفكر اللبناني ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٩٩١ م ،

ص ٨٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٨٤ ، ٨٥ .

أ - ألفاظ من جسم الإنسان وغيره في نقض جرير شعر الأخطل :

فقد لا حظت أن جريراً قد أكثر من ذكر أعضاء الجسم الإنساني خاصة ، وربما تعرّض لبعض الألفاظ الخاصة بأجسام بعض الحيوانات .
وأنا هنا أقوم بذكر أكثرها على سبيل الإجمال أولاً ، ثم أقوم بالتعليق اليسير عليها رغبةً في عدم الإطالة . وهذه الأعضاء هي :

الأعضاء الموجودة في الرأس ؛ ومنها : المَفْرَقُ واللِّهَازِمُ والجَبِينُ والسَّمْعُ ، والعَيْنُ ، والأنفُ والمراسنُ ، والفمُ والأسنانُ واللِّحْيَانُ ، والحنْدُ والعوارضُ ، وَذَكَرَ الوجْهَ إجمالاً والسَّبَالُ .

وقد تناول جريرُ بقية أعضاء الجسم ومنها العنق حيث أطلق عليه أحياناً (الجيد) وذكر النُّحُورَ والعَوَاتِقَ وَ الْمَنَاكِبَ وَالْيَدَ ، والصَّدْرَ حيث أطلق عليه أحياناً لفظة (الكلكل) ، وذكر القلبَ مُعَبِّراً عنه أحياناً بـ (الفؤاد) ، وذكر الظَّهْرَ والصُّلْبَ والرَّجْلَ والعظم والسَّلَامَى ، والشَّلْوَ والجلد ، وغير ذلك .

وقد ساعدته ألفاظ هذه الأعضاء في أن وظّفها التّوظيف المناسب في ردّه على خصمه الأخطل فيها قوياً هجاؤه وفخره ، ومن خلالها أجاد وأبدع وتفوّق .

• المَفَارِقُ : قال جرير ^(١) :

قَالَ الْغَوَانِي مَا لِحْجَهْلِكَ بَعْدَمَا

شَابَ الْمَفَارِقُ وَاكْتَسَيْنَ قَتِيرًا . ^(٢)

(وَالْمَفْرَقُ من الرأس : حَيْثُ يُفْرَقُ الشَّعْرُ) ^(٣)

• اللِّهَازِمُ : قال جرير ^(٤) :

أَقْنِينُ يَا تَمِيمُ يَعِيبُ قَيْسًا

يَطِيرُ عَلَى لِهَازِمِهِ الشَّرَارُ؟

(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٢٢ .

(٢) القتير : الشيب .

(٣) انظر المعجم الوسيط ، ٦٨٦/٢ .

(٤) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٣٣ .

وَاللَّهَازِمُ : جمع لِهْزِمَة ، عظم ناشئ في اللَّحْي تحت الحنك وهما لِهْزِمَتَان .
فنحن نلاحظ أنّ لفظة (لِهَازِمِه) قد وَقَعَتْ موقعها المناسب ، وكان لها التأثير الملحوظ
في قوّة الهجاء .

• الْجَبِينُ :

قال جرير^(١) :

فَيَا رَبَّ جَبَّارٍ وَطِئَنَ جَبِينَهُ

صَرِيحٍ وَنَهَبٍ قَدْ حَوَيْنَ إِلَى نَهَبٍ .^(٢)

و (الْجَبِينُ : مَا فَوْق الصُّدْغِ عَنْ يَمِينِ الْجَبْهَةِ أَوْ شِمَالِهَا .)^(٣)

ومن ذلك قوله تعالى : [فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ] ، { الصّافات: ١٠٣ } .

ومعنى تَلَّهُ لِلْجَبِينِ أَي : (أَكَبَّهُ عَلَى وَجْهِهِ)^(٤) ، والجبين هو من أكرم المواضع في جسم
الإنسان ، ولهذا السبب وظّفه جرير في البيت السّابق توظيفاً مناسباً بحيث كان له الأثر
الكبير في تقوية الهجاء .

• السَّمْعُ :

قال جرير^(٥) :

حَتَّى سَمِعْتُ بِخِنْزِيرٍ ضَعَا جَزَعًا

فَقُلْتُ : إِنِّي أَرَى الْأَمْوَاتَ قَدْ نُشِرُوا .

(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ١١٢ .

(٢) جَبَّارٌ : ملك جَبَّارٌ . النَّهَبُ : ما انتهبوه من الأموال .

(٣) انظر المعجم الوسيط ، ١/١٠٦ .

(٤) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ، ٤ / ١٧ .

(٥) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٧٤ .

وقال^(١) :

إِنَّ اللُّغَوَانِي قَدْ رَمَيْنَ فُؤَادَهُ

حَتَّى تَرَكْنَ بِسَمْعِهِ تَوْقِيرًا .^(٢)

• البَصْرُ :

وقد كان استخدام جرير لهذه الحاسّة في نقائضه مع الأخطل في صُورٍ شَتَّى حيث جاءت لفظة (عين) - وهي أداة الإبصار - مُعرِّفةً بالإضافة مرّتين في بيتٍ واحدٍ ، حين قال جرير^(٣) :

لَمَّا رَمَيْتَنِي بِعَيْنِ الرَّئِمِ فَاخْتَلَبَتْ

عَقْلِي ، رَمْتَنِي بِعَيْنِ الْأَجْدَلِ الضَّارِي .^(٤)

وجاءت - كذلك - مُعرِّفةً بـ (ال) ، وفي صيغة الجمع هكذا (العيون) ، في قول جرير^(٥) :

مِلْءُ الْعُيُونِ جَمَالًا ثُمَّ يُونِقُنِي

لَحْنٌ لَذِيذٌ ، وَصَوْتُ غَيْرِ حَوَّارٍ .^(٦)

وكذا في قوله^(٧) :

وَلَكِنْ بِالْعُيُونِ وَكُلِّ خَدٍّ

تَخَالَ بِهِ لِبَهْجَتِهِ صِقَالًا .

(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٢١ .

(٢) التَّوْقِيرُ : الصَّمَمُ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٤١ .

(٤) اخْتَلَبَتْ : خَدَعَتْ . الْأَجْدَلُ : الصَّقْرُ . الضَّارِي : الذي قد ضَرِيَ بالصَّيْدِ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١٤٢ .

(٦) يُونِقُنِي : يُعْجِبُنِي . وَالْمُونِقُ الْمُعْجَبُ وَالْأَنِيقُ الْحَسَنُ .

(٧) المصدر السابق ، ص ١٩٣ .

وجاءت بلفظة (البَصْر) في قول جرير^(١) :

كَمْ دُونَهُمْ مِنْ ذُرَى بِيَدٍ مُخَفَّقَةٍ

يَكَادُ يَنْشَقُّ عَنْ مَجْهُولِهَا البَصْرُ .^(٢)

وجاءت بلفظة (نَظْرَة) مفردة في قوله^(٣) :

مَا كَانَ مِثْلَكَ يَسْتَخِفُّ بِنَظْرَةٍ

يَوْمَ المَطِيِّ لَعْرَبِيَّةٍ مَرَحُولٍ .^(٤)

• الأنف :

قال جرير^(٥) :

لَنَا أَفْضَلُ فِي الدُّنْيَا وَأَنْفُكَ رَاغِمٌ

وَنَحْنُ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَفْضَلُ .

ومعلوم أن الأنف من الأجزاء المهمة في وجه الإنسان ، وهو مناط الكرامة ، وفي شموحه عزّة العزيز ، وكرامة الكريم ، وإقدام الشجاع ، ومنه قولنا : (رَجُلٌ حَمِيٌّ الأنفِ ، أي : آنفٌ يأنفُ أن يُضام .)^(٦) ، وإذا مرَّ هذا الجزء من الوجه في التراب - لغير لغير الله - فهو دليل الذلّة ، والهزيمة ، والصّعار إلى التُّخاع ، والمسكنة إلى أقصاها ، ولهذا اختار جرير في بيته السابق الأنفَ كلفظةٍ مُختارةٍ من الجسم البشريّ ليكون لها وقعها الشّدِيد في سياق الهجاء المُقدِّع الموجه نحو الأخطل .

(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٦٩ .

(٢) ذُرَى : أعالي . بِيَدٍ : جمع بيداء وهي الصَّحراء . مُخَفَّقَةٌ : بعيدة .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٨١ .

(٤) غَرَبِيَّةٌ : رحلة بعيدة .

(٥) المصدر السابق ، ص ٦٩ .

(٦) انظر القاموس المحيط ، باب الفاء ، فصل الهزمة ، ص ٨١٠ .

ويقول جرير^(١) :

وَشَرِبْتَ بَعْدَ أَبِي ظُهَيْرٍ وَأَبْنِهِ

سَكَرَ الدَّنَانِ كَأَنَّ أَنْفَكَ ثِيْلٌ.^(٢)

وقد استخدم جرير لفظاً آخر يدلُّ على الأنف وهو (الْمَرْسِنُ) ، بصيغة منتهى الجموع (فَوَاعِلُ) ، مرَّةً واحدةً في قوله^(٣) :

قَبَحَ الْإِلَهِ وَجُوهَ تَغْلِبَ إِنَّهَا

هَائَتْ عَلَيَّ مَرَّاسِنًا وَسِبَالًا .

و (الْمَرْسِنُ : الأنفُ وموضع الرِّسَنِ من أنف الدَّابَّةِ)^(٤)

● الأَفْوَاهُ :

وقد ذكرها جرير مجموعةً جمع قَلَّةً ، مرَّةً واحدةً في قوله^(٥) :

الصَّاحِكُونَ إِلَى الْخَنْزِيرِ شَهْوَتَهُ

يَا قُبْحَتْ تِلْكَ أَفْوَاهًا إِذَا كَشَرُوا .

فقد صورَ لنا جريرُ الشُّكْلَ القبيحَ لأفواه التَّغْلِيْبِيِّينَ حين يضحكون ويكشِّرون عن أسنانهم القبيحة ، ولنا أن نتأمل كيف أُسْعَفَتْ هذه اللَّفْظَةُ جريراً ليقع هجاؤه موقِعُهُ الْمُؤَثِّرُ من نفوس القوم .

● الأَسْنَانُ :

وقد عبَّرَ عنها جرير في صُورٍ ثلاثٍ ؛

الأولى : جمع القلَّة (أفعال) المضاف إلى ضمير الغائبة في لفظة (أنياهما) ،

^(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٨٨ .

^(٢) الثيْل : غِلافٌ مَقْلَمُ الْفَيْلِ وَ الْبَعِيرِ . انظر المصدر السابق نفس الصَّفحة .

^(٣) المصدر السابق ، ص ٨٧ .

^(٤) انظر المعجم الوسيط ، ٣٤٥/١ .

^(٥) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٧٦ .

حين قال (١):

لَمْ يَجْرِ مُذْ خُلِقَتْ عَلَى أَنْيَابِهَا

مَاءُ السَّوَاكِ ، وَلَمْ تَمَسَّ طُهُورًا .

الثانية : جمع القلّة (أفعال) المسبوق بـ (ال) في لفظة (الأنياب) ، كما في قول

جرير (٢) :

مِنْ كُلِّ مُخْضَرَّةٍ الْأَنْيَابِ فَغَرَّهَا

لَحْمُ الْخَنَانِيصِ يَغْلِي فَوْقَهُ السَّكْرُ .

الثالثة : المثنى المذكّر ، كما في قوله (٣) :

أُمُّ الْأَخِطِلِ أُمٌّ غَيْرُ مُنْجَبَةٍ

أَدَّتْ لِمُخْتَلِفِ النَّائِنِ نَخَارًا .

ولاشك أن كل لفظة قد وقعت موقعها المناسب المؤثر في سياق هجاء جرير

للأخطل . فكلمة النَّاب فيها من القُبْح ما يشعر به مَنْ يقرأ البيتين السابقين ، فأما

(الأنياب) في البيت الأول فهي مخضرةٌ بسبب تراكم الأقدار فوقها ، وأما النَّائِنِ (في

البيت الثاني ، فهما مختلفان لم يقعا موقعهما المناسب ، إذ في حلقتهما قبحٌ بين .

• اللَّحْيُ :

وقد ذكره جرير مرّةً واحدةً بصيغة المثنى في قوله (٤) :

شَبَّهْتُ أَرَادَ لَحْيَيْهَا إِذَا سَكِرَتْ

خُصْيِي حِمَارٍ مُدَلٌّ عِنْدَ بَيْطَارٍ . (٥)

(١) نقائص جرير والأخطل ، ص ١٢٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٧٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٤٧ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٤٨ .

(٥) أَرَادَ اللَّحْيَيْنِ : أصول اللّحيين .

و (اللَّحْيُ : منبت اللحية من الإنسان وغيره . وهما لحيان . والعظمان اللذان فيهما الأسنان من كل ذي لحي .)^(١)

• الخدُّ :

وقد استخدم جرير هذه اللفظة بصيغة المفرد في قوله^(٢) :

وَلَكِنْ بِالْعُيُونِ وَكُلِّ خَدٍّ

تَخَالَ بِهِ لِبَهْجَتِهِ صِقَالًا .

• العوارضُ :

وقد استخدم هذه اللفظة بصيغة منتهى الجموع (فَوَاعِل) ، مرةً واحدة في

قوله^(٣) :

حُلَيْنَ بِالْمَرْجَانِ فَوْقَ ذَوَائِبِ

وَالدُّرُّ زَانَ عَوَارِضًا وَنُحُورًا .

و (العَارِضُ : جانب الوجه و - صفحة الخدّ وهما عارضان ؛ يُقَال : هو خفيف

العارضين : شَعْرِ العَارِضِينَ . و - صفحة العُنُق .)^(٤)

• الوجهُ :

وقد استخدم جرير هذه اللفظة بصيغة الجمع ، في قوله^(٥) :

يَحْمِي الَّذِينَ بَطَحَاوِي مَنِّي حَسْبِي

تِلْكَ الْوُجُوهُ الَّتِي يُسْقَى بِهَا الْمَطْرُ .

واستخدمها بصيغة الجمع المعرف بالإضافة حيث أضافها إلى تَعْلِبَ مَرَّتَيْنِ فِي بَيْتَيْنِ

منفصلين .

(١) انظر المعجم الوسيط ، ١٢٠/٢ .

(٢) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٩٣ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٢٣ .

(٤) انظر المعجم الوسيط ، ٥٩٤/٢ .

(٥) انظر نقائض جرير والأخطل ، ص ١٧٣ .

قال في الأول^(١) :

قَبَحَ الإِلهُ وَجُوهَ تَغْلِبَ إِنَّهَا

هَانَتْ عَلَيَّ مَرَّاسِنًا وَسَبَّالًا .

وقال في الآخر^(٢) :

قَبَحَ الإِلهُ وَجُوهَ تَغْلِبَ كَلَّمَا

شَبَحَ الْحَجِيحُ وَكَبَّرُوا إِهْلَالًا .

ومعلومٌ أنَّ الوجه هو أكرم ما في الإنسان ، فإذا قَبَحَ فقد أُهِنَ المرء بأقصى درجات

الإهانة .

ونرى في البيت الأول ذِكر جرير لجزء من الوجه وهو السَّبَال ، و (السَّبَلَةُ : طرف

الشَّارِبِ مِنَ الشَّعْرِ . و - مُقَدَّمُ اللِّحْيَةِ) .^(٣)

● العُنُقُ :

وقد عبَّر عنه جرير بـ (الجَيْدِ) ، في قوله^(٤) :

كَأَمِّ الطَّلَا تَعْتَادُ وَهِيَ غَرِيرَةٌ

بِأَجْمَادِ رَهْبِي عَاقِدِ الجَيْدِ كَالْقَلْبِ .^(٥)

و (جَيْدٌ : الجِيمُ واليَاءُ والدَّالُ أَصْلٌ وَاحِدٌ ، وهو العُنُقُ .

يُقَالُ : جَيْدٌ وَأَجْيَادٌ)^(٦)

(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ٨٧ .

(٢) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٣) المعجم الوسيط ، ٤١٥/١ .

(٤) نقائض جرير والأخطل ، ص ١١٠ .

(٥) أم الطَّلَا : الظبية . أجماد : جمع جمْد وهو ما غلظ من الأرض . رَهْبِي : مكان .

القَلْبُ : سوار من عاج .

(٦) انظر معجم المقاييس في اللغة ، ابن فارس ، باب الجيم والياء ، وما يتلثهما ، ص ٢٣١ .

وفي العُنُقِ (الأخدعان) ، كما ورد في قول جرير^(١) :

تَظَلُّ الخَمْرُ تَخْلِجُ أَخْدَعَيْهَا

وَتَشْكُو فِي قَوَائِمِهَا امْدِلَالًا .

والأخدعان مفرد الأخدع وهو أحد عرقيين في جانبي العُنُقِ ، فإن شكلهما يصبح مُقَرَّرًا

ويتحركان بسبب تأثير الحمرة حركة غريبة فيها القبح والاشتمزاز .

• النَّحْرُ :

وقد استخدم جرير هذه اللَّفْظَةَ بصيغة الجمع ، في قوله^(٢) :

حُلَيْنَ بِالْمَرْجَانِ فَوْقَ ذَوَائِبِ

وَالدُّرُّ زَانَ عَوَارِضًا وَنُحُورًا .

وَالنَّحْرُ : (نَحْرُ الصَّدْرِ : أعلاه ، أو مَوْضِعُ الْقِلَادَةِ ، مُذَكَّرٌ ج : نُحُورٌ .)^(٣)

• الْعَوَاتِقُ :

وقد استخدم جرير هذا اللفظ بصيغة منتهى الجموع (فَوَاعِلُ) ، في قوله^(٤)

وَقَدْ شَقَّقَتْ يَوْمَ الرَّحُوبِ سُيُوفُنَا

عَوَاتِقٌ لَمْ يَثْبُتْ عَلَيْهِنَّ مِحْمَلٌ .^(٥)

وَ (الْعَاتِقُ : ما بين المَنْكِبِ وَ الْعُنُقِ) .^(٦)

ونلاحظ الدَّورَ المهم لكلمة (عَوَاتِقُ) في هذا البيت ، وفي غرض الهجاء بالتحديد ،

وهو أن عواتق التغلبيين قد تمزقت وتَشَقَّقَتْ من قوَّةِ ضَرْبِ سيوف القيسيِّين ، فلم تعد تلك

العواتق مُسْتَقَرًّا لِمِحْمَلِ سيوفهم .

(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٩٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٢٣ .

(٣) القاموس المحيط ، باب الرء ، فصل الثون ، ص ٥٠٤ .

(٤) نقائض جرير والأخطل ، ص ٦٩ .

(٥) يوم الرَّحُوبِ : يوم البِشْرِ ، والرَّحُوبِ قريب من البِشْرِ .

(٦) انظر المعجم الوسيط ، ٥٨٢/٢ .

مِحْمَلٌ : أراد مِحْمَلِ السَّيْفِ .

وقال جرير^(١) :

وَلَوْ ظَهُورَهُمُ الْأَسِنَّةَ وَالْقَنَا

قُبْحًا لَتِلْكَ عَوَاتِقًا وَظُهُورًا .

إن جريراً قد استفاد من ذكره لأعضاء جسم الإنسان في هجائه الأخطل فنرى في هذا البيت كيف وظف لفظتي (عَوَاتِقًا) و (ظُهُورًا) ، وفي ذلك دليل على أن هؤلاء القوم قبيحون سواء في إقبالهم أو في إدبارهم .

• الْمَنَاكِبُ :

وقد وظفها جرير بصيغة منتهى الجموع (فَوَاعِل) ، مرة واحدة في قوله^(٢) :

بُزْلًا كَانَ الْكُحَيْلَ الْجَوْنَ ضَرَجَهَا

حَيْثُ الْمَنَاكِبُ يَلْقَى رَجْعَهَا الْقَصْرُ .^(٣)

و (الْمَنَكِبُ : مُجْتَمَعُ رَأْسِ الْعَضُدِ وَالْكَتِفِ)^(٤)

• الْيَدُ :

وقد استخدم جرير هذا اللفظ بصيغة المُشْتَى ، في قوله في هجاء الأخطل^(٥) :

قَصُرَتْ يَدَاكَ عَنِ الْفَعَالِ وَطَالَمَا

غَالَتْ أَبَاكَ ، عَنِ الْمَكَارِمِ ، غُولُ .^(٦)

فلما كانت اليد هي أداة العطاء ، والكرم ، والشجاعة ، والجدود فقد وظفها جرير كما ينبغي في هذا البيت حيث عبّر عن مجافاة الأخطل للمكارم ، وبعده عنها بانقباض يديه .

(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٢٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٦٨ .

(٣) البُزْلُ : جمع بازل وهو الذي قد انتهت سُنُّهُ . الكُحَيْلُ : القَطْرَانُ .

الْجَوْنُ : الْأَسْوَدُ وَيَعْنِي هُنَا الْعَرَقُ . ضَرَجَهَا : لَطَخَهَا . الْقَصْرُ : أَصْلُ الْعُنُقِ .

(٤) انظر المعجم الوسيط ، ٢/٩٥٠ .

(٥) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٨٩ .

(٦) غَالَتْ : أَهْلَكَتْ وَاحْتَجَزَتْ . غُولُ : مَنِيَّةٌ وَبَلِيَّةٌ .

وقال جرير^(١) :

وَلَوْ كُنْتَ مَوْلَى الْعِزِّ أَيَّامَ رَاهِطٍ

شَعَبْتَ وَلَكِنْ لَا يَدِي لَكَ بِالشَّعْبِ .

فالأخطل لا حيلة له بالقتال والمقاومة - كما يقول جرير - لأنه لا يملك عزاً قديماً ولا ماضياً تليداً . وكل ذلك ضمَّنه جرير كلمة (يَدِي) .

● الصَّدْر :

وفيه القلب الذي عبَّر عنه جرير - أحياناً - بالفؤاد :

فقد استخدم جرير لفظ (الصُّدُور) بالتعريف مرةً واحدةً في قوله^(٢) :

تَعْلُو الرِّجَالِ إِذَا النَّجِيُّ أَضَجَّهُمْ

أَمْرٌ تَضِيقُ بِهِ الصُّدُورُ ، جَلِيلٌ^(٣) .

إنَّ توظيف جرير لكلمة (الصُّدُور) كان توظيفاً موفقاً لأنَّ الصُّدُور إذا ضاقت بسبب

أمرٍ مِنَ الأمور آذنت بالانفجار ، وضيق الصَّدْر يقابله انشراحه ، كما في قوله تعالى :

[أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ] {الشرح: ١} .

واستخدم جرير لفظ (الصُّدُور) مُنْكَرًا في قوله^(٤) :

طَرَقَتْ نَوَاحِلَ قَدْ أَضَرَّ بِهَا السُّرَى

حَتَّى ذَهَبْنَ كَالِكِلَاءِ وَصُدُورًا .

ونلاحظ استخدام جرير للفظة (كَالِكِلَاءِ) من قبيل التَّنْوِيعِ لِأَنَّ

(الكَلْكَلُ وَالْكَلْكَالُ : الصَّدْرُ ، أو ما بين التَّرْقُوتَيْنِ ، أو بَاطِنُ الزَّوْرِ وَمِنَ الْفَرَسِ :

مَا بَيْنَ مَحْزَمِهِ إِلَى مَا مَسَّ الْأَرْضَ مِنْهُ إِذَا رَبَّضَ) .^(٥)

(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ١١٣ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٨٣ .

(٣) النَّجِيُّ : القوم ينتجون . أَضَجَّهُمْ : أزعجهم وَحَمَلَهُمْ عَلَى الضَّحَاجِ . جَلِيلٌ : عظيم .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٢١ .

(٥) القاموس المحيط ، باب اللام ، فصل الكاف ، ص ١٠٦٦ .

ومعنى البيت أن تلك المطايا قد نَحَلَتْ بسبب كثرة السَّير ليلاً ، وقطعها للصَّحاري الواسعة ، فأصابها الضَّرُّ والهزال .

واستخدم جرير لفظة (الصُّدُور) معرِّفةً بالإضافة في قوله^(١) :

قَادَ إِلَيْكُمْ صُدُورَ الْخَيْلِ مُعْلِمَةً

تَغَشَى الطَّعَانَ ، وَفِي أَعْطَافِهَا زَوْرٌ .^(٢)

وفي استخدام جرير لكلمة (صُدُور) ما يدلُّ على الإقدام في المعركة والمواجهة التي لا فرار معها .

وقد قُدِّمَتْ لفظة (الصُّدُور) على لفظة القلب أو الفؤاد لأنَّ الصِّدْرَ له معنَى أشمل وأوسع ، (صَدْرُ الْإِنْسَانِ : الجزء الممتدَّ من أسفل العنق إلى فضاء الجوف ؛ وَسُمِّيَ الْقَلْبُ صَدْرًا لِحُلُولِهِ بِهِ . وفي التنزيل : [قُلْ إِنْ تُخَفُّوْا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْذَوْهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ])^(٣) {آل عمران: ٢٩}

وأما لفظة (الفؤاد) ، فقد استخدمها جرير في قصائده التي نقض بها شعر الأخطل ثلاث مرات مُعَرِّفَةً في مرتين بـ (ال) ، ومرةً مُعَرِّفَةً بإضافتها إلى الضَّمِير ، وتفصيل ذلك كما يلي :

❖ قال جرير^(٤) :

طَرِبَ الْفُؤَادُ لِذِكْرِهِنَّ وَقَدْ مَضَتْ

بِاللَّيْلِ أَجْنِحَةَ النُّجُومِ ، فَمَالًا .^(٥)

(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٧٤ .

(٢) مُعْلِمَةٌ : الَّتِي عُلِّمَتْ بِعَلَامَةِ الْقِتَالِ . الزَّوْرُ : الْمَيْلُ .

(٣) انظر المعجم الوسيط ، ٥٠٩/١ .

(٤) نقائض جرير والأخطل ، ص ٨٤ .

(٥) أجنحة النجوم : ما جَنَحَ مِنْهَا لِلسَّقُوطِ .

❖ وقال (١) :

أَمَّا الْفُؤَادُ فَلَيْسَ يَنْسَى ذِكْرَكُمْ

مَا دَامَ يَهْتِفُ فِي الْأَرَاكِ هَدِيدًا .

والمعنى أن قلبه لن ينسى حبيته مادام الحمام يهدل فوق شجر الأراك .

❖ وقال (٢) :

إِنَّ الْغَوَانِي قَدْ رَمَيْنَ فُؤَادَهُ

حَتَّى تَرَكْنَ بِسَمْعِهِ تَوْقِيرًا .

وربما كانت لفظة الفؤاد أرقاً من لفظة القلب ، ومن ذلك ما عبّر الله به في القرآن

الكريم عن حال أم موسى مع ولدها ، فلم يقل - سبحانه - وأصبح قلب أم موسى فارغاً ، وإنما قال : [وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ] {القصص: ١٠} .

ثم يأتي استخدام جرير لكلمة (القلب) ، فقد استخدمها في معرض نقضه شعر الأخطل ثلاث مرات ، مرةً بالتعريف والجمع (القلوب) ، ومرةً بإضافتها إلى ضمير المتكلم (قلي) ، وأخرى بإضافتها إلى الضمير الكاف (قلبك) .

قال جرير (٣) :

تِلْكَ الْقُلُوبُ صَوَادِيًا تَيَّمَنَّا

وَتَرَى الشِّفَاءَ فَمَا إِلَيْهِ سَبِيلٌ . (٤)

ولأن القلب هو موطن الحب أو البغض فقد أحسن جرير في تعبيره عن شدة حبه لحبيته

بعطش القلب .

(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٧٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٢١ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٧٩ .

(٤) الصوادي : العطاش . ذَهَبَتْ عَقُولُنَا وَقُلُوبُنَا مِنْ شِدَّةِ الْحُبِّ .

وقال (١) :

إِذَا أَنَا فَارَقْتُ الْأَحْصَ وَمَاءَهُ

سُقَيْتُ مِلَاحًا لَا يَعْجُ بِهَا قَلْبِي . (2)

وقال (٣) :

أَتَذْكُرُهُمْ وَحَاجَتُكَ أَذْكَارُ ،

وَقَلْبِكَ ، فِي الظَّعَائِنِ ، مُسْتَعَارُ .

يقول : إن صويجاته امتلكن قلبه ، وَرَحَلْنَ بِهِ مَعَهُنَّ .

• الظَّهْرُ :

وقد استخدم جرير لفظة (الظَّهْر) ، مجموعة في بيتٍ واحدٍ مرتين ، حيث جاءت مضافةً في الشَّطْرَ الأول إلى ضمير الغائب ، هكذا (ظُهُورُهُمْ) ، وجاءت نَكْرَةً في آخر البيت ، هكذا (ظُهُورًا) ، قال جرير (٤) :

وَلَّوْا ظُهُورَهُمُ الْأَسِنَّةَ وَالْقَنَا

قُبْحًا لَتِلْكَ عَوَاتِقًا وَظُهُورًا .

إن جريرًا يعي تمامًا أن الأسِنَّةَ وَالْقَنَا إذا أصابت الْمُقَاتِلَ في ظهره فهو علامة الفرار والجن ، وهذا هو ما فعله القوم الجبناء ، ومن ذلك - أيضًا - قول جرير (٥) :

تَهْجُونَ قَيْسًا وَقَدْ جَدُّوا دَوَابِرَكُمْ

حَتَّى أَعَزَّ حَصَاكَ الْأَوْسُ وَالتَّمْرُ . (6)

(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ١١٠ .

(٢) الأَحْصَ : وادٍ لبني تغلب كانت فيه بعض وقائعهم مع إخوتهم بكر .

لا يَعْجُ : لا يعرفها ولا يعلقُ بها .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٣١ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٢٥ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١٧٥ .

(٦) جَدُّوا دَوَابِرَكُمْ : قطعوها واستأصلوها . الحَصَى : العدد .

الأَوْسُ وَالتَّمْرُ : قبيلتان صغيرتان من تغلب ، نسبة إلى الأوس بن تغلب ، والتَّمْرُ بن قاسط .

والمعنى أن القيسيّين تغلبوا على التّغليبيّين ، وفتكوا بهم حتّى لم يبق منهم إلاّ القليل حتى أصبح الأوسيون والنّمريّون أكثر منهم عددًا الأمر الذي أصبح معه التّغليبيّون محتاجين إلى هاتين القبيلتين الصّغيرتين ، ففي استخدام جرير للفظتي الظّهر و الدُّبر إشارة - لا تخفى - إلى جُبن قوم الأخطل وانهزامهم في المعارك التي خاضوها مع القيسيّين .

• الصُّلبُ والسُّلامى :

وقد استخدم جرير هاتين اللفظتين مُنكرتين ، في قوله مفتخرًا^(١):

وَأَنَا لِنَقْرِي حِينَ يُحْمَدُ بِالْقَرَى

وَلَمْ يَبْقَ نَفْيِي فِي سُلَامَى وَلَا صُلْبٍ .^(٢)

و (السُّلامى ، ... عَظْمٌ فِي فَرْسِنِ البعير ، وَعِظَامٌ صِعَارٌ طَوَّلُ إِصْبَعٍ أَوْ أَقْلٌ فِي اليَدِ وَالرَّجْلِ)^(٣) .

و (الصُّلبُ : فَقَارُ الظَّهْرِ . وفي التنزيل العزيز : [يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ] {الطَّارِق:٧} ، ويُقال : هو من صُلْبِ فلان : من ذُرِّيَّتِهِ . وفي التنزيل العزيز : [.. وَحَلَالٌ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْنَابِكُمْ] {النساء : ٢٣}) .^(٤)

ومعنى البيت السّابق أنّ جريراً يفتخر على الأخطل بأنّهم يكرمون الضُّيوف حتّى في أضيّق الظروف حين يشتدّ الجوع ، وتضعف الأصلاب والأصابع . وفي استخدام جرير لهاتين اللفظتين ما كشف عن مراده بوضوح ، وقوى من فخره أمام خصمه .

• العَظْمُ :

وقد استخدم جرير لفظة (العَظْمُ) ، مُفْرَدَةً مرّتين ، حيث كانت في الأولى مضافةً إلى كافِ الخِطَابِ (عَظْمُكَ) ، وفي الثانية مضافةً إلى (نا) الدالّة على الفاعلين (عَظْمُنَا) .

(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ١١٠ .

(٢) النَّفْيُ : المخ .

(٣) القاموس المحيط ، باب الميم ، فصل السّين ، ص ١١٣٤ .

(٤) المعجم الوسيط ، ٥١٩/١ .

قال جرير (١) :

وَإِذَا وَطِئْتُكَ يَا أَخِي طَلُّ وَطَاءً

لَمْ يَرْجُ عَظْمُكَ بَعْدَهُنَّ جُبُورًا .

وقال كذلك (٢) :

إِنَّا ، وَأُمَّكَ ، مَا تُرْجَى ظَلَامَتُنَا

عِنْدَ الْحِفَاطِ ، وَمَا فِي عَظْمِنَا خَوْرٌ . (٣)

فكلمة (عَظْمُكَ) في البيت الأول دَلَّتْ على الضَّعْفِ والهزيمة لأنَّ انكسار العظم

يُوحِي بذلك .

وأما كلمة (عَظْمِنَا) في البيت الثاني فقد وظَّفها جرير لتدلَّ على القوَّة والصَّلابة .

• الرَّجْلُ :

وقد استخدم جريرُ كلمة (الرَّجْلُ) مضافةً إلى هاء الغائبة (رَجْلَهَا) ، وفي بيت آخر

عَبَّرَ عن الأَرْجُلِ بـ (القوائم) .

قال جرير (٤) :

وَمَقْتُولَةٌ صَبْرًا تَرَى عِنْدَ رَجْلِهَا

بَقِيرًا ، وَأُخْرَى ذَاتُ بِنْتٍ تُوَلِّوُلُ . (٥)

وقال كذلك ، يهجو أمَّ الأخطل (٦) :

تَظَلُّ الْخَمْرُ تَخْلِجُ أَخْدَعِيهَا

وَتَشْكُو فِي قَوَائِمِهَا امْدِلَالًا . (٧)

(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٢٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٧٠ .

(٣) الحِفَاطُ : ما يجب أن يُحَافِظَ عليه ، والمراد عند القتال . الخَوْرُ : الضَّعْفُ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٦٨ .

(٥) بقيرًا : الجنين الذي يُقَرَّ بطن أمه وسقط عند رجليها .

(٦) المصدر السابق ، ص ١٩٦ .

(٧) امدلالا : استرخاءً في الرِّجْلَيْنِ .

فقد صورَ لنا جريرُ باستخدام اللَّفْظَتَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ الحالةَ المزريةَ ، والوضعَ المؤلمَ لِلرَّجُلِ في الموقِفَيْنِ السَّابِقَيْنِ .

• الجلدُ :

قال جرير (١) :

تَسْرَبُلُوا اللَّؤْمَ خَلْقًا مِنْ جُلُودِهِمْ

ثُمَّ ارْتَدَوْا بِثِيَابِ اللَّؤْمِ وَاتَّزَرَوْا .

فقد استخدم جريرُ لفظة (جُلُودِهِمْ) لتفيد شمول اللؤم لكلِّ جزءٍ من جسم التَّغْلِبِيِّ ، فلا يمكن أن ينفك اللؤم عن أولئك القوم أبداً .

• الشَّلُوُ :

قال جرير (٢) :

لَوْلَا الخَلِيفَةُ ، يَا أَخِي طِلُّ ، مَا نَجَا ،

أَيَّامَ دِجْلَةَ ، شِلُّوكَ المَأْكُولُ .

و (الشَّلُوُ بقية الجسد) . (٣)

فتعبير جرير بـ (الشَّلُوُ) يدلُّ على أن الأخطل كاد يصل به الحال إلى درجة الهلاك ، ولم يبق منه إلا بقية من جسده حفظها له الخليفة .

ب- أَلْفَاظٌ لِبَعْضِ الأَمَاكِنِ والمَوَاضِعِ فِي نَقْضِ جَرِيرِ شِعْرِ الأَخْطَلِ :

لقد رأيتُ أن جريراً أكثرَ من ذِكْرِ الأَمَاكِنِ والمَوَاضِعِ فِي نَقْضِهِ شِعْرَ الأَخْطَلِ ، وهذا الأمرُ يوحي بأنَّ الرَّجُلَ كان يملكُ مَقَوِّمًا مُهِمًّا من مَقَوِّمَاتِ شعراءِ النَّقَائِضِ أَلَا وهو المعرفةُ المتعمِّقةُ بأسماءِ الأَمَاكِنِ والمَوَاضِعِ ، إذ لا يَخْفَى ما في ذلك - في الغالب - من تذكيرِ الشَّاعرِ خَصْمَهُ بتلكِ الأَمَاكِنِ التي حَصَلَتْ فِيهَا المَعَارِكُ والوَقَائِعُ ، ومن ثمَّ الوصولُ إلى قَهْرِ الخَصْمِ بإجادةِ الهجاءِ من خلالِ التَّرْكِيزِ على أَمَاكِنِ القتالِ ، وساحاتِ الوَغَى ، أو من خلالِ الفخرِ بما حصلَ فِيهَا من قَتْلِ للأَعْدَاءِ ، وانتصاراتِ عليهم ، وتمزيقِ

(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٧٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٨٦ .

(٣) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

للأعضاء ، والظفر بالغنائم ، واستخدام مُختلف أنواع الأسلحة المعروفة وقتئذٍ ، وتصوير ما حصل في تلك الأماكن من أحداث .

ومن جهة أخرى فإن معرفة الشاعر بالأماكن ، والديار ، والمواقع ، يُسهّل عليه أمر المقدمات الطلبية وما فيها من ذكرٍ للظّعاتن والأماكن التي ذهبن إليها أو مررن بها خلال الرحلة .

وقد ذكر جرير ما يزيد على أربعين موضعاً في معرض نقضه شعراً الأخطل ، سوف أذكر أكثرها إجمالاً ، ثم أقوم بالتعليق متى دعت الضرورة إلى ذلك ، وفيما يخدم الموضوع تحاشياً للإطالة المُملة وغير المفيدة .

ومن تلك الأماكن والمواقع التي ذكرها جرير : دارة الجأب^(١) ، ورهبي^(٢) ، والمليحة^(٣) ، والتقب^(٤) ، والشرعبية^(٥) ، والدرب^(٦) ، وتوضيح وناظرة^(٧) ، وذو البيض^(٨) ، ودوّار^(٩) .

- (١) دارة الجأب : موضع بديار بني تميم ، انظر شرح ديوان جرير ، تاج الدين شلق ، ص ٧٦ ، و (الجأب : ماء لبني هجيم عند معرة) ، انظر نقائص جرير والأخطل ، ص ١٠٩ .
- (٢) رهبي : (خبراء في الصّمان في ديار بني تميم) ، المصدر السابق ، ص ١١٠ .
- (٣) المليحة : موضع في بلاد بني تميم) ، المصدر السابق ، نفس الصفحة .
- (٤) التقب : (قرية باليمامة لبني عدي بن حنيفة) ، معجم البلدان ، ياقوت الحموي ، دار صادر و دار بيروت للطباعة و النشر ، بيروت ، لبنان ، بدون رقم طبعة ، ١٣٧٦هـ ، ٢٩٨/٥ .
- (٥) الشرعبية : بالجزيرة من بلاد تغلب كانت بها وقعة بين سليم وتغلب) ، انظر نقائص جرير والأخطل ، ص ١١٣ .
- (٦) الدرب : درب الروم وهو مضيق في الجبل صعب المسلك) ، المصدر السابق ، نفس الصفحة .
- (٧) توضيح : ((كتيب أبيض من كئبان حُمّر بالدهناء قرب اليمامة)) ، معجم البلدان ، ٥٩/٢ وناظرة : ((بالطاء المعجمة ، بلفظ اسم الفاعل المؤنث من نظر : جبل من أعلى الشقيق ، وقال ابن دُرَيْد : موضع أو جبل ...)) ، المصدر السابق ، ٥ / ٢٥٢ .
- (٨) ذو البيض : جبل رمل في الدهناء) ، نقائص جرير والأخطل ، ص ١٤٠ .
- (٩) دوّار : ماء لبني أسيد بن عمرو بن تميم بجراد التي هي ماء في ديار بني تميم) ، المصدر السابق ، نفس الصفحة .

والتَّقِيَعَةُ^(١) ، وَأَعْيَارُ^(٢) ، وَذُو بَهْدَى^(٣) وَالْأَحْقَافُ^(٤) ، وَطِخْفَةُ^(٥) ،
وَذُو نَجَبٍ^(٦) ، وَمَارِدِينَ^(٧) ، وَالْوَرِيَعَةَ^(٨) ، وَالْمَقَادُ^(٩) ، وَالسَّلْوَطَحُ^(١٠) ،
وَعَاجِنَةُ الرَّحُوبِ^(١١) ، وَالرُّحُوبُ^(١٢) ، وَحَصْنُ^(١٣) ، وَمُخَاشِنُ^(١٤) ، وَذُو الْمَجَازِ^(١٥) ،

(١) (التَّقِيَعَةُ : خبراء بين بلاد بني سَلِيْط و ضَبَّة) ، نقائض جرير و الاخطل ، ص ١٤١ و (التَّقِيَعَةُ : في
في ناحية خطِّ بني ضَبَّة خيراوات يستنقع فيها الماء بلبِّ الدهناء الأعلى) ، المصدر السابق ، نفس
الصفحة .

(٢) (أَعْيَار : قارات لبني ضَبَّة جبال صغار) ، المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٣) ذُو بَهْدَى : موضع كانت فيه وقعة . المصدر السابق ، ص ١٧١ .

(٤) (الأَحْقَاف : ديار عاد ... هي رمالٌ بظاهر بلاد اليمن كانت عاد تنزل بها) ، المصدر
السابق ، نفس الصفحة .

(٥) طِخْفَةُ : ((موضع بعد النجاج وبعد إمرة في طريق البصرة إلى مكة ، وفي كتاب الأصمعي : طِخْفَةُ
جبل أحمر طويل حذاه بئار و منهل)) ، انظر معجم البلدان ، ٤ / ٢٣ .

(٦) (ذُو نَجَبٍ : وادٍ لمحارم وله يوم مشهور) ، شرح ديوان جرير ، تاج الدين شلق ، ص ٢٨٠ .

(٧) (مَارِدِينَ : حصنٌ بالجزيرة) ، نقائض جرير والأخطل ، ص ١٧٧ .

(٨) (الْوَرِيَعَةُ : ماء لبني يربوع أو جبل بناحية الدوّ) ، المصدر السابق ، ص ١٨٠ .

(٩) (المقاد : طريق الوريعة من أمّ فيه القبلة فهو مُصْعِد ، ومن أمّ العراق فهو مُنْحَدِر) ، المصدر
السابق ، نفس الصفحة .

(١٠) (السَّلْوَطَح : موضع بالجزيرة) ، المصدر السابق ، ص ١٨٥ .

(١١) (عَاجِنَةُ الرَّحُوب : موضع كانت فيه وقعة بين قيس وتغلب) ، المصدر السابق ، ص ١٨٧ .

(١٢) (الرَّحُوب : موضع بالجزيرة وهو ماء لبني جشم بن بكر رهط الأخطل) ،
المصدر السابق ، ص ١٨٦ .

(١٣) (حَصْن : اسم جبل في أعالي نجد ، وفي المثل السائر أَنْجَدَ مَنْ رَأَى حَصْنًا أَي مَنْ عَينَ هَذَا الْجَبَلِ
فقد دخل ناحية نجد) ، المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(١٤) (مُخَاشِن : جبل مشرف على البشر وهما بديار بني تغلب) ، المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(١٥) (ذُو الْمَجَاز : أحد أسواق العرب) ، المصدر السابق ، ص ١٨٨ . و (ذُو الْمَجَاز : مكان بالطائف
كانت تقام به سوق موسميّة) ، شرح ديوان جرير ، تاج الدين شلق ، ص ٥٢٩ .

وَذَاتُ الْعُشْرِ^(١) ، وَقَوْ^(٢) ، وَأَوَالُ^(٣) ، وَشَطْبُ^(٤) ، وَذُو بَقَرٍ^(٥) ، وَرُمَاحُ^(٦) ، وَالسَّتَارُ^(٧) ،
وَالسَّتَارُ^(٧) ، وَغَيْرَهَا .

• الشَّرْعِيَّةُ وَالِدَّرْبُ :

قال جرير هاجياً الأخطل^(٨) :

أَلَمْ تَرَ قَيْسًا قَيْسَ عَيْلَانَ دَمَّرَتْ

خَنَازِيرَ بَيْنَ الشَّرْعِيَّةِ وَالِدَّرْبِ .

إن هذين الموقعين مكنا جريراً من أن يُذكر الأخطل بالمعركة التي دارت رحاها بين
القيسيين والتغليبين حيث دُمّرت قوة تغلب .

• تَوْضِيحُ وَنَاطِرَةٌ :

قال جرير^(٩) :

وَقَدْ أَبْكَأكَ حِينَ عَلَكَ شَيْبُ

بِتَوْضِيحٍ أَوْ بِنَاطِرَةِ الدِّيَارِ .

إن جريراً بكى حين تذكر أحماءه برؤية آثار توضح وناطرة على رغم كبره
وهرمه ، فلولا هذان الموضعان لما تذكر أحمته .

(١) ذاتُ العُشْرِ : بِيْطُنْ فَلَجْ يَفْضِي مِنْهَا إِلَى الدَّهْنَاءِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الدَّهْنَاءِ أَمْيَالُ) ، انظر نقائص جرير
والأخطل ، ص ١٩١ .

(٢) قَوْ : وادٍ بالعقيق عقيق بني عقيل بين النجاج و عوسجة) ، المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٣) أوال : جزيرة بالبحرين) ، المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٤) شَطْبُ : جبل في بلاد بني تميم) ، المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٥) ذُو بَقَرٍ : قرية في ديار بني أسد) ، المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٦) رُمَاحُ : قال عُمارة رُمَاحُ بأرض بني ربيعة بن مالك بن زيد مناة بني تميم) ، المصدر
السابق ، ص ١٩٣ .

(٧) السَّتَارُ : جَبَلٌ بِالْحِمَى) ، المصدر السابق ، ص ١٨٠ .

(٨) المصدر السابق ، ص ١١٣ .

(٩) المصدر السابق ، ص ١٣١ .

ومِمَّا يَعَزُّزُ التَّقَارُبَ بَيْنَ مَقَدِّمَاتِ الْقِصَائِدِ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَالْقِصَائِدِ فِي الْعَصْرِ الْأُمَوِيِّ أَنَّ
(تُوضِحَ) ذَكَرَهَا امْرَأُ الْقَيْسِ فِي مَعْلَقَتِهِ ، حِينَ قَالَ (١) :

فَتُوضِحَ فَالْمِقْرَاءَةَ لَمْ يَعْفُ رَسْمُهَا

لِمَا نَسَجَتْهَا مِنْ جَنُوبٍ وَشَمَالٍ .

● ذُو بَهْدَى وَالْأَحْقَافُ :

قال جرير (٢) :

هَلْ تَعْرِفُونَ بِذِي بَهْدَى فَوَارِسَنَا

يَوْمَ الْهُذَيْلِ بِأَيْدِي الْقَوْمِ مُقْتَسِرٌ . (٣)

إِنَّ الْهُذَيْلَ بِذِي بَهْدَى تَدَارَكَهُ

لَيْتُ إِذَا شَدَّ مِنْ عَادَاتِهِ الظَّفْرُ .

كَأَنْتَ بَنُو تَغْلِبٍ - لَا يَعْلُ جَدُّهُمْ -

كَالْمُهْلِكِينَ بِذِي الْأَحْقَافِ إِذْ دَمَرُوا . (٤)

يُذَكِّرُ جَرِيرٌ خَصْمَهُ الْأَخْطَلَ بِمَوْضِعِ ذِي بَهْدَى الَّذِي انْتَصَرَ فِيهِ الْقَيْسِيُّونَ عَلَى التَّغْلِبِيِّينَ
وَأَسْرَوْا الْهُذَيْلَ التَّغْلِبِيَّ وَقَهَرُوهُ .

وَيَذَكِّرُ التَّغْلِبِيِّينَ بِالْهَلَاكِ الَّذِي حَصَلَ لِقَوْمِ عَادٍ فِي الْأَحْقَافِ ، وَأَنَّ مَا حَصَلَ لَهُمْ فِي
مَوْضِعِ ذِي بَهْدَى هُوَ أَشْبَهُ بِتَدْمِيرِ عَادٍ فِي الْأَحْقَافِ .

(١) ديوان امرئ القيس ، تحقيق حنان الفاخوري ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ،

ط١ ، ١٤٠٩هـ ، ص ٢٦ .

(٢) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٧١ .

(٣) الهذيلُ : ابن هبيرة التغلبي . مُقْتَسِرٌ : مَقْهُورٌ .

(٤) لَا يَعْلُ جَدُّهُمْ : يَدْعُو عَلَيْهِمْ أَي لَا عَلَا جَدُّهُمْ .

• ذُو الْبَيْضِ وَدُوَّارُ :

قال جرير في مقدمة قصيدة له^(١) :

إِذَا أَقُولُ تَرَكْتُ الْجَهْلَ هَيَّجَنِي

رَسْمٌ بِذِي الْبَيْضِ أَوْ رَسْمٌ بِدُوَّارِ .

فكلما أراد جرير أن يترك الهوى تَذَكَّرَ أحبابه بأطلال ذِي الْبَيْضِ وَدُوَّارِ ، فلولا

أطلال هذين الموضعين لَمَا عاد إلى الجهل والهوى .

• النَّقِيعَةُ وَأَعْيَارُ :

قال جرير^(٢) :

هَلْ بِالنَّقِيعَةِ ذَاتِ السِّدْرِ مِنْ أَحَدٍ

أَوْ مِنْبِتِ الشَّيْحِ مِنْ رَوْضَاتِ أَعْيَارِ .^(٣)

تَذَكَّرَ جرير بالنَّقِيعَةِ وَأَعْيَارِ أَحَبَّتْهُ ، ومعرفته بالمواقع زادت من قدراته الشعرية

المبدعة ، وتوظيفه لأسماء الأماكن أَكْسَبَ شِعْرَهُ القُوَّةَ والرِّصَانَةَ .

• السَّلْوُطُحُ وَالْفُرَاتُ وَمُخَاشِنٌ وَحَضْنٌ وَدِجْلَةٌ وَذُو الْمَجَازِ :

قال جرير مفتخرًا وهاجياً^(٤) :

وَعَدَتْ هَوَازِنُ بِالْجِيُوشِ وَأَنْتُمْ

بَيْنَ السَّلْوُطُحِ وَالْفُرَاتِ ، فُلُولُ .^(٥)

لَوْ أَنَّ جَمْعَهُمْ غَدَاةٌ مُخَاشِنٌ

يُرْمَى بِهِ حَضْنٌ لَكَادَ يَزُولُ .

لَوْلَا الْخَلِيفَةُ يَا أُخَيْطِلُ مَا نَجَا

أَيَّامَ دِجْلَةَ شِلْوُكَ الْمَأْكُولُ .

(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٤٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٤١ .

(٣) السِّدْرُ و الشَّيْحُ : نوعان من النبات .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ .

(٥) فلول : الفلول بقايا الجيش .

وَكَاَنَّ عَافِيَةَ النَّسُورِ عَلَيْهِمْ

حَجٌّ بِأَسْفَلِ ذِي الْمَجَازِ نُزُولٌ . (1)

لقد ذكر جريرٌ في الأبيات السابقة ، والتي هي جزء من إحدى نقائضه ، ستة أماكن استطاع من خلالها أن يُقَوِّيَ الغرضين الشعريين اللذين جاء ذكر تلك الأماكن في سياقهما ؛ فموقع السَلْوُطَحِ ، وموقع الفُراتِ جاء ذكرهما في سياق فَخْرِهِ بهوازن وهجائه للتغليبين الذين هُزِمُوا وكُسِرَتِ شوكتُهُمْ . فكان لذكرهما الأثر الواضح في تدعيم الأدعاء بالحجة والبرهان .

وأما ذكرُ جريرٍ لموقعي مُخَاشِنٍ وَحَضَنٍ فقد وردا في معرض فَخْرِهِ بِالْجَمْعِ الحاشِدِ لجيش القيسيين ، ذلك الجَمْعُ الذي تنهدم منه الجبال إذا تصدَّتْ له ، وتزول من أماكنها . وَأَمَّا دِجْلَةٌ فقد جاء ذكره حين هجا جريرٌ الأخطلَ بأنه لولا نجدة الخليفة له في معارك دجلة لهلك هلاكًا شديدًا .

وأما موقع ذِي الْمَجَازِ فقد وظَّفه جريرٌ في سياق فَخْرِهِ بانتصار القيسيين على التغليبين وما حصل مع ذلك الانتصار من قتل أعداد غفيرة من التغليبين .

● ذَاتُ الْعُشْرِ ، وَرَهْبِي ، وَقَوٌّ ، وَأَوَالٌ ، وَشَطْبٌ ، وَذُو بَقْرٍ ، وَرُمَاحٌ :

قال جرير (2) :

أَجَدَّ الْيَوْمَ جِيرْتُكَ احْتِمَالًا

وَلَا نَهْوَى بِذِي الْعُشْرِ الزِّيَالَ . (3)

قَفَا عُوْجَا عَلَى دِمَنِ بَرَهَبِي

نُحَيِّي رَبْعَهُنَّ وَإِنْ أَحَالَ . (4)

(1) العَافِيَةُ من الطَّيْرِ والسَّبَاعِ التي تأتي الموتى لتأكل من لحومهم .

(2) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٩١ ، ١٩٣ .

(3) أَجَدَّ : يُقال جَدَّ وَأَجَدَّ في الأمر وهو جاد . احتمالاً : ارتحالا . ذِي الْعُشْرِ : أراد أن

يقول : ذات العُشْرِ فلم يتمكَّن بسبب الوزن .

الزِّيَال : الفراق .

(4) عُوْجَا : مَيْلًا . دِمَنِ : ما تبقى من أطلال . أَحَالَ : أتى عليه حَوْلٌ .

وَشَبَّهْتُ الْحُدُوجَ غَدَاةَ قَوْ

(1) سَفِينِ الْهِنْدِ رُوحَ مِنْ أَوَالِ .

جَعَلْنَا الْقَصْدَ عَنْ شَطِبٍ يَمِينًا

(2) وَعَنْ أَجْمَادِ ذِي بَقَرٍ شِمَالًا .

وَفِي الْأَظْعَانِ مِثْلُ مَهَا رُمَاحٍ

نَصَبْنَا لَنَا الْمَصَايِدَ وَالْحِبَالَ .

نلاحظ هنا أن جريراً ذكرَ سبعةً من الأماكن في المقدمة الطللية وفي وصف الظعائن ، وهذا العدد الملحوظ من أسماء الأماكن في عددٍ متقارب من الأبيات في قصيدة واحدة يمثل غزارة عند جرير في جانب معرفته بالمواقع والأماكن ، ولولا هذه الغزارة لما ظهرت تلك المقدمة في هذا القدر من التماسك ، وفي تلك الصورة البهية من الجزالة والقوة ، وهنا يكون الإبداع عندما يتكشف لنا جرير عن شخصيةٍ أقرب ما تكون إلى رحالةٍ كبير أو جغرافياً ماهر .

● السِّتَارُ ، وَالْوَرِيْعَةُ ، وَالْمَقَادُ :

قال جرير (3) :

أَيُّقِيمُ أَهْلُكَ بِالسِّتَارِ وَأَهْلُنَا

بَيْنَ الْوَرِيْعَةِ وَالْمَقَادِ حُلُولُ .

جاء هذا البيت في المقدمة الطللية لإحدى نقائض جرير ، وقد ضمَّنه ذكر ثلاثة مواضع استطاع من خلالها أن يُقرِّب الصورة لحبيته ، تلك الصورة التي لا يمكن معها أن ينساها فهي باقية في قلبه ما بقيت آثار تلك الطلول .

* * *

(1) الحُدُوج : جمع حِدَج وهو مركب للنساء .

(2) أَجْمَاد : الأراضي الصُّلْبَة .

(3) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٨٠ .

● دَارَةُ الْجَبَابِ ، وَالْمُلَيْحَةُ ، وَالتَّقَبُّ :

قال جرير في مُقَدِّمَةِ طَلَلِيَّةٍ لِإِحْدَى نِقَائِضِهِ (١):

أَصَاحَ أَلَيْسَ الْيَوْمَ مُنْتَظِرِي صَحْبِي

نَحْيِي رُسُومَ الْحَيِّ مِنْ دَارَةِ الْجَبَابِ .

وَمَاذَا عَلَيْهِمْ أَنْ يَعُوجُوا بِدِمْنَةٍ

عَفَتْ بَيْنَ أَنْقَاءِ الْمُلَيْحَةِ وَالتَّقَبِّ . (٢)

نرى جريراً كعادته في أغلب مقدماته الطللية يكثر من ذكر المواضع والأماكن فهو في

البيتين السابقين يذكر ثلاثة من المواضع التي يتذكر من خلالها أحبته .

ج- أَلْفَاظُ الْحَرْبِ فِي نَقْضِ جَرِيرِ شِعْرِ الْأَخْطَلِ :

لا يمكن أن يُتَصَوَّرَ أَنْ يَجْلُوَ شِعْرُ شَاعِرٍ اتَّخَذَ مِنْ غَرَضِي الهجاء والفخر أساساً ينطلق

منه في نظم قصائده ، من ذِكْرٍ لِلانْتِصَارَاتِ ، وَإِشَادَةٍ بِالْمَعَارِكِ وَالْبَطُولَاتِ ، وَإِذْكَاءٍ لِلثَّارَاتِ

وَالعَصَبِيَّاتِ ، وَمِنْ صَبَّغِ آيَاتِهِ بِلَوْنِ الدَّمِّ ، وَتَحْلِيَّتِهَا بِأَدْوَاتِ الْحُرُوبِ ، وَبِأَشْلَاءِ الْقَتْلَى ،

وَبِصَلِيلِ السِّيُوفِ ، وَصَهِيلِ الْخِيُولِ ، وَيَتَأَكَّدُ ذَلِكَ إِذَا كَانَ هَذَا الشَّاعِرِ هُوَ أَحَدُ شِعْرَاءِ

النَّقَائِضِ الَّتِي مَا كَانَتْ لِتَقُومَ إِلَّا عَلَى أَيَّامِ الْعَرَبِ وَحُرُوبِهِمْ وَعَصَبِيَّاتِهِمْ .

((كَانَ الشُّعْرُ حَرْبًا أَدْبِيَّةً تُسَايِرُ هَذِهِ الْحُرُوبَ الْمَادِّيَّةَ ، وَكَمَا كَانَتْ أَدْوَاتِ الْحَرْبِ

الْمَادِّيَّةِ مُتَشَابِهَةً مُتَنَاقِضَةً ، فَكَذَلِكَ فَنُونَ هَذَا الشُّعْرِ مُتَشَابِهَةٌ مُتَنَاقِضَةٌ ...)) . (٣)

وَإِذَا كَانَ مِنْ شِعْرَاءِ النَّقَائِضِ مَنْ ظَفَرَ بِنَصِيبِ الْأَسَدِ وَاسْتَحْوَذَ عَلَى أَكْثَرِ التَّرِكَةِ ، فَلَنْ

يَكُونَ ذَلِكَ إِلَّا لَجْرِيرِ . كَيْفَ لَا وَهُوَ الشَّاعِرُ الَّذِي لَمْ يَصْمُدْ أَمَامَهُ سِوَى الْفِرْزَدِقِ

وَالْأَخْطَلِ ، وَقَدْ نَالَهُمَا مِنْهُ الشَّيْءُ الَّذِي لَا نَحْسُدُهُمَا عَلَيْهِ .

إِنَّ الْمُتَمَّلاً فِي قِصَائِدِ جَرِيرِ الَّتِي نَقَضَ بِهَا قِصَائِدَ الْأَخْطَلِ يَجِدُ - لَا مَحَالَةَ - أَنْ

الْحَرْبُ حَاضِرَةٌ حُضُورًا قَوِيًّا ، وَأَنَّ أَدْوَاتَهَا لَا يُمْكِنُ أَنْ تَخْلُوَ مِنْهَا نَقِيضَةٌ مِنْ نِقَائِضِهِ ،

فَالشُّعْتُ الْعَوَابِسُ ، وَالْأَبْطَالُ الَّذِينَ تَحْمِلُهُمْ ، وَالْفِرْسَانُ الْأَقْوِيَاءُ ، وَسِیُوفُ الْهِنْدِ ،

(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٠٩ ، ١١٠ .

(٢) أنقاء : جمع نقا للقطعة المحدودة من الرَّمْلِ الْأَبْيَضِ .

(٣) تأريخ النقائض في الشعر العربي ، ص ٣٩ .

والرُدَيْنِيَّاتِ ، وَجُنْثُ الْقَتْلَى ، وَرَهَجَ الْمَعَارِكِ ، وَصَلَصَلَةُ اللَّحْمِ ، كُلُّهَا عِلَامَاتٌ مُمَيِّزَةٌ لَتَلِكِ النَّقَائِضِ ، وَقَدْ قَمْتُ هُنَا بِتَصْنِيفِهَا وَتَرْتِيبِهَا عَلَى النَّحْوِ التَّالِيِ :

- ١- كلمة (الحرب) في نقض جرير شعر الأخطل .
- ٢- كلمة (القتل) في نقض جرير شعر الأخطل .
- ٣- أدوات الحرب في نقض جرير شعر الأخطل .
- ٤- ألفاظ متفرقة من جوِّ الحرب في نقض جرير شعر الأخطل .

١- كلمة (الحَرْبُ) في نقض جرير شعر الأخطل :

وردت هذه الكلمة في قصائد جرير التي ينقض بها شعر الأخطل ما يزيد على تسع مرّات في صُورٍ مختلفة ، فكانت مُعرّفة بـ (ال) أربع مرّات في أربعة أبيات مختلفة ، الأوّل قول جرير^(١) :

جَزَعْتَ ابْنَ ذَاتِ الْفَلْسِ لَمَّا تَدَارَكَتْ

مِنَ الْحَرْبِ أَنْيَابٌ عَلَيْكَ وَكُلُّكُلٌ .

والثاني قوله^(٢) :

لَعَلَّكَ يَا خِنْزِيرَ تَغْلِبَ فَاخِرٌ

إِذَا مُضِرٌّ مِنْهَا تَسَامَى بِنُؤِ الْحَرْبِ .

والثالث قوله^(٣) :

إِذَا صَدَعَتْ قَيْسٌ وَخِنْذِفٌ بَيْنَهَا

عَصَا الْحَرْبِ مَا أَوْضَعْتَ فِيهَا مَعَ الْكَرْبِ .

(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ٦٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١١٣ .

(٣) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

والرابع قوله^(١) :

أَخُوكُمْ يَا تَمِيمُ وَمَنْ يُحَامِي

وَأُمُّ الْحَرْبِ مُحَلِبَةٌ نَوَارُ.^(٢)

واستخدم جرير كلمة (حَرْب) ، مُعَرَّفَةً بإضافتها إلى (قيس) ، في قوله^(٣) :

وَقَدْ قَذَفْتُ مِنْ حَرْبِ قَيْسٍ نِسَاؤَكُمْ

بِأَوْلَادِهَا مِنْهَا بَقِيرٌ وَمُعْجَلٌ.

وفي قوله^(٤) :

أَلَمْ تَرَيَا أَخِيَطِلُ حَرْبِ قَيْسٍ

تُمْرُ إِذَا ابْتَغَيْتَ لَهَا الْعِدَالَ .^(٥)

واستخدم جرير كلمة (حَرْب) ، مضافة إلى ياء المتكلم ، في قوله^(٦) :

تَصَلَّيْتُ بِالنَّارِ الَّتِي يَصْطَلِي بِهَا

فَأَرَدَاكَ فِيهَا وَافْتَدَى بِكَ مِنْ حَرْبِي .

ومضافة إلى الضمير (هم) ، في قوله^(٧) :

وَإِذَا مُنِيتَ بِخَيْلِ قَيْسٍ لَمْ يَزَلْ

أَبَدًا لِحَرْبِهِمْ عَلَيكَ دَلِيلُ .^(٨)

(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٣٢ .

(٢) مُحَلِبَةٌ : أَحَلَبَ الْقَوْمُ اجْتَمَعُوا لِلنُّصْرَةِ وَالْإِعَانَةِ . نَوَارُ : مُهْلِكَةٌ .

(٣) الْمَصْدَرُ السَّابِقُ ، ص ٦٧ .

(٤) الْمَصْدَرُ السَّابِقُ ، ص ١٩٧ .

(٥) تُعِيرُ : مِنَ الْمَرَارَةِ .

(٦) الْمَصْدَرُ السَّابِقُ ، ص ١١٤ .

(٧) الْمَصْدَرُ السَّابِقُ ، ص ١٨٥ .

(٨) مُنِيتَ : ابْتُلِيَتْ .

واستخدم جرير الفعل المضارع (يُحَارِبُ) ، في قوله (1) :

سَيَعْلَمُ مَنْ يُحَارِبُ أَنَّ قَيْسًا

صَنَادِيدٌ لَهُمْ لَجَجٌ غِمَارٌ . (2)

* * *

٢- كلمة (القتل) في نقض جرير شعر الأخطل :

استخدم جرير لفظة (القتل) في نقضه شعر الأخطل ما يقرب من ستّ مرات في صور

شَتَّى ، منها : الفعل الماضي (قَتَلَ) ، في قوله (3) :

لَقَدْ قَتَلَ الْجَحَّافُ أَزْوَاجَ نِسْوَةٍ

يَقُودُ ابْنُ خَلَّاسٍ بِهِنَّ وَعَزْهَلُ . (4)

وفي قوله (5) :

أَنْسَيْتَ مَا قَتَلَ الْمُهْزَمُ مِنْكُمْ

وَابْنُ الْحُبَابِ ، وَشَرِّدًا وَأَذَالَ . (6)

ومنها (القَتَلَى) ، كما في قوله (7) :

فَمَا زَالَتِ الْقَتَلَى تَمُورٌ دِمَائُهَا

بِدِجْلَةٍ حَتَّى مَاءُ دِجْلَةٍ أَشْكَلُ . (8)

(1) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٣٢ .

(2) صناديد : المفرد صنديد وهو الرجل الشجاع .

لَجَجٌ غِمَارٌ : كناية عن كثرة الجنود في القتال .

(3) المصدر السابق ، ص ٦٧ .

(4) ابن خَلَّاسٍ وَعَزْهَلُ : ابنا عمّ من تَعْلَبِ .

(5) المصدر السابق ، ص ٩٥ .

(6) الْمُهْزَمُ : هو عمار بن المهزم السلمي قتل بالشرعية . انظر المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(7) المصدر السابق ، ص ٦٨ .

(8) تَمُورٌ : تجري . أَشْكَلُ : الأشكل الذي تخالطه حُمرة .

ومنها المصدر (قِتَال) ، كما في قوله (١) :

قَالَ الْأَخِيْطِلُ إِذْ رَأَى رَايَاتِنَا :

يَا مَارَسَرَ جِسَ لَا تُرِيدُ قِتَالًا .

ومنها اسم المفعول المتصل بتاء التانيث للغائبة (مقتولة) ، كما في قوله (٢) :

وَمَقْتُولَةٌ صَبْرًا تَرَى عِنْدَ رِجْلِهَا

بَقِيْرًا ، وَأُخْرَى ذَاتُ بِنْتٍ تُوَلِّوْلُ .

* * *

٣- أدوات الحرب في نقض جرير شعر الأخطل :

ذكر جرير في نقضه شعر الأخطل أدوات حربية لا يمكن أن تقوم الحرب بدونها ؛ فقد أكثر من ذكر الخيل سواء كان ذكره لها تصريحاً أو تلميحاً .

ولا نستغرب منه أن يُكثر من ذكرها فالخيل من أهم الأدوات التي لا يمكن أن تقوم حرب في ذلك الزمان بدونها ، ثم أكثر - كذلك - من ذكر الفرسان ، وهم الأبطال الذين يسوسون تلك الخيول ، وهم الأداة المهمة التي لولاها لما قامت حرب ، ثم لاحظت أن جريراً ذكر الرماح ونوع في ذكرها ، كما نوع في ذكر السيف وهي أهم أدوات الحروب التي يستخدمها المحاربون وقتنذ إلى جانب استخدامهم للرمح والنبال وغيرها .

فأما لفظه (الخيل) ، فقد جاءت معرفةً بـ (ال) ، في قول جرير (٣) :

أَوْ مِثْلِ آلِ زُهَيْرٍ وَالْقَنَا قِصْدٌ

وَالْخَيْلُ فِي رَهَجٍ مِنْهَا وَإِعْصَارٌ . (٤)

وقد عبّر جرير هنا بالخيول كمقومٍ أساسي من مقومات الحرب ، فالخيل هنا تتحرك حركات سريعة تحت الأبطال وكأنها تعلّي أو كأنها الإعصار متشوقةً إلى القتال .

(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ٩٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٦٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٤٥ .

(٤) آل زهير : زهير بن جذيمة بن رواحة العبسيّ صاحب داحس والغبراء . القنا : الرماح .

قِصْدٌ : مُتَحَطِّمَةٌ ومتكسرة من شدة الضرب بها . رَهَجٌ : غليان .

وفي قوله (١) :

أَوْ هَاشِمٌ يَوْمَ قَادِ الْخَيْلِ مُعَلِّمَةٌ

(٢) فِي جَحْفَلٍ كَسَوَادِ اللَّيْلِ جَرَّارٍ .

والخيل لا يقودها إلا فارسٌ مدَّربٌ ، ولهذا قال جرير : (قَادِ الْخَيْلِ) ، وهذه القيادة إنما كانت في ذلك الجيش العظيم الذي يسير بطيئاً بسبب كثرته .

وفي قوله (٣) :

قَادَ إِلَيْكُمْ صُدُورَ الْخَيْلِ مُعَلِّمَةٌ

(٤) تَغَشَى الطَّعَانَ ، وَفِي أَعْطَافِهَا زَوْرٌ .

وهذه الخيل تتقدم فوق الأهوال ولا تخشى شيئاً .

وأما إذا لم يذكر جرير (الخيل) معرفةً بـ (ال) ، فقد لاحظتُ أنه إذا عرَّفَهَا

بالإضافة فإنما يُعرِّفُهَا بإضافتها إلى (قيس) ، كما في قوله (٥) :

لَقَدْ لَاقَى الْأَخْيَطِلَ خَيْلَ قَيْسٍ

(٦) فَأَبْرَحَ يَوْمَهُنَّ بِهِ وَطَالَا .

وكما في قوله (٧) :

وَلَقَدْ شَفَتْنِي خَيْلُ قَيْسٍ مِنْكُمْ

(٨) فِيهَا الْهُذَيْلُ ، وَمَالِكٌ ، وَعَقِيلٌ .

(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٤٥ .

(٢) هاشم : هو هاشم بن حرملة بن الأسعر . معلمة : قد أُعلِّمَتْ بعلامات تُعرف بها .

الجحفل : الجيش الكثير .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٧٤ .

(٤) وفي ديوان جرير : (قَادُوا إِلَيْكُمْ ...) ديوان جرير ، ص ١٨٢ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١٩٦ .

(٦) أْبْرَحَ : أَعْظَمَ .

(٧) المصدر السابق ، ص ١٨٥ .

(٨) الْهُذَيْلُ وَمَالِكٌ وَعَقِيلٌ : من الفرسان القيسيِّين .

وَإِذَا مُنِيتَ بِخَيْلٍ قَيْسٍ لَمْ يَزَلْ

أَبْدًا لِحَرْبِهِمْ عَلَيْكَ دَلِيلٌ .

إننا نلاحظ أن جريراً - وفي بيتين متتاليين - أضاف لفظة (خيل) إلى (قيس) ، وكأنه يريد أن يزيد من شرف الخيل بإضافتها إلى قومه القيسيين . وقد نوع جرير في استخدامه للفظة (الخيل) ، فأضافها إلى الضمائر - أحياناً - كما في قوله (١) :

حَمَلْتُ عَلَيْكَ حُمَاةَ قَيْسٍ خَيْلَهَا

شُعْثًا عَوَابِسَ تَحْمِلُ الْأَبْطَالَ .

وكما في قوله (٢) :

لَقَدْ أَوْزَدَتْ قَيْسٌ عَلَيْكَ خِيُولَهَا

مَصَاعِيبَ هَدَمْنَ الْحِيَاضَ الَّتِي تَجْبِي . (٣)

وربما كتى جرير عن الخيل بمثل قوله في البيت السابق : (شُعْثًا عَوَابِسَ) ، وكما في قوله (٤) :

عُقَابُ الْمَنَايَا تَسْتَدِيرُ عَلَيْهِمْ ،

وَشَعْتُ النَّوَاصِي لُجْمَهُنَّ تُصَلِّصُلُ . (٥)

وقد استخدم جرير كنايةً أخرى عن الخيل ، كما في قوله (٦) :

وَإِذَا الدُّعَاءُ عَلَا بِقَيْسٍ أَلْجَمُوا

شُعْثًا عَوَابِسَ كَالْقُنِيِّ ذُكُورًا .

(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ٨٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١١٣ .

(٣) مصاعيب : جمع مُصْعَب وهو ضد الذلول . تَجْبِي : تجمع فيها الماء .

(٤) المصدر السابق ، ص ٦٨ .

(٥) عُقَابُ الْمَنَايَا : راية المنايا . شَعْتُ النَّوَاصِي : كناية عن الخيل المتفرقة الشعر بسبب شدة المعركة .

تصلصل : الصلصلة الصّوت القوي .

(٦) المصدر السابق ، ص ١٢٤ .

والعوايس هي الكالحة من هول المعارك ، و الذكور هي قطع من الفولاذ تُزاد في رأس الفأس أو السيف .

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى اعْتِدَادِ جَرِيرٍ بِخَيْوَلٍ قَيْسٍ أَنَّهُ أَضْفَى عَلَيْهَا صِفَاتٍ مِنَ الْجَمَالِ ، وَالْحَسَنِ ، كَمَا فِي قَوْلِهِ (١) :

جَاءَتْ سَوَابِقُنَا غُرًّا مُحَجَّلَةً

إِذْ لَيْسَ بِالنَّاسِ تَحْجِيلٌ وَلَا غُرٌّ .

فهي من سوابق الخيل ومن أشرافها ، وهي خيولٌ بها غُرٌّ وتَحْجِيلٌ ، ومعلوم أن الغرَّة بياضٌ في جبهة الفرس ، والتَّحْجِيلُ في قوائمها . فهي بذلك خيول مشهورة لا مثيل لها .

وَأَمَّا الْفَوَارِسُ ، وَهِيَ أَهَمُّ أَدَاةٍ مِنْ أَدَوَاتِ الْحَرْبِ - كَمَا سَبَقَ - فَقَدْ ذَكَرَهُمُ جَرِيرٌ كَثِيرًا ؛ وَكَانَ ذِكْرُهُ لِلْفُظَّةِ (فارس) ، كَمَا يَلِي :

أ- صِيغَةٌ مِنْتَهَى الْجُمُوعِ : (فَوَاعِلِ) بِدُونِ (ال) هَكَذَا (فَوَارِسِ) ،

كَمَا فِي قَوْلِهِ (٢) :

مِنَّا فَوَارِسٌ لَنْ تَجِيَّاءَ بِمِثْلِهِمْ

وَبِنَاءِ مَكْرُمَةٍ أَشْمٌ جَزِيلٌ . (٣)

وقوله (٤) :

مِنَّا فَوَارِسٌ ذِي بَهْدَى وَذِي نَجَبٍ

وَالْمُعْلِمُونَ صَبَاحًا يَوْمَ ذِي قَارٍ . (٥)

ونلاحظ تقديم جرير للخبر (الجار والمجروح مئاً) ، وهذا التقديم فيه ما فيه من

التَّخْصِيسِ ، وَأَنَّ هَؤُلَاءِ الْفَوَارِسِ الْأَبْطَالِ قَدْ خُصِّصَتْ قَيْسٌ بِاحْتِضَانِهِمْ دُونَ سِوَاهَا .

(١) نقائض جرير و الأخطل ، ص ١٦٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٨٤ .

(٣) أشمٌ : طويل .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٤٣ .

(٥) يوم ذي قار : من الأيام المشهورة في الجاهلية .

ب- وربما استخدم جرير لفظة (فارس) مجموعةً على صيغةٍ منتهى الجموع (فَوَاعِلِ) ومحلاةً بـ (ال) ، هكذا (الفَوَارِسِ) ، كما في قوله^(١) :

إِنَّا بِطِخْنَفَةٍ أَوْ أَيَّامِ ذِي نَجَبٍ

نَعْمَ الْفَوَارِسُ لَمَّا ابْتَلَّتِ الْعُدْرُ . (2)

ج- واستخدام جرير هذه الصيغة مضافة إلى بعض الضمائر، كالياء في قوله^(٣) :

وَرَأَتْ حُسَيْنَةَ بِالْعَذَابِ فَوَارِسِي

تَسْبِي النَّسَاءِ ، وَتَقْسِمُ الْأَنْفَالَا . (4)

ومثل (نا) الفاعلين في قوله^(٥) :

هَلْ تَعْرِفُونَ بِذِي بَهْدِي فَوَارِسَنَا

يَوْمَ الْهُذَيْلِ بِأَيْدِي الْقَوْمِ مُقْتَسَرُ .

واستخدم جرير كلمة (فارساً) منكرةً في مثل قوله^(٦) :

إِذْ ظَلَّ يَحْسِبُ كُلَّ شَخْصٍ فَارِسًا

وَيَرَى نَعَامَةً ظَلَّهِ فَيَجُولُ .

ولعلنا نلاحظ ما توحى به كلمة (فارساً) من الذعر الذي أصاب الأخطل من

الفرسان القيسييين ، لدرجة أنه أصبح يخاف من ظله .

هذا وقد رأيت تنويع جرير في تعبيره عن (الفرسان) بألفاظ أخرى كلفظ

(الأبطال) ، ولفظ (حُماة) ،

(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٦٩ .

(٢) العُدْرُ : جمع عُذْرَة وهي نواصي الخيل .

(٣) المصدر السابق ، ص ٩٤ .

(٤) حُسَيْنَةُ : هي حسينة بنت جابر بن بُجَيْرٍ ادَّعى أَنَّهَا سُبَيْتٌ . العذاب : مُسْتَرْقِ الرَّمْلِ حيث

الأنفال : غنائم الحرب .

استرقّ وانقطع .

(٥) المصدر السابق ، ص ١٧١ .

(٦) المصدر السابق ، ص ١٨٦ .

في قوله^(١) :

حَمَلَتْ عَلَيْكَ حُمَاةً قَيْسٍ خَيْلَهَا

شُعْثًا عَوَابِسَ تَحْمِلُ الْأَبْطَالَ .

إنَّ جريراً يُنَوِّعُ في وصفه للفرسان من قومه ، فَهُمُ حُمَاةٌ لِلدِّيَارِ ، ولِلْأَعْرَاضِ ، ولِلدَّمَاءِ ، وَهُمُ أَبْطَالٌ أَشَدَّاءُ ، وَهَمُ قَبْلَ ذَلِكَ فِرْسَانٌ يَمْتَطُونَ صَهَوَاتِ الْخِيُولِ الَّتِي تَقْتَحِمُ الْمَعَارِكُ ، وَهَمُ - كَمَا وَصَفَهُمْ فِي الْبَيْتِ التَّالِي - كُمَاةٌ ، فَقَالَ^(٢) :

نَعْمَ الْكُمَاةُ إِذَا الصَّفَايِحُ جُرِّدَتْ

لِلْبَيْضِ تَحْتِ ظُبَاتِهِنَّ صَالِلٌ .^(٣)

فهو يمدح الكُمَاةَ من قومه ، وَ (الْكُمَى : لَابِسُ السَّلَاحِ وَالشُّجَاعُ الْمَقْدَامُ الْجُرِيءُ ، كَانَ عَلَيْهِ سِلَاحٌ أَوْ لَمْ يَكُنْ .)^(٤)

وَأَمَّا حَدِيثُ جَرِيرٍ عَنِ السُّيُوفِ وَالرَّمَاكِ ، وَهِيَ مِنَ الْأَدْوَاتِ الْمَشْهُورَةِ فِي الْحُرُوبِ قَدِيمًا ، فَقَدْ كَانَ حَدِيثًا يَبْعَثُ الْحَمَاسَةَ وَالْقُوَّةَ ، وَكَانَ فِي ذِكْرِهِ لِلسُّيُوفِ تَنْوِيعٌ بَيْنَ الْجَمْعِ عَلَى صِيغَةِ جَمْعِ الْقَلَّةِ (أَفْعَالٌ) كَقَوْلِهِ : (أَسْيَافٌ) ، أَوْ الْجَمْعِ عَلَى صِيغَةِ جَمْعِ التَّكْسِيرِ (فُعُولٌ) ، كَقَوْلِهِ : (سِيُوفٌ) ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ^(٥) :

فَالِإِ تَعَلَّقَ مِنْ قُرَيْشٍ بِذِمَّةٍ

فَلَيْسَ عَلَى أَسْيَافِ قَيْسٍ مُعْوَلٌ .^(٦)

فليس عند القيسيِّين أنصاف الحلول أو المحاباه أو الهوادة .

ونلاحظ إضافة (أَسْيَافٌ) إِلَى (قَيْسٍ) فِي الْبَيْتِ السَّابِقِ ، وَهَذَا يَذَكِّرُنَا - فِيمَا سَبَقَ - بِإِضَافَةِ الْخَيْلِ إِلَى قَيْسٍ (خَيْلِ قَيْسٍ) ، أَوْ إِضَافَةِ (حِمَاةٌ) إِلَى (قَيْسٍ) ،

(١) نقائض جرير و الأخطل ، ص ٨٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٨٥ .

(٣) الصَّفَايِحُ : السُّيُوفُ الْعَرَاضُ . الظُّبَاتُ : جَمْعُ ظُبَّةٍ وَهِيَ الْأَطْرَافُ الْحَادَّةُ . صَالِلٌ : صَوْتُ السُّيُوفِ .

(٤) المعجم الوسيط ، ص ٧٩٩ .

(٥) نقائض جرير و الأخطل ، ص ٦٩ .

(٦) مُعْوَلٌ : مُسْتَعَاثٌ وَالْعَوِيلُ الْإِسْتِغَاثَةُ .

(حمأة قيس) ، أو إضافة الحرب إلى قيس (حَرْبُ قَيْس) ، وفي بيت آخر (كتائب قيس) ، وكأنَّ جريراً بهذه الإضافات قد أفرد القيسيين دون سواهم بحروب مُميَّزة ، وبخيول متفرّدة ، وبسيوف لا كالسيوف ، وبحمأة لا يُماثلهم حمأة ، وبكتائب ليست كالكتائب . وقال في بيت بعد البيت السابق^(١) :

وَقَدْ شَقَّقْتُ يَوْمَ الرَّحُوبِ سِيُوفَنَا

عَوَاتِقَ لَمْ يَثْبُتْ عَلَيْهِنَّ مِحْمَلٌ .

فهو استخدامٌ بصيغة (فُعُولٌ) ، ونلاحظ إتيان جرير بشيءٍ من لوازم السيف وهو المِحْمَلُ .

كما بالغ جريرٌ في وصف سيوف القيسيين بأنّها من أجود أنواع السيوف وهي سيوف الهند ، فأرأيتُ أنّه يذكر - أحياناً - (سيوف الهند) ، كما في قوله^(٢) :

فَإِذِ لَمْ تَصْحُ نَشْوَتُكُمْ فَذُوقُوا

سُيُوفَ الْهِنْدِ وَالْأَسَلَ الطُّوَالَا .

وقال في بيت آخر^(٣) :

أَفْنَى الْمُلُوكِ فَأَضْحَوْا حَوْلَهُ جَزْرًا

بِصَارِمٍ مِنْ سُيُوفِ الْهِنْدِ بَتَّارٍ .

فإلى جانب ذكر جرير أجود أنواع السيوف ، (سيوف الهند) ، فقد رأيتُهُ قد أمعنَ في تفصيل هذه الجودة والإلحاح عليها بذكره لفظتي (صارم) و (بتّار) ، فالصّارم هو السيف القاطع الشّديد القطع ، والبتّار هو كذلك السيف القطّاع ، ونلاحظ استخدامه بصيغة اسم الفاعل في (صارم) ، وصيغة المبالغة في (بتّار) .

وأما الرّماح فقد نوّع جريرٌ في ذكرها بأسمائها المتعدّدة ، مثل (القنا) ،

(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ٦٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٩٧ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٤٦ .

في قوله^(١) :

أَوْ مِثْلِ آلِ زُهَيْرٍ وَالْقَنَا قِصْدٌ ،

وَالْخَيْلُ فِي رَهَجٍ مِنْهَا وَإِعْصَارٍ .

وقد وصف جرير القنا بأنها قِصْدٌ أي متكسرة بسبب الضرب والطعان وشدة احتدام

المعركة .

وقال جرير في هجاء تغلب^(٢) :

وَلَوْ ظَهَرَهُمُ الْأَسِنَّةُ وَالْقَنَا

فُبْحًا لِتِلْكَ عَوَاتِقًا وَظُهُورًا .

فإلى جانب ذكر جرير للقنا ، نراه قد ذكر الأسِنَّة ، والأسِنَّةُ جَمْعُ سِنَانٍ

(وَالسِّنَانُ : نَصْلُ الرُّمْحِ)^(٣) .

فالتغلبيون من جبنهم وهزيمتهم ولّوا ظهورهم فارّين فأصابت الأسِنَّةُ ظهورهم .

وذكر جرير (الرُدَيْنِيَّاتِ) ، ومفردها الرُدَيْنِيُّ ، وهو (الرُّمْحُ ، نسبةً إلى رُدَيْنَةَ ، وهي

امرأة كانت تُقَوِّمُ الرِّمَاحَ .)^(٤) فقال^(٥) :

حَضَضَتْ عَلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ تَرَكَتْهُمْ

تُعَلُّ الرُّدَيْنِيَّاتُ مِنْهُمْ وَتُنْهَلُ^(٦) .

والمعنى أنّ الجحّافَ ترك رماحه ترتوي من دماء التغلبيين .

^(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٤٥ .

^(٢) المصدر السابق ، ص ١٢٥ .

^(٣) القاموس المحيط ، باب النون ، فصل السين ، ص ١٢١٧ .

^(٤) المعجم الوسيط ، ٣٤٠/١ .

^(٥) نقائض جرير والأخطل ، ص ٦٨ .

^(٦) تُعَلُّ وَتُنْهَلُ : تشربُ والعَلُّ الشَّرْبَةُ الثانية ، والتَّهْلُ الشَّرْبَةُ الأولى .

وقال جرير^(١) :

فَوَارِسَ أَمْثَالَ الْهُذَيْلِ رِمَاحِهِمْ

بِهَا مِنْ دِمَاءِ الْقَوْمِ خَضِبُ عَلَى خَضْبِ .^(٢)

فهؤلاء الفرسان تَخَضَّبَتْ رماحهم بدماء القتلى .

وقد ذكر جريرُ الأَسْلَ^(٣) ، وهي نوع من أنواع الرِّمَاح فقال^(٤) :

فَإِذْ لَمْ تَصْحُ نَشْوَتُكُمْ فَذُوقُوا

سُيُوفَ الْهِنْدِ ، وَالْأَسْلَ الطُّوَالَا .

٤ - ألفاظ متفرقة من جوِّ الحرب في نقض جرير شعر الأخطل :

هذا وقد ذكر جريرُ ألفاظاً متفرقةً من جوِّ الحرب ، منها ما مرَّ بنا خلال ما تقدّم من أبيات ، كألفاظ النَّارِ ، واللَّجَجِ ، والدِّمَاءِ ، والرَّيَّاتِ ، والرَّهَجِ ، والجحفل الجرار ، والطَّعَانِ ، وصلصلة اللُّحْمِ ، وَسَبِي النَّسَاءِ ، وتقسيم الأنفال ، ... ولا أحدٌ حاجةً في تكرار تلك الأبيات التي وردت فيها الألفاظ السابقة ، ففيما قد ذُكِرَ الكِيفَايَةَ .

أما ألفاظ الحرب التي لم يسبق ذكرها فسوف أشير إليها سريعاً ، ومنها : الكنائب ، والتدمير ، والتهديم ، كما في قول جرير^(٥) :

أَلَمْ تَرَ قَيْسًا قَيْسًا عَيْلَانَ دَمَّرَتْ

خَنَازِيرَ بَيْنَ الشَّرْعِيَّةِ وَالِدَّرْبِ .

لَقَدْ أَوْزَدَتْ قَيْسٌ عَلَيْكَ خِيُولَهَا

مَصَاعِيبَ هَدَمْنَ الْحِيَاضَ الَّتِي تَجْبِي .

^(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ١١٣ .

^(٢) الهذيل : هو الهذيل بن زُفَر الكِلَابِيِّ .

^(٣) (الأَسْلُ : نبات ذو أغصان كثيرة شائكة الأطراف) المعجم الوسيط ، ١ / ١٨ . سميت الرماح بهذا

النوع من الشجر لأنها تصنع منه .

^(٤) المصدر السابق ، ص ١٩٧ .

^(٥) المصدر السابق ، ص ١١٣ .

سَتَعْلَمُ مَا يُغْنِي الصَّلِيبُ إِذَا غَدَتْ

كِتَابُ قَيْسٍ كَالْمُعَبَّدَةِ الْجُرْبِ .

فالكثيبي ، والتدمير ، والهدم من أمارات الحروب ، ولهذا لم يهملها جرير بل ذكرها ، وكان في ذكرها تقوية لموقف جرير إزاء الأخطل .

د - أَلْفَاظُ مِنَ الطَّبِيعَةِ فِي نَقْضِ جَرِيرِ شِعْرِ الْأَخْطَلِ :

لم ألاحظ أن جريراً اهتم كثيراً بألفاظ الطبيعة ، وأعني بهذا الاهتمام الغزارة والاتساع ، فلم يكن جرير مهتماً بها اهتمامه بذكر أعضاء الجسم الإنساني ، أو اهتمامه بذكر الأماكن والمواضع ، أو بأدوات الحرب . ((ويسير الشعراء الأمويون على سنة الجاهليين ، فلا يلتفتون كثيراً إلى مناظر الطبيعة إلا في أبيات متناثرة تكون معالم للزمان أو المكان أو مسرحاً لأحداث الفراق والرحلة والصيد أو مظهرًا لبعض الخلجات النفسية للإنسان...)) .^(١)

وهذا هو - في الحقيقة - ما تبين لي عند جرير فهو - كما سوف يأتي - ذكر الزمان ونوع في ذكر ألفاظه في مقدماته الطللية ، وفي فراق أحبته ، وفي بعدهم عنه ، فكان ذلك في مقدمات قصائده ، فإذا انتهت هذه المقدمة رأيناها يتعد عن ذكر ألفاظ الطبيعة - غالباً - ويبدأ رحلة طويلة في ذكر الأماكن والديار والمواضع وأدوات الحروب .

وقد قمت بتقسيم ألفاظ الطبيعة ، كما جاءت في نقض جرير شعر الأخطل ، كما يلي :

١ - الزمن . ٣ - الجبال .

٢ - المطر و السحاب . ٤ - البحور .

١ - الزمن :

تعددت أَلْفَاظُ الزَّمَنِ فِي الْقَصَائِدِ الَّتِي نَقَضَ بِهَا جَرِيرٌ شِعْرَ الْأَخْطَلِ ، فَجَاءَتْ لَفْظَةً (الزَّمان) مَكْرَرَةً مَرَّتَيْنِ فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ ، وَمُعْرَفَةً بِ (ال) ، كَمَا جَاءَتْ لَفْظَةً (زَمَان) مُنْكَرَةً بَيْنَهُمَا فِي نَفْسِ الْبَيْتِ ،

^(١) في الشعر الإسلامي والأموي ، د : عبد القادر القط ، دار النهضة العربية ، بيروت ، لبنان ،

وذلك في قول جرير^(١) :

إِذَا الزَّمَانُ زَمَانٌ لَا يُقَارِبُهُ

هَذَا الزَّمَانُ وَإِذْ فِي وَحْشِهِ غِرْرٌ .^(٢)

وهذا التكرار الملحوظ لهذه اللفظة يكشف لنا الشكوى المريرة التي يعانيتها جرير من تقلبات الزمان ، وما فيه من أهوال ومصائب .

كما لاحظتُ أن جريراً أكثر من ذكر الليل ، ونوع في استخدام ألفاظه المختلفة ، فمرة يستخدم كلمة (ليل) مضافةً إلى ضميرٍ من الضمائر ، كماضافتها إلى ياء المتكلم في قوله^(٣) :

وَكَانَ لَيْلِي ، مِنْ تَذَكُّرِي الْهَوَى

لَيْلٌ بِأَطْوَلَ لَيْلَةٍ ، مَوْصُولٌ .

فليلُ جرير أصبح بسبب الحُبِّ وكأنه موصول لا نهاية له . ونلاحظ التنوع في كلمة (ليل) ، فمرة (ليلي) مضافةً إلى ياء المتكلم ، ومرة (ليلٌ) بالتثنية ، ومرة باستخدام لفظ المفرد (ليلة) ، وهذا يدل على معاناة جرير ، وصراعه المحتدم مع الليل . ولم يكن شاعرنا وحده حين يشكو من الليل ، فبَيْتُهُ السَّابِقُ يُذَكِّرُنَا بقول امرئ القيس :^(٤)

فِيَاكَ مِنْ لَيْلٍ كَأَنَّ نُجُومَهُ

بِكُلِّ مُعَارِ الْفَتْلِ ، شُدَّتْ بِيَذْبُلٍ .^(٥)

(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٦٦ .

(٢) غِرْرٌ : جمع غِرَّة وهي العَفْلَة .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٨١ .

(٤) ديوان امرئ القيس ، ضبطه وصححه الأستاذ / مصطفى عبد الشافي ، دار الكتب العلمية ،

بيروت ، لبنان ، ص ١١٧ .

(٥) مُعَارِ الْفَتْلِ : الحبل المفتول جيداً . يذبل : اسم حبل .

وقد ذكر جريرُ اللَّيْلَ في البيت الذي يلي مباشرةً بيته السابق ، فقال^(١) :

أَيْنَامُ لَيْلِكَ يَا أَمَامَ ، وَلَمْ يَنَمِ

لَيْلُ الْمَطِيِّ ، وَسَيْرُهُنَّ ذَمِيلُ .^(٢)

فنرى جريراً قد أضاف (لَيْل) إلى كاف الخطاب في الشَّطْرِ الأوَّل ، كما أضافها إلى

الاسم الظَّاهِر (المَطِيِّ) ، في الشَّطْرِ الثَّانِي .

إنَّ جريراً يعاتب حبيته كيف لها أن تنام بينما يظل هو ساهراً مع المطايا السَّاهرة .

وقال جرير^(٣) :

لَمَنْ رَاقِبَ الْجَوْزَاءَ أَوْ بَاتَ لَيْلُهُ

طَوِيلٌ ، لِلَّيْلِ بِالْمَجَازَةِ أَطْوَلُ .^(٤)

سَرَى نَحْوَكُمْ لَيْلٌ كَأَنَّ نُجُومَهُ

مَصَائِيحُ فِيهِنَّ الذُّبَالُ الْمُفْتَلُ .^(٥)

إنَّ ليلَ جرير أطول من ليل من قَضَى ليله يراقب نجوم الجوزاء ، وذلك بسبب تفكيره

في الأحبة الذين رحلوا عنه .

ولأنَّ اللَّيْلَ يساوي الهمَّ والغَمَّ والمصائب عند جرير فقد كَتَبَ به عن الجيش الكثير

العمرم ، وكَتَبَ بنجومه عن السِّلَاح الذي يلمع في الظلام .

وقد استخدم جريرُ كلمة (لَيْل) مضافةً إلى هاء العيبة في البيت الأول ، واستخدمها

مُنْكَرَةً في البيت الثاني .

(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٨١ .

(٢) ذَمِيلُ : الذَّمِيلُ ضَرْبٌ مِنَ السَّيْرِ عِنْدَ الْإِبِلِ وَهُوَ السَّيْرُ اللَّيِّنُ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٦٦ .

(٤) المجازة : ما بين ذات العُشْرِ والسَمِينَةِ مِنْ طَرِيقِ الْبَصْرَةِ وَهِيَ مِنْ أَوَّلِ رَمْلِ الدَّهْنَاءِ) ، انظر المصدر

السَّابِقُ ، نفس الصفحة .

(٥) الذُّبَالُ : الْفِتْلُ وَاحِدَتُهَا ذُبَالَةٌ أَيْ فِتْيَلَةٌ .

واستخدم جرير كلمة (الليل) مُعَرَّفَةً بـ (ال) ، وذلك في قوله^(١) :

طَرِبَ الْفُؤَادُ لِذِكْرِهِنَّ وَقَدْ مَضَتْ

بِاللَّيْلِ أَجْنِحَةَ النُّجُومِ فَمَالًا .^(٢)

وقد لاحظتُ أن جريراً لا يذكر الليل - غالباً - إلا في مقدماته الطللية التي يشكو فيها من فراق أحبته ورحيلهم عنه . فهذا الفراق وذاك الرحيل جعلاً من ليّله ليلاً طويلاً مُمِلاًً شديداً السّواد .

وهذا السّواد القائم لليلِ خَدم شاعرنا في أن وَظَفَهُ في مدح هاشم بن حرملة التّوظيف المناسب حين قال^(٣) :

أَوْ هَاشِمٌ يَوْمَ قَادِ الْخَيْلِ مُعْلِمَةٌ

فِي جَحْفَلٍ كَسَوَادِ اللَّيْلِ جَرَّارٍ .

فقد شبّه جرير الجيش الذي قاد فيه هاشمُ الخيلَ بسواد الليل بسبب كثرتة العظيمة التي بدا بسببها وكأنّه الليلُ البهيمُ .

واستخدم جريرُ لفظة (النَّهَار) ، في قوله^(٤) :

وَإِذَا النَّهَارُ تَقَاصَرَتْ أَظْلالُهُ

وَوَنَا الْمَطِيَّ سَامَةً وَكَالَالًا .^(٥)

وقد ورد هذا البيت في مستهلِّ إحدى قصائد جرير عندما تَحَدَّثَ عن الأطلال وذكّرَ أحبته وما كان من أمر رحيلهم ، وهذا يجعلنا نُرجِّحُ أنَّهُموم جرير وأحزانه التي استودعها في الليل قد امتدّت لتشاركه في النَّهار ، فلم يعد النَّهار أحسن حالاً من الليل عنده .

(١) نقائض جرير و الأخطل ، ص ٨٤ .

(٢) أجنحة النجوم : ما جنح منها للسقوط . مالا : أي مال الليل وسقط .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٤٥ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٨٥ .

(٥) وَنَا : سَمَّ .

وقد ذكر جرير (اليوم) مفردًا معرّفًا بـ (ال) ، في قوله^(١) :

أَصَاحَ أَلَيْسَ الْيَوْمَ مُنْتَظِرِي صَحْبِي

نُحَيِّي رُسُومَ الْحَيِّ مِنْ دَارَةِ الْجَابِ .

وَذَكَرَهُ مُنْكَرًا ، في قوله^(٢) :

فَقَدْ أَفْنَيْنَ عُمْرَكَ كُلَّ يَوْمٍ

بِوَعْدٍ مَا جَزَيْنَ بِهِ قِبَالَ .

وَمُعَرَّفًا بِالِإِضَافَةِ ، في قوله^(٣) :

وَلَقَدْ عَطَفْنَ عَلَى حَيْفَةِ عَطْفَةٍ

يَوْمَ الْأَرَكَةِ ، فَاعْتَسَرْنَ أَثَالًا .^(٤)

وَمَجْمُوعًا مِضَافًا ، في قوله^(٥) :

وَلَوْ كُنْتَ مَوْلَى الْعِزِّ أَيَّامَ رَاهِطٍ

شَغَبْتَ ، وَلَكِنْ لَا يَدِي لَكَ بِالشَّعْبِ .

وَمَجْمُوعًا مُنْكَرًا ، في قوله^(٦) :

أَلَا تَجَزَيْنَ وَدِّي فِي لِيَالٍ ،

وَأَيَّامٍ ، وَصَلْتُ بِهِ طَوَالًا .

وقد نوّع جرير في ذكر بعض أجزاء اليوم ، فذكر الصّباح ، والبُكُورَ ، والعُدُوءَ ،

والرّواحَ ، والأصِيلَ ، والعشِيَّةَ .

^(١) نقائض جرير و الأخطل ، ص ١٠٩ .

^(٢) المصدر السابق ، ص ١٩٢ .

^(٣) المصدر السابق ، ص ٩٤ .

^(٤) أثالاً: أثال بن الثّعمان بن مسلمة قتلته بنو قشير بن كعب . انظر المصدر السابق ، نفس الصفحة .

^(٥) المصدر السابق ، ص ١١٣ .

^(٦) المصدر السابق ، ص ١٩٢ .

فَأَمَّا (الصَّبَاح) فَذَكَرَهُ فِي قَوْلِهِ^(١):

مِنَّا فَوَارِسُ ذِي بَهْدَى وَذِي نَجَبٍ

وَأَلْمَعِلْمُونَ صَبَاحًا يَوْمَ ذِي قَارِ .

ولعله ذكر الصَّبَاح لأنَّ المعارك - في الغالب - تبدأ وتستعر صباحًا .

وَأَمَّا الْبُكُورُ ، وَالرَّوَّاحُ ، وَالْعَشِيَّةُ فَقَدْ ذَكَرَهَا جَرِيرٌ فِي مَسْتَهْلٍ قَصِيدَتِهِ الَّتِي

مطلعها^(٢) :

رَحَلَ الْخَلِيْطُ فَرَايَلُوكَ بُكُورًا

وَحَسِبْتَ بَيْنَهُمْ عَلِيْكَ يَسِيْرًا .^(٣)

يَا صَاحِبِيْ دَنَا الرَّوَّاحُ فَسَيِّرًا

لَا كَالْعَشِيَّةِ زَائِرًا وَمَزُورًا .

وَالْبُكُورُ مِنْ (بَكَرَ بُكُورًا : خَرَجَ أَوَّلَ النَّهَارِ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ) .^(٤)

واختيار جرير لهذا الوقت يعكس عدم تَرِيْثِ الرَّاحِلِيْنَ ، وَيَدُلُّ عَلَى اسْتِعْجَالِهِمْ فِي

الرَّحِيلِ ، وَهُوَ الْأَمْرُ الَّذِي لَا يَجْبِذُهُ بَلْ يَرْغَبُ فِي بَقَاءِ أَحْبَبَتِهِ وَلَوْ لِأَقْلِ الْقَلِيلِ مِنَ الْوَقْتِ .

و (الرَّوَّاحُ : الْعَشِيُّ ، أَوْ مِنَ الزَّوَالِ إِلَى اللَّيْلِ) .^(٥)

و (الْعَشِيَّةُ : آخِرُ النَّهَارِ ج : عَشَايَا وَعَشِيَّاتٌ) .^(٦)

ومعنى البيت الثاني أنَّ جريرًا يريد أن يقول : لم أرَ كَالْعَشِيَّةِ زَائِرًا وَمَزُورًا ، فَهِيَ عَشِيَّةٌ

لَا تَمَاتِلُهَا عَشِيَّةٌ .

فقد لاحظنا كيف نوع جرير - وفي مَطْلَعٍ وَاحِدٍ - بين أوقات مختلفة ممَّا يدلُّ على

شعوره بشيء من القلق والتوتر من الزَّمَنِ وما يحمِله له من هموم وغموم .

(١) نقائض جرير و الأخطل ، ص ١٤٣ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١١٩ .

(٣) الخليط : السُّكَّانُ الْمُخَالَطُونَ . الْبَيْنُ : الْفِرَاقُ .

(٤) المعجم الوسيط ، ٦٧/١ .

(٥) القاموس المحيط ، باب الحاء ، فصل الراء ، ص ٢٤٦ .

(٦) القاموس المحيط ، باب الواو و الياء ، فصل العين ، ص ١٣١٨ .

وذكر جرير وقت العُدُوِّ في قوله^(١) :

إِنَّ الْخَلِيْطَ أَجَدُّوا الْبَيْنَ يَوْمَ غَدَوْا

(2) مِنْ دَارَةِ الْجَبَابِ ، إِذْ أَحْدَا جُهُمْ زُمْرٌ .

وَالْعُدُوُّ مِنَ الْعُدَاةِ وَ (الْعُدَاةُ : مَا بَيْنَ الْفَجْرِ وَطُلُوعِ الشَّمْسِ . (ج) غَدَوَاتٌ) .^(٣)

فجرير هنا يشكو من جدية أحبته في الرحيل المبكر .

وذكر جرير وقت (الأصيل) ، في قوله^(٤) :

جَنَحَ الْأَصِيْلُ وَقَدْ قَضَيْنَ بَتَغْلِبِ

(5) نَحْبًا قَضَيْنَ قَضَاءَهُ وَنُذُورًا .

و (الْأَصِيْلُ : الْوَقْتُ حِينَ تَصْفَرُ الشَّمْسُ لِمَغْرِبِهَا (ج) أُصْلٌ ، وَأُصْلَانٌ ، وَأَصَالٌ ، وَأَصَائِلٌ) .^(٦)

والمعنى أَنَّ الْقَيْسِيَّيْنَ قَضَوْا عَلَى التَّغْلِيْبِيِّيْنَ وَوَفَّوْا بِنُذُورِهِمْ ، وَقَدْ اخْتَارَ جَرِيْرٌ وَقْتُ

(الْأَصِيْلِ) لِأَنَّهُ الْوَقْتُ الْمَعْتَادُ - غَالِبًا - لِانْتِهَاءِ الْمَعَارِكِ قَبْلَ حُلُولِ اللَّيْلِ .

وقبل أن أختتم حديثي عن (الزَّمن) في نقض جرير شعراً الأخطل ، فقد بقي لفظتان

من ألفاظ الزَّمن ذكرهما جرير ، وهما : (الدَّهْرُ) ، (الشَّهْرُ) . فقد ذكر لفظة الدَّهْرُ في قوله^(٧) :

لَا يَأْمَنَنَّ قَوِيٌّ نَقْضَ مِرَّتِهِ

(8) إِنِّي أَرَى الدَّهْرَ ذَا نَقْضٍ وَإِمْرَارٍ .

(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٦٨ .

(٢) الأحداج : مراكب النساء . زُمْرٌ : جماعات .

(٣) المعجم الوسيط ، ٢ / ٦٤٦ .

(٤) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٢٤ .

(٥) جَنَحَ : مال . التَّحَبُّ : التَّنَدُّرُ .

(٦) المعجم الوسيط ، ٢٠ / ١ .

(٧) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٤٠ .

(٨) نَقْضٌ : فَكٌ . الْمِرَّةُ : الرَّبْطُ الْوَثِيْقُ .

فهي شكوى مريرة من الدهر وتقلباته .
وفي قوله^(١) :

وَلَقَدْ عَجِبْتُ مِنَ الدَّيَّارِ وَأَهْلِهَا

وَالدَّهْرِ كَيْفَ يُبَدِّلُ الأَبْدَالَ .

إن جريراً يتعجب من الدهر كيف يغيّر الأحوال ويبدّلها .

ونلاحظ أنه استخدم كلمة (الدهر) في البيتين السابقين مفردة ومعرفّةً بـ (ال) .

وأما كلمة (الشَّهْرُ)، فقد استخدمها مجموعة جمع قلة على وزن (أفعل) ،
في قوله^(٢) :

أَجْهَضْنَ مُعْجَلَةً لِسِتَّةِ أَشْهُرٍ

وَحٰذِينَ بَعْدَ نِعَالِهِنَّ نِعَالًا .^(٣)

* * *

٢- المَطْرُ والسَّحَابُ :

ومن ألفاظ الطبيعة التي استخدمها جرير في قصائده التي نقضَ بها قصائد

للأخطل ، لفظة (المطر) .

وذلك في قوله^(٤) :

قُلْ لِلدَّيَّارِ : سَقَى أَطْلَالِكَ المَطْرُ ،

قَدْ هَجَّتْ شَوْقًا وَمَاذَا تَنْفَعُ الذِّكْرُ ؟ .

فالمطر من أهم مقومات الحياة ، ينعم به الإنسان ، ويستبشر ، و تحيا به الأرض بعد

موتها ، فقد قال تعالى : [وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا المَاءَ اهْتَرَّتْ

وَرَبَّتْ وَأُنْبِتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ] {الحج:٥} ،

(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ٨٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٨٦ .

(٣) الإجهاض : إلقاؤها أولادها قبل التمام من التَّعَبِ . انظر المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٦٦ .

ولهذا دعا جرير بأن تسقى أطلال ديار أحبته بالمطر.

وقد نوّع جرير فذكر ألفاظاً مختلفة لهذا المطر منها : (الْمُحْتَفِل) و (الْهَاطِل) ،

و (الْمُرْتَعِن) ، و (الْوَابِل) ، وذلك في قوله بعد البيت السابق^(١) :

أُسْقِيَتْ مُحْتَفِلًا يَسْتَنُّ وَأَبْلُهُ

أَوْ هَاطِلًا مُرْتَعِنًا صَوْبُهُ دِرْرٌ.^(٢)

فقد ذكر جرير المطر بأسماء مختلفة ، وأوصاف متنوعة وذلك لأهميته .

وفي بيت آخر قال جرير^(٣) :

فَسَقَى دِيَارِكِ حَيْثُ كُنْتُ مُجَلْجِلٌ

هَزَجٌ ، وَمِنْ غَرِّ السَّحَابِ هَطُولٌ .

فنرى جريراً في هذا البيت قد نوّع في ذكر أنواع المطر فذكر المطرَ الْمُجَلْجِلَ وهو الذي

فيه صوت الرعد ، وذكر الهَزَجَ وهو المطر المصوّت ، وذكر المطرَ الهطول وهو الشّدِيد

السّيولة ، كما ذكرَ السَّحَابَ وهي من المَبَشَّرَاتِ بهطول المطر .

ونلاحظ أن جريراً استخدم في البيت الذي سبق هذا البيت لفظة (هَاطِل) ، وهي من

المشتقات (اسم فاعل) ، بينما استخدم في هذا البيت لفظة (هَطُول) ، وهي صيغة من

صيغ المبالغة على وزن (فَعُول) ، وهذا يدلُّ على سِعةِ الاشتقاق عنده . ومن ذلك أيضاً

كلمة : (هَزَج) ، وهي صيغة مبالغة - أيضاً - على وزن (فَعِل) .

وذكر جريراً في بيت آخر (الرَّبَاب) ، وهي لفظة من الألفاظ الدالة على السَّحَاب ،

و (الرَّبَابُ : سحابٌ رقيقٌ دون السَّحَابِ الكثيف)^(٤) ،

(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٦٦ .

(٢) الهاطل : الصَّبَاب . الوابل : العظيم القَطْر . المُرْتَعِنُ : المُتَسَاقِطُ البطيء

الدَّرْرُ : الدفعات من المطر .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٨١ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٨٠ .

فقال (١) :

عَفَتِ الْجَنُوبُ مَعَ الشَّمَالِ رُسُومَهَا

وَصَبًا مُزْمَزِمَةً الرَّبَابِ عَجُولٌ . (2)

* * *

٣- الجبال :

قال جرير (٣) :

وَلَوْ أَنَّ خِنْدِفَ زَا حَمَتِ أَرْكَانَهَا

جَبَالًا أَصَمَّ مِنَ الْجِبَالِ لَزَالًا .

فالجبال - يعلم جرير - أنها رمز للثبات ، والقوة ، ولهذا فلا نستغرب إكثاره من ذكرها في نقضه شعر الأخطل ، فالشاعر الهجاء أو المفتخر يحتاج كثيراً إلى أن يُدعم فخره وهجاءه بذكر الجبال رمز الأنفة والعلو والعزة والجسارة .

وقال جرير (٤) :

إِنِّي إِذَا مُضِرُّ عَلَيَّ تَحَدَّبْتُ

لَأَقِيَتْ مُطَّلَعِ الْجِبَالِ وَعُورًا . (5)

والمعنى : إذا لقيت المساندة والتأييد من مُضِرِّ فبعد ذلك لا يهمني شيء ، وسوف يمكنني أن أرقى أشد الجبال وعورة .

وقد استخدم جرير لفظة (الجبال) في سياق الفخر فكانت في مكانها المناسب .

* * *

(١) نقائض جرير و الأخطل ، ص ١٨٠ .

(٢) الصبأ : ريح تهب من الشمال .

(٣) المصدر السابق ، ص ٩٢ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٢٣ .

(٥) تَحَدَّبْتُ : تَعَطَّفْتُ .

٤ - البُحور :

قال جرير^(١) :

مَدَّتْ بُحُورُهُمْ فَلَسْتُ بِقَاطِعِ

بَحْرًا يَمُدُّ إِلَى الْبُحُورِ بُحُورًا .

ولفظة (البحر) من الألفاظ التي تسعف الشاعر في فخره وهجائه ، ولذلك لم يغفلها جرير بل ذكرها في بيته السابق أربع مرّات في صُورٍ مختلفة ، فالبحر رمزٌ للعطاء ، والسّعة والقوّة ، والعظّمة والغزارة والعمق .

هذا وقد ذكر جريرُ ألفاظاً من ألفاظ الطبيعة أكتفي بذكرها إجمالاً دون تفصيل رغبةً في عدم الإطالة ، وهي السّماء والأرض ، والشّمس والقمر والنجوم ، والآل (وهو السّراب) ، والفلاة ، والوادي ، والطير ، والماء ، والجِمال ، والسّدْر ، والشّيح .

* * *

(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٢٣ .

المَبْحَثُ الثَّانِي

بِنَاءُ الْقَصِيدَةِ

قبل أن أتناول بناء القصيدة عند جرير يحسنُ بي أن أقف مع قصيدة الأخطل (خَفَّ الْقَطِينُ) والتي نقضها جريرُ بقصيدته المعروفة : (قُلْ لِلدِّيَارِ سَقَى أَطْلَالِكِ الْمَطَرُ) ، وذلك من أجل أن نتبين كيف بنى جريرُ نقيضته ، وهل استفادَ من قصيدة خصمه ؟ وما المعاني التي تعامل معها ووظفها في مصلحته ، وساعدته في ذلك البناء ، وكانت بمثابة المحفز والدافع والانطلاقة ؟ لقد نظم الأخطلُ قصيدته (خَفَّ الْقَطِينُ) في (خمسةٍ وثمانين بيتاً) ممَّا يعني أنَّه كان يملك نفساً شعرياً طويلاً ، وقريحةً قويَّةً وإلاً لما صمد في وجه خصمه العنيد جرير ، ولما تمكَّنَ من أن ينظم قصيدةً في هذا الطول .

وقد بدأ الأخطلُ تلك القصيدة بما عهدَ عن الشعراء الجاهليين من ذِكرٍ للأطال والديار والطعائن ، كما ذَكَرَ رأيًا له في النساء لم يكن المقام مواتياً لذكره فقال ^(١) :

يَا قَاتِلَ اللَّهِ وَصَلَ الْعَانِيَاتِ إِذَا

أَيَقَنَّ أَنَّكَ مِمَّنْ قَدْ زَهَا الْكِبَرُ .

أَعْرَضْنَ لَمَّا حَنَى قَوْسِي مُوتَّرُهَا

وَأَبْيَضَ بَعْدَ سَوَادِ اللَّمَّةِ الشَّعْرُ .

مَا يَرْعَوِينَ إِلَى دَاعٍ لِحَاجَتِهِ

وَلَا لَهْنٍ إِلَى ذِي شَيْبَةٍ وَطَرُ .

ويبدو أنَّه كان فوضوياً ^(٢) في قصيدته يهيمُ على وجهه يميناً وشمالاً ،

^(١) ديوان الأخطل ، ص ٨٩ .

^(٢) وليس أدل على تلك الفوضى من ذلك التخلُّص الواهي الذي أخرج به الأخطل نفسه من

وصف الطعائن إلى مدح عبد الملك بن مروان حيث قال :

وَقَعْنَ أَصْلًا ، وَعُجْنَا مِنْ نَجَائِنَا وَقَدْ تُحِينُ مِنْ ذِي حَاجَةٍ سَفْرُ .

انظر ديوان الأخطل ، ص ٩٠ . إضافةً إلى تخبطه الملحوظ في ذِكرِ الموضوعات التي اشتملت

عليها القصيدة .

ويركب كلَّ مرَّكبٍ في سبيل الوصول إلى أن يتزلّف بالمديح لعبد الملك بن مروان ، مستغلاً الظروف التي يمرُّ بها جرير في علاقته بعبد الملك وفتور تلك العلاقة ، ومقتنصاً انصراف الخليفة عنه ، فقد ((كان عبد الملك واجداً على جرير لأنَّهُ لم يكن من أصحاب دعوتهم ، فلمَّا سمعه يُنشدُ : ((أتصحو أم فؤادك غيرُ صاحٍ)) شتمه وقال له : ((بل فؤادك يا بن الفاعلة)) وظلَّ غاضباً عليه حتى وصل جرير إلى قوله : ((ألسنُّم خيرَ من ركب المطايا ؟)) فسُرِّي عن عبد الملك ، وقال : ((مَنْ مَدَحَنَا فَلَيْمَدَحَنَا بمثل هذا أو يسكت))^(١) .

ولا تُنكر أن هذا من الدهاء الذي عُرف به الأخطل والذي يُشاركه فيه الكثير من الشعراء حين يتَّجه كلُّ شاعرٍ إلى أن يستغل كلَّ ثغرة في الخصم لينقضَّ عليه من خلالها ، غير أن هذا الدهاء امتزج بخبث السريرة وسواد النية والطويبة عند الأخطل حين ارتكب الكثير من الأمور الممتنعة في سبيل مدح الخليفة ، فإذا قلنا أنَّه لا يُستغرب من الأخطل - وهو الشاعر النَّصراني - ألا يُقيم وزناً للمحرّمات المنهي عنها في الإسلام ، كشرب الخمر ، وكوصفه لأثر رحيل أحبته عنه بذلك الأثر الذي يُعانيه من صرَعته الخمر ، وتسربت إلى كل عرقٍ في جسده لتصيبه بالرَّعدة والفتور ، فإن الغرابة كل الغرابة أنَّه لم يتحرج من ذكر كل ذلك أمام الخليفة المسلم ، وفي مجلس الخلافة المهيب دائماً ، وفي حضرة الوجهاء من سَرَاة القوم وعليتهم ، والأغرب من ذلك أن عبد الملك ابن مروان لم يعترض عليه ، ولا أعلم من خلال قراءتي حول تلك القصيدة أن أحداً من الحاضرين قد اعترض أو أنكر علانيةً .

(١) انظر ديوان جرير ، تحقيق وشرح كرم البستاني ، دار صادر ودار بيروت ، بيروت ،

لبنان ، ١٣٧٩ هـ ص ٧٦ .

يقول الأخطل (١) :

كَأَنِّي شَارِبٌ ، يَوْمَ اسْتَبَدَّ بِهِمْ

مِنْ قَرْقَفٍ ضُمَّنْتَهَا حِمصُ أَوْ جَدْرُ (٢) .

جَادَتْ بِهَا مِنْ ذَوَاتِ الْقَارِ مُتْرَعَةٌ

كَلْفَاءٍ يَنْحَتُّ عَنْ خُرْطُومِهَا الْمَدْرُ (٣) .

لَذُّ أَصَابَتْ حُمَيَّاهَا مَقَاتِلُهُ

فَلَمْ تَكْذُبْ تَنْجَلِي عَنْ قَلْبِهِ الْخُمْرُ (٤) .

كَأَنِّي ذَاكَ ، أَوْ ذُو لَوْعَةٍ خَبَلَتْ

أَوْ صَالَه ، أَوْ أَصَابَتْ قَلْبَهُ النُّشْرُ (٥) .

وإذا قال قائلٌ إنَّ الخليفة عبد الملك بن مروان ربَّما أنَّهُ

قد اعترضَ على الأخطل في ذكره للخمرة ونشوتها ،

(١) ديوان الأخطل ، ص ٨٨ ، ٨٩ .

(٢) استَبَدَّ بِهِمْ : أَكْرَهُوا عَلَى الرَّحِيلِ .

الْقَرْقَفُ : الخمرة التي يرتعد منها شاربها .

حمص : مدينة بين دمشق و حلب .

جَدْرُ : قرية بين حمص والسَّلمية .

(٣) ذوات القار : الخوابي المطليَّة بالقار أو الزفت .

مترعة : ممتلئة .

الكلفاء : الخابية التي أصابها كلفٌ لِقَدَمِهَا .

(٤) لَذُّ : هو المرء الذي يلذ حديثه على الشراب .

حُمَيَّاهَا : حدَّثُهَا .

الْخُمْرُ : جمع خمرة وهي الصداع الذي يكون من تأثير الخمرة في الرأس .

(٥) اللوعة : الوجع الشديد يكون في البدن .

النُّشْرُ : جمع نَشْرَةٍ وهي الرقية أو التعويذة التي يعالج بها المريض أو الجنون .

ولتجاوزه لآداب المجلس ، فلماذا لم ينقل لنا التاريخ ذلك
كما نقلَ لنا اعتراض عبد الملك ، بل وشتمه لجرير حين قال ^(١) :

أَتَصْحُوبُ بَلْ فُؤَادُكَ غَيْرُ صَاحِ

عَشِيَّةَ هَمَّ صَحْبُكَ بِالرَّوَّاحِ .

كما سبق وذكَّرتُ ذلك قريباً!؟

ومن أجل مدح الخليفة نفث الأخطل ما فيه من حقد على الإسلام والمسلمين ،
ففي خطابه للأمويين أخذ يتبجح ويتشدد أمامهم بأنَّه دافع
عنهم ، وأفحم الأنصار - ﷺ - فقال ^(٢) :

بَنِي أُمَيَّةَ ، قَدْ نَاضَلْتُ دُونَكُمْ

أَبْنَاءَ قَوْمٍ ، هُمْ آوُوا وَهُمْ نَصَرُوا .

والأخطل وبطريقة غير مباشرة نراه ينقض قصيدة لعبد الله بن رواحة
الأنصاري الخزرجي في مدح النَّبِيِّ - ﷺ - كما أشرتُ إلى ذلك في
التَّمْهيد في مستهل هذه الرسالة .

والأخطل حين يمدح الأمويين فهو لم يفعل ذلك حباً فيهم وإنَّما
ليدسَّ السُّمَّ في العسل ، ومن أجل أن يظفر بحمايتهم وبعطاياهم .

(١) ديوان جرير ، ص ٧٠ .

(٢) ديوان الأخطل ، ص ٩٢ .

يقول الأخطل (١) :

بَنِي أُمَيَّةَ نُعْمَاكُمْ مُجَلَّلَةً

تَمَّتْ فَلَا مِنَّةَ فِيهَا وَلَا كَدْرُ .

فليتَ الأمويين لم يُكرموا مَنْ أهانَ الأنصارَ وهجَاهم ، وهم الَّذِينَ حَثَّ النبي - ﷺ - المسلمين على حُبِّهم ، وليتهم لم يتركوا لأمثال الأخطل مجالاً ليمدحهم على حساب الإسلام ، وعلى حساب الأنصار حتَّى وإن كان بينهم وبين الأنصار من الخصومة ما كان ، فقد قال النَّبِيُّ - ﷺ - : ((المسلمون تتكافأ دماؤهم . وهم يدُّ على مَنْ سواهم . يسعى بذمتهم أدناهم ، ويردُّ على أقصاهم)) (٢) .

وامتدَّ حُبُّ الأخطل في أن يُذكرَ الأمويين بتلك الصِّراعات التي قامت بين المسلمين ، ومن ذلك قوله (٣) :

حَتَّى يَكُونَ لَهُمْ بِالطَّفِّ مَلْحَمَةٌ

وَبِالثَّوِيَّةِ لَمْ يُنْبِضْ بِهَا وَتَرُ (٤) .

إنَّه يُعْرَضُ بمقتل الحسين بن علي - رضي الله تعالى عنه - في الطَّفِّ وبتلك الواقعة القويَّة التي اشتدَّ فيها القتالُ وبلغ الالتحام بين الفريقين حدًّا لم يعد الرَّمْيُ بالسِّهامِ ممكناً ، ولهذا لم يُسَمَّعْ لأوتار الأقواس صوتٌ وإنما كان القتالُ بالسُّيوفِ وبالقنا . ويستمر الأخطل في خبثه ونفث سمومه وذلك حينما عرَّض - كذلك - بعبد الله بن الزبير بن العوام - رضي الله عنهما - في معرض مدحه لعبد الملك بن مروان ، وذلك ليزيد النَّارَ إشعالاً ، ويملاً القلوب أحقاداً .

(١) ديوان الأخطل ، ص ٩٢ .

(٢) انظر صحيح سنن ابن ماجه ، ٢ / ١٠٥ ، ١٠٦ والحديث عن ابن عباس - رضي الله عنهما - .

(٣) ديوان الأخطل ، ص ٩١ .

(٤) الطَّفِّ : ما حول الكوفة وحول القادسيَّة ، وهو المكان الذي قُتِلَ فيه الحسين بن علي - رضي الله عنهما - .

الثَّوِيَّةُ : موضع بالكوفة .

قال الأخطل (١) :

وَلَمْ يَنْزَلْ بِكَ وَاشْيِهِمْ وَمَكْرُهُمْ

حَتَّى أَشَاطُوا بِغَيْبِ لَحْمٍ مَنْ يَسْرُوا (٢) .

في هذا البيت يكشف لنا الأخطل عن حقيقة مدحه لعبد الملك بن مروان خاصة وللأمويين عامة ، فهو في الحقيقة لم يمدحهم حباً فيهم ، أو وفاءً لهم وإنما كان مدحه يصب في مصلحته ومصلحة التغلبيين والدفاع عنهم ، وذلك من خلال رسالة أراد أن يوصلها إلى عبد الملك بن مروان عبر هذا البيت حيث زعم أن أعداء التغلبيين - وعلى رأسهم عبد الله بن الزبير بن العوام - رضي الله عنهما - مستمرين في الوشاية بهم ، والمكر ضدهم عند الخليفة إلى حد أنهم مزقوا لحومهم وأجسادهم كما يمزق لحم الناقة التي يذبحها من يلعب الميسر ، ويُقسَّم لحمها بين اللاعبين . وهي صورة بشعة أراد بها الأخطل أن يُبَحِّح صورة عبد الله بن الزبير وقومه عند الخليفة ، ويزيد من الفرقة بينهم ليخلو له الجو ، وتستتب له الأمور . والأخطل لم يترك وسيلةً توصله إلى مدح عبد الملك بن مروان إلا تشبث بها ، ولم يدع مركباً إلا ركبه في سبيل أن يتبوأ منزلة عند الخليفة ، فإلى جانب كل ما تقدّم فإنه أشار في قصيدته إلى صور شتى من صور الصّراع مع الآخر ، فقد هجا زُفراً بن الحارث ، كبير زعماء القيسيين .

قال الأخطل (٣) :

بَنِي أُمَيَّةَ ، إِنِّي نَاصِحٌ لَكُمْ

فَلَا يَبِينَنَّ فِيكُمْ آمِنًا زُفْرُ .

(١) ديوان الأخطل ، ص ٩١ .

(٢) أشاطوا : قتلوا وفرقوا وأهلكوا ، يقال : أشاط اللحم فرقه .

بغيب : ولم يشعروا .

لحم من يسروا : لحم من جزروا ، والمقصود : مزقوا لحومهم كالناقة التي يقطعها لاعبو الميسر ويقسمون لحمها فيما بينهم .

(٣) المصدر السابق ، ص ٩٢ .

إنَّه يُظْهَرُ فِي هَذَا الْبَيْتِ أَنَّهُ حَرِيصٌ كُلِّ الْحَرِصِ عَلَى الْأُمُويِّينَ ، وَأَنَّهُ لَا يَبْخُلُ عَلَيْهِمُ بِالنَّصِيحَةِ خَاصَّةً فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِتَحْذِيرِهِمْ مِنْ تَقْرِيْبِ زُفْرِ وَالْإِطْمِنَانِ إِلَيْهِ ، فَهُوَ - كَمَا زَعَمَ الْأَخْطَلُ - عَدُوٌّ لِلْأُمُويِّينَ ؛ يَنْطَوِي عَلَى شَرِّ مُسْتَطِيرٍ ، وَخَطَرِ عَظِيمٍ . وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِكَسْبِ مَنْ وَرَاءَ تِلْكَ النَّصِيحَةِ قُرْبًا مِنَ الْخَلِيفَةِ ، وَمَحَبَّةً عِنْدَ الْأُمُويِّينَ .

وَفِي نَفْسِ السِّيَاقِ تَهَجَّمُ الْأَخْطَلُ عَلَى قَوْمِ جَرِيرٍ وَعَلَى كُلِّ حَلِيفٍ لَهُمْ فَهَجَاهُمْ وَذَلِكَ فِي ثَمَانِيَةِ وَعِشْرِينَ بَيْتًا مِنْ قَصِيدَتِهِ ، فَوَصَفَهُمُ بِالضَّلَالِ وَالْخُرُوجِ عَنِ الدِّينِ ، وَأَنَّهُمْ لَا يَطِيقُونَ قِتَالَاً ، وَلَا يَحْتَمِلُونَ مَشَقَّةً ، وَأَنَّ دِيَارَهُمْ مَجْدُبَةٌ لَا خَيْرَ فِيهَا ، وَأَنَّهُمْ لَيْسُوا أَصْحَابَ أَصْلٍ وَلَا نَسَبٍ ، وَأَنَّ مَكَانَهُمُ الذَّيْلُ لِأَنَّهُمْ أَذْلَاءُ ، كَمَا وَصَمَهُمُ بِالْأَخْلَاقِ السَّيِّئَةِ وَبِالسَّفَاهَةِ ، وَارْتِكَابِ الْفَوَاحِشِ ، وَبِالْبُخْلِ ... إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ التَّقَائِصِ الَّتِي رَمَى بِهَا الْقَوْمَ عَنِ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ .

كُلُّ ذَلِكَ الْهَجَاءِ حَرِصٌ عَلَيْهِ الْأَخْطَلُ مِنْ أَجْلِ أَنْ تَكُونَ لَهُ قَدَمٌ رَاسِخَةٌ عِنْدَ الْخَلِيفَةِ .

أَمَّا الْجَانِبُ الْآخَرُ وَهُوَ الْفَخْرُ الَّذِي لَمْ تَخْلُ مِنْهُ الْقَصِيدَةُ فَقَدْ كَانَ كَذَلِكَ مُنْصَبًّا نَحْوِ نَفْسِ الْمَدْفِ الَّذِي يَرْمِي إِلَيْهِ الْأَخْطَلُ ، فَقَدْ رَأَيْتُ أَنَّهُ يَفْتَخِرُ بِمَنَاصِرَتِهِ الْأُمُويِّينَ ، وَبِوَقُوفِ التَّغْلِبِيِّينَ صَفًّا وَاحِدًا مَعَهُمْ وَذَلِكَ مِنْ خِلَالِ إِبْرَازِهِ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمَوَاقِفِ الَّتِي وَقَفَهَا قَوْمُهُ مَعَ الْأُمُويِّينَ ، فَذَكَرَ مِنْهَا مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ التَّغْلِبِيِّينَ مَعَ عَمِيرِ بْنِ الْحُبَابِ فَهُمْ الَّذِينَ قَتَلُوهُ وَقَطَعُوا رَأْسَهُ ، وَبَعَثُوا بِهِ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ وَفِي ذَلِكَ قَالَ الْأَخْطَلُ^(١) :

وَقَدْ نَصِرْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِنَا

لَمَّا أَنَاكَ بِبَطْنِ الْعُوْطَةِ الْخَبْرُ^(٢) .

(١) ديوان الأخطل ، ص ٩٣ .

(٢) العوطة : مكان يحيط بدمشق فيه ماء كثير .

يَعْرِفُونَكَ رَأْسَ ابْنِ الْحُبَابِ ، وَقَدْ

أَضْحَى ، وَلِلْسَيْفِ فِي خَيْشُومِهِ أَثْرٌ ^(١) .

ويفتخر الأخطل بقتل التعلبيين للحارث بن عوف ، وهو رجلٌ من

بنِي عامر بن صعصعة، فقال ^(٢) :

وَالْحَارِثُ بْنُ أَبِي عَوْفٍ لِعَبْنِ بِهِ

حَتَّى تَعَاوَرَهُ الْعِقْبَانُ وَالسُّبْرُ ^(٣) .

ويبقى أن أشير أخيراً إلى أن الأخطل إضافةً إلى كل الوسائل التي تقدّم ذكرها ،

والتي استخدمها كأدواتٍ للوصول إلى مدح الخليفة فإنّه أتكاً بشكلٍ واضح

على مُعلِّقَةِ النَّابِغَةِ الذُّبْيَانِي التي مدح بها الثُّعْمَان فاستفاد منها وَسَرَقَ ،

وجعلها أمامه وهو ينظم قصيدته في مدح عبد الملك لِعَلِمِهِ أَنَّهَا قَصِيدَةٌ قَوِيَّةٌ

تَمَكَّنَ من خلالها النَّابِغَةُ من الظَّفَر بما أراد ، فَتَهَلَّ من معينها ، وغرف من

بحرها ، واقتنص من لآئها ما رأيتُهُ واضحاً وضوح الشمس في رابعة النهار .

ولست هنا بصدد المقارنة بين القصيدتين ولكنني أكتفي بإشارة عابرة

إلى بيتين حاكي فيهما الأخطل النَّابِغَةَ ، وهما قوله ^(٤) :

وَمَا الْفِرَاتُ إِذَا جَاشَتْ حَوَالِبُهُ

فِي حَافَتَيْهِ وَفِي أَوْسَاطِهِ الْعُشْرُ ^(٥) .

^(١) ابن الحُبَاب : عُمير بن الحُبَاب قَتَلْتُهُ تَغْلِب .

الخيشوم : أعلى الأنف .

^(٢) ديوان الأخطل ، ص ٩٣ .

^(٣) تعاوره : أي تتداول طعنه ونهشه .

السُّبْرُ : طائر يشبه الصقر .

^(٤) المصدر السابق ، ص ٩٠ ، ٩١ .

^(٥) جاشت : اضطربت .

حوالبه : أمواجه .

العُشْرُ : من كبار شجر العضاة .

يَوْمًا ، بِأَجْوَدَ مِنْهُ ، حِينَ تَسْأَلُهُ

وَلَا بِأَجْهَرَ مِنْهُ ، حِينَ يُجْتَهَرُ .

فهما بيتان يذهبان بنا مباشرةً إلى بيتي التابغة اللذين قال فيهما (١) :

فَمَا الْفِرَاتُ وَإِنْ جَاشَتْ غَوَارِبُهُ

تَرْمِي أَوَاذِيَهُ الْعَبْرِينَ بِالزَّبْدِ (٢) .

يَوْمًا بِأَجْوَدَ مِنْهُ ، سَيْبَ نَافِلَةٍ

وَلَا يَحُولُ عَطَاءُ الْيَوْمِ دُونَ غَدِ .

والتأثر بقصيدة التابغة والإفادة منها ، والسَّرقة أمرٌ واضحٌ في قصيدة

الأخطل ، والمعاني والكلمات التي أخذها من قصيدة التابغة متناثرة وواضحة في أبيات قصيدته (خَفَّ الْقَطِينُ) .

*** **

وبعد هذا الوصف الدقيق لقصيدة الأخطل أعودُ إلى جريرٍ وإلى قصيدته (قل لِلدَّيَّارِ سَقَى أَطْلَالِكِ الْمَطْرُ) ، والتي نقض بها قصيدة الأخطل (خَفَّ الْقَطِينُ) ، وسبب اختياري لهذه القصيدة هو أنني استفدتُ منها عددًا كبيرًا من الأبيات التي خدمتني في الباب الأول من هذا البحث ، فكانت بمثابة الينبوع الثرَّ الغزيرِ ، فقد كان العديد من أبياتها مجالاً خصبًا للتعليق والبحث والدراسة التي عُنِيَتْ بِهَا مباحثُ الباب الأوَّل . كما أنَّ هذه القصيدة كانت نقيضةً لقصيدةٍ من أهم قصائد الأخطل ، ومن أجودها ومن أطولها حيث ركَّز الأخطل فيها جُهدَهُ وموهبته الشعريَّة ، وكانت مستودعًا لمعانيه الغزيرة ،

(١) شرح ديوان التابغة الذبياني ، سيف الدِّين الكاتب ، أحمد عصام الكاتب ، دار

مكتبة الحياة ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٩ م ، ص ٢٥ .

(٢) غواربه : جمع غارب وهو الموج المرتفع العالي .

الأواذي : الأمواج .

العبران : الشَّطَّان والناحيتان .

وأساليبه الرصينة لِتَخْرُجَ فِي أَجْمَلِ حُلَّةٍ لِأَسِيْمَا أَنَّهَا كَانَتْ فِي مَدْحِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ ، وَفِي التَّقَرُّبِ إِلَى الْأُمَوِيِّينَ ، وَلَمْ يَعْكَرْ صَفْوَهَا - مِنَ النَّاحِيَةِ الْبِنَائِيَّةِ وَالْفَنِّيَّةِ - سِوَى مَا أَشْرَتْ إِلَيْهِ سَابِقًا مِنْ فَوْضَى ، وَعَدَمِ تَرْتِيبِ .

وَقَدْ رَأَيْتُ مِنْ خِلَالِ قِرَاءَتِي لِنَقَائِضِ جَرِيرِ وَالْأَخْطَلِ أَنَّ الْقِصَائِدَ الَّتِي قَالَهَا جَرِيرٌ لِيَنْقُضَ بِهَا قِصَائِدَ لِلْأَخْطَلِ هِيَ - فِي الْغَالِبِ - أَطْوَلُ مِنْ قِصَائِدِ الْأَخْطَلِ ، فَإِذَا كَانَتْ قِصِيدَةً (خَفَّ الْقَطِيبُ) أَطْوَلُ مِنْ قِصِيدَةٍ (قَلَّ لِلدِّيَارِ سَقَى أَطْلَالِكَ الْمَطْرُ) فَهَذَا لَا يَعْنِي أَنَّ الْأَخْطَلِ أَطْوَلُ نَفْسًا شِعْرِيًّا مِنْ جَرِيرٍ فَكِلَاهُمَا لَهُ مَنْزِلَتُهُ الشَّعْرِيَّةُ الْكَبِيرَةُ الَّتِي لَا يُمْكِنُ لِأَحَدٍ أَنْكَارَهَا .

وَمِنْ هُنَا أُبَيِّنُ مَا وَقَفْتُ عَلَيْهِ مِنْ حَيْثُ طَوَّلَ الْقِصَائِدَ وَقَصَّرَهَا لِكِلَا الشَّاعِرَيْنِ فِي مَوْضُوعِ النَّقَائِضِ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَهُمَا حَيْثُ رَأَيْتُ أَنَّ جَرِيرًا رَبَّمَا نَقَضَ فِي مَنَاسِبَةٍ مِنَ الْمَنَاسِبَاتِ قِصِيدَةً لِلْأَخْطَلِ بِقِصِيدَةٍ أَكْثَرَ مِنْهَا أَبْيَاتًا ؛ كَمَا فِي قِصِيدَتِهِ الَّتِي قَالَ فِي مَطْلَعِهَا ^(١) :

وَدَّعْ أَمَامَةَ حَانَ مِنْكَ رَحِيلُ

إِنَّ الْوَدَاعَ مِنَ الْحَبِيبِ قَلِيلُ .

فَقَدْ وَقَعَتْ هَذِهِ النَّقِیْضَةُ - كَمَا جَاءَتْ فِي نَقَائِضِ جَرِيرِ وَالْأَخْطَلِ - فِي سَبْعَةٍ وَخَمْسِينَ بَيْتًا ، بَيْنَمَا كَانَتْ الْقِصِيدَةُ الَّتِي نَقَضَهَا لِلْأَخْطَلِ فِي أَحَدِ عَشْرِ بَيْتَاتٍ فَقَطْ ، وَهِيَ قِصِيدَةُ الْأَخْطَلِ الَّتِي مَطْلَعُهَا ^(٢) :

بُسِّ الْفَوَارِسُ عِنْدَ مُخْتَلَفِ الْقَنَا

عِدْلًا الْجِمَارِ مُحَارِبٌ وَسُلُولُ ^(٣) .

^(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٧٨ ، وقد وقعت هذه القصيدة في ثمانية وستين بيتًا في الديوان ، انظر ديوان جرير ، الصفحات : ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ .

^(٢) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٧٧ ، وجاءت هذه القصيدة في الديوان في ثلاثة عشر بيتًا . انظر ديوان الأخطل ، ص ٢١٧ ، ٢١٨ .

^(٣) محاربٌ وسلولٌ : محارب بن خصفة بن قيس بن عيلان ، وسلول بنت مرة بن ذهل بن شيبان . انظر نقائض جرير والأخطل ، ص ١٧٧ .

وربما نقض جرير قصيدة للأخطل بقصيدة أقل منها أبياتاً
كما في قصيدته التي مطلعها (١) :

أَجِدْكَ لَا يَصْحُو الْفُؤَادُ الْمَعْلَلُ

وَقَدْ لَاحَ مِنْ شَيْبِ عِدَارٍ وَمِسْحَلٍ (٢) .

فقد وقعت هذه القصيدة في اثنين وعشرين بيتاً ، بينما وقعت
قصيدة الأخطل في تسعة وستين بيتاً كما جاء في نقائض جرير والأخطل ،
وهو تفاوت كبير في عدد أبيات القصيدتين (٣) .

وقد نظم جرير قصيدته (قل للديار) ، وجعل منها نقيضةً لقصيدة الأخطل
(خف القطين) لسببين مهمين ، السبب الأول : هو الدافع الديني والغيرة
الإيمانية التي تُرخص الغالي والتفيس في سبيل الدفاع عن الإسلام .

(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ٦٤ .

(٢) العِدَار : ما سال على الخدين من اللحية ، والمسحلان فوق ذلك وهما جانبا اللحية .
انظر المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٣) قال الأخطل في مطلعها :

عَفَا وَأَسِطُّ مِنْ آلِ رَضْوَى فَنَبْتُ
فَمُجْتَمِعُ الْحُرَيْنِ فَالصَّبْرُ أَجْمَلُ .

انظر المصدر السابق ، ص ٤٨ ، ورضوى : امرأة . والحُرَّان : واديان .

وقد جاءت هذه القصيدة في ديوان الأخطل في واحدٍ وسبعين بيتاً . انظر ديوان الأخطل ،

ص ٢٠٤ إلى ص ٢١٠ .

فها هي تلك الغيرة الإيمانية تتحرك بقوة عند جرير كما رأيناها تتحرك عند غيره من المسلمين فقد خرج علينا كعادته عفيفاً في غزله عندما رأى حدود الله تُنتهك من قبل الأخطل الذي هجا الأنصار - ﷺ - وانتقص من قدرهم وحاول أن يثير الفتنة بين المسلمين من خلال التذكير بما نزع الشيطان بينهم ، ومن خلال تضخيم الأخطاء البسيطة ، فكان جرير مع كل ذلك منضبطاً في رده على الأخطل وهو السلوك الذي ينبغي أن يكون عليه المسلم ، السلوك الذي يحمل صاحبه على عفة اللسان ، والبعد عن حوار المروءة ، والحرص على احترام المجالس والجالسين .

لقد جاء جرير في سياق رده على الأخطل بكلام جميل ، وألفاظ لطيفة ، ففؤاده مع أحبته ، وهو حزينٌ تثير فيه أطلال منازل الأحبة الذكريات ، وتحرك العبرات ، وهو متيقنٌ أن إشفاقه وحذره من رحيلهم لن يفيد شيئاً .

ولأن قضية تعرض الأخطل للأنصار - ﷺ - هي القضية الكبرى عند جرير فقد تعمّد في بناء قصيدته أن يفردها بالذكر دون غيرها من القضايا التي تعرض لها الأخطل ، فذَبَّ عن الأنصار ، ودافع عنهم ، ولم يزاحم ذلك بالرد على ما أثاره الأخطل من قضايا كتعريضه بمقتل الحسين بن علي - ﷺ - في الطّف على سبيل المثال .

وفي إحجامه عن ذكر الخمر ، وعن وصف حالة السكر ، ونشوة السكران ما يذكّرنا بدور الشاعر المسلم الذي يضرب عن ذكر كلِّ محرّمٍ صفحاً ، والذي يُنزّه شعره عن كلِّ نقيصة فقد تعلّم جرير من الإسلام أن الخمر محرّمة وأنها أم الخبائث ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ

وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ

تُقْلِحُونَ ﴿١٠١﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ

وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَبَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ

فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿١١﴾ [المائدة : ٩٠ ، ٩١] . ولا شك أن جريراً يعلم كثيراً من أحاديث النبي - ﷺ - التي فيها النهي الصريح عن التعاطي مع الخمر بكل الصور ، ومن تلك الأحاديث قول النبي - ﷺ - : ((لعن الله الخمر وشاربها وساقيتها وبائعها ومبتاعها، وعاصرها، ومعتصرها، وحاملها، والمحمولة إليه))^(١) .

وجرير لم يبدأ الأخطل بالهجاء وإنما كان في موقع المدافع والراد على من هجاه ، خاصة أننا علمنا أن الأخطل في قصيدته (خف القطين) قد تعرض للأنصار - ﷺ - فهجاهم تقرباً لعبد الملك بن مروان وللأمويين الأمر الذي أثار حفيظة جرير ، وحرك فيه الحمية الإسلامية ، وتذكر معه أنه على ثغرة لا ينبغي أن يؤتى الإسلام منها ، فانتصر للأنصار - ﷺ - وفي انتصاره لهم انتصار لرسول الله - ﷺ - وانتصار لدين الإسلام ، فقد قدم الأنصار - ﷺ - أرواحهم رخيصة دون روحه - ﷺ - وناصروه وآووه .

كل تلك الاعتبارات استوعبها جرير فلم يجعل في قصيدته (قل للديار) حيزاً لمدح قريب أو بعيد ، وإنما جعلها وقفاً لتكون سياتاً ملهبة ، وسهاماً قاتلة لمن تجرأ على من قال فيهم رسول الله - ﷺ - : ((الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق ، فمن أحبهم أحب الله ، ومن أبغضهم أبغضه الله))^(٢) .

(١) انظر صحيح سنن أبي داود باختصار السنن ، محمد ناصر الدين الألباني ، مكتب التربية العربي لدول الخليج ، الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٩ هـ ، ص ٧٠٠ ، والحديث عن ابن عمر .

(٢) انظر صحيح البخاري ، ج ٢ ، ص ٢٨٣ .

وما جاء عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : ((آيةُ الإِيْمَانِ حُبُّ الْأَنْصَارِ ، وَآيَةُ النِّفَاقِ بَغْضُ الْأَنْصَارِ)) ^(١) .

وَأَمَّا السَّبَبُ الثَّانِي الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ جَرِيرٌ قَدْ نَظَّمَ قَصِيدَتَهُ فَهُوَ الْعَصْبِيَّةُ الْقَبْلِيَّةُ الَّتِي نَافَحَ وَنَاضَلَ فِي سَبِيلِهَا كَثِيرًا خَاصَّةً فِي سِيَاقِ هِجَائِهِ لِحَصْمِهِ الْأَخْطَلِ أَوْ غَيْرِهِ مِنَ الْخُصُومِ . فَالْعَصْبِيَّةُ زَادَتْ تَقَاتُ بِهَ النِّقَاطِ ، وَنَهَرَ تَعْرِفَ مِنْهُ لِتُقِيمَ صُلْبَهَا ، وَيَبْدُو أَنَّ جَرِيرًا وَعَى ذَلِكَ جِدًّا فَجَاءَتْ الْكَثِيرُ مِنْ قِصَائِدِهِ مُطَعَّمَةً بِالْفَخْرِ بِالْقَيْسِيِّينَ وَالْإِشَادَةِ بِمَآثِرِهِمْ وَبَطُولَاتِهِمْ ، وَلَا غَرَوُ فِي ذَلِكَ فَرِمَانَ جَرِيرٍ لَيْسَ بَعِيدًا عَنِ زَمَنِ الْجَاهِلِيَّةِ فَلَا يُمْكِنُ أَنْ نَتَصَوَّرَ أَنْ يَنْسَلِخَ الرَّجُلُ عَنِ طَبَاعِ الْجَاهِلِيَّةِ مَبَاشَرَةً أَوْ أَنْ يَنْفَكَ عَنْهَا انْفِكَآكَ كَلِيًّا فَيَتَخَلَّصَ مِنْ رَوَاسِبِهَا بَيْنَ عَشِيَّةٍ وَضَحَاها ، فَالْتَأَثَّرَ بِمَا شَهِدَهُ الْعَصْرَ الْجَاهِلِيَّ كَانَ وَاضِحًا حَتَّى فِي بِنَاءِ جَرِيرٍ لِقَصِيدَتِهِ فَقَدْ رَأَيْتُهُ يَلْتَزِمُ بِتِلْكَ الْبَدَايَةِ التَّقْلِيدِيَّةِ الَّتِي اعْتَادَ الشُّعْرَاءُ الْجَاهِلِيُّونَ أَنْ يَسْتَهْلُوا بِهَا قِصَائِدَهُمْ وَهِيَ الْبَدَايَةُ بِذِكْرِ الْأَطْلَالِ وَالذِّيَارِ وَالطَّعَائِنِ . فَفِي ذِكْرِهِ لِلذِّيَارِ وَرُؤْيِيَتِهِ لَهَا مَا يُذَكِّرُهُ بِأَحْبَابِهِ وَهُوَ شَعُورٌ نَفْسِيٌّ رُبَّمَا يَشْتَرِكُ فِيهِ النَّاسُ جَمِيعًا حِينَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ بَعْضَ الْأَشْخَاصِ أَوْ الْمَوَاقِفِ أَوْ الْأَزْمَنَةِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ بِأَشْيَاءَ كَانَتْ مَرْتَبِطَةً بِهَا ، فَمَا إِنْ يَرَى الْمَرْءَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ حَتَّى يَسْتَعِيدَ بِهَا مَبَاشَرَةً مَا ارْتَبَطَتْ بِهِ سَلْفًا مِنْ ذِكْرِيَاتٍ .

وَلَمْ يُعْفَلْ جَرِيرٌ ذِكْرَ مُقَوِّمٍ مِنْ مَقَوْمَاتِ الْحَيَاةِ دَابَّ الشُّعْرَاءُ الْجَاهِلِيُّونَ عَلَى ذِكْرِهِ كَثِيرًا وَهُوَ الْمَطَرُ فَجَاءَ ذِكْرُهُ لَهُ فِي صُورٍ مُخْتَلِفَةٍ حِينَ قَالَ ^(٢) :

أُسْقِيَتْ مُخْتَفِلًا يَسْتَنُّ وَابِلُهُ

أَوْ هَاطِلًا مُرْتَعِنًا صَوْبُهُ دِرْرُ .

^(١) صحيح البخاري ، ص ٢٨٣ . وجاء عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أو قال : أبو القاسم - رضي الله عنه - : ((لو أَنَّ الْأَنْصَارَ سَلَكُوا وَادِيًا أَوْ شِعْبًا لَسَلَكْتُ فِي وَادِي الْأَنْصَارِ ، وَلَوْ لَا الْمَجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الْأَنْصَارِ)) . فقال أبو هريرة : مَا ظَلَمَ - بَأبي وَأُمِّي - آوُوهُ وَنَصَرُوهُ . أو كلمة أخرى . انظر المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٨٢ .

^(٢) ديوان جرير ، ص ١٧٩ .

فهو مطرٌ يمتلئ الوادي سيلاً منه ، ويتصَّب بغزارة ، أو يهطل
مُرْتَعِنًا أي مستمرًا بطيئًا .

*** **

ولقد أفصح لنا جريرٌ في قصيدته عن شخصيتين متغايرتين له حين فارقته حبيبته :
الأولى : حين يكون بمفرده ، فإن قلبه لم يعد له من همٍّ سوى التَّفكير في
الحبيبة التي رَحَلَتْ عنه ، وفي ذلك يقول (١) :

إِنَّ الْفُؤَادَ مَعَ الظُّعْنِ الَّتِي بَكَرَتْ

مِنْ ذِي طُلُوحٍ وَحَالَتْ دُونَهَا الْبُصْرُ (٢) .

والشخصية الثانية : عندما يكون مع الناس فإن أثر الحزن والهم يظهر على وجهه ،
الأمر الذي يجعل الناس الذين يرونه يتساءلون عن سبب حزنه فيردّ عليهم
بأن الوقت ليس مواتياً للتشكّي أو الأعذار ، وفي ذلك قال (٣) :

قَالُوا : لَعَلَّكَ مَحْزُونٌ ! فَقُلْتُ لَهُمْ :

خَلُّوا الْمَلَامَةَ لَا شَكْوَى وَلَا عِذْرُ .

وفي مقدمة قصيدة جرير تَبَيَّنَ لي أَنَّهُ التقطَ صوراً عديدة لأحبائه
أثناء سيرهم ورحيلهم تدلُّ هذه الصور على براعته وإتقانه ، وقد كانت
على النحو التالي :

الصورة الأولى : مشهد النساء وهُنَّ في الهوادج الْمُجْتَمِعَةِ ،

(١) ديوان جرير ، ص ١٨٠ .

(٢) ذو طلوح : اسم لموضع .

البُصْرُ : الكُنْبَانِ الرَّمْلِيَّةِ .

(٣) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

قال جرير (١) :

إِنَّ الْخَلِيْطَ أَجَدَّ الْبَيْنَ يَوْمَ غَدَا

مِنْ دَارَةِ الْجَبَابِ إِذْ أَحْدَا جُهُمْ زُمْرُ (٢) .

الصُّورَةُ الثَّانِيَّةُ : صورة لِمَا أَحْدَثَتْهُ رِيَا حِ الْجَنُوبِ مِنْ تَجْفِيْفٍ لِلْعُشْبِ

فِي أَرْضِ أَحْبَابِهِ ، الأَمْرُ الَّذِي جَعَلَهُمْ يَرْتَحِلُونَ إِلَى أَرْضٍ لَيْسَتْ جَدْبَاءَ .

وَفِي ذَلِكَ قَالَ جَرِيرٌ (٣) :

لَمَّا تَرَفَّعَ مِنْ هَيْجِ الْجَنُوبِ لَهُمْ

رَدُّوا الْجِمَالَ لِإِصْعَادٍ وَمَا انْحَدَرُوا .

وَالهَيْجُ هِيَ الرِّيحُ الَّتِي تَعْصِفُ بِالْعُشْبِ فَيَصْبِحُ يَابِسًا وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى :

﴿ ثُمَّ يَهِيْجُ فَتَرْهَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا ... ﴾ [الحديد : ٢٠] .

الصُّورَةُ الثَّلَاثَةُ : صُورَةٌ لِلْجِمَالِ الَّتِي رَعَتْ فِي الرُّوْضِ الْمُعْشَبِ حَتَّى سَمِنَتْ

وَذَهَبُ وَبَرَّهَا ثُمَّ نَبَتَ لَهَا وَبَرٌّ جَدِيدٌ غَيْرِ الْأَوَّلِ ، قَالَ جَرِيرٌ (٤) :

مِنْ كُلِّ أَصْهَبٍ أَسْرَى فِي عَقِيْقَتِهِ

نَسَقٌ مِنَ الرُّوْضِ حَتَّى طَيْرَ الْوَبْرُ (٥) .

(١) ديوان جرير ، ص ١٨٠ .

(٢) الأحداج : مراكب النساء .

زمر : جماعات .

(٣) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٤) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٥) في عقيقته : في وبره الأول .

نَسَقٌ : سِمَنٌ .

الصورة الرابعة : صورة التقطها جريرٌ لتلك النُوق الكبيرة في سِنِّها والتي هَزَلَتْ من طول المسير ، ومن بُعد المسافات ، فكأنَّها صارت جُرْبًا وطلَّيتْ بالقار بكاملها ، وفي ذلك قال (١) :

بُزْلٌ كَأَنَّ الْكُحَيْلَ الصَّرْفَ ضَرَجَهَا

حَيْثُ الْمَنَاكِبُ يَلْقَى رَجْعَهَا الْقَصْرُ (٢) .

الصورة الخامسة : صورة التَّقَطُّهَا جريرٌ للعُشْبِ وقد جَفَّ إِلَّا فِي الْأَمَاكِنِ التي لا تصيبها الشَّمْسُ ، وفي بطون الأودية ، قال جرير (٣) :

أَبْصَرْنَا أَنْ ظُهُورَ الْأَرْضِ هَائِجَةً

وَقَلَّصَ الرَّطْبُ إِلَّا أَنْ يُرَى سِرُّ (٤) .

الصورة السادسة : صورة التقطها جريرٌ بكلِّ دَقَّةٍ ، وكأَنَّما هو مُصَوِّرٌ محترفٌ حين التقط منظر أشجار الدَّومِ وقد انعكس عليها السَّرَابُ فجعلها تبدو متألِّقةً زاهيةً كأَنَّما منظرها منظر الطَّعَّانِ بما ترتديه من ثيابٍ جميلةٍ برَّاقةٍ . وفي ذلك قال جرير (٥) :

قَالُوا نَرَى الْآلَ يَزْهَى الدَّوْمَ أَوْ ظُعْنَا ؛

(١) ديوان جرير ، ص ١٨٠ .

(٢) الكُحَيْلُ : القَطِيرَانُ تُطْلَى بِهِ الْإِبِلَ الْجَرَبِي .

الْقَصْرُ : الواحدة قَصْرَةٌ وَهِيَ أَصْلُ الْعُنُقِ .

الْبُزْلُ : النوق المسنَّة .

(٣) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٤) هَائِجَةٌ : يَابِسَةٌ .

قَلَّصَ : اضمحلَّ .

الرَّطْبُ : البقل .

السَّرُّرُ : بطون الأودية .

(٥) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

يَا بُعْدَ مَنْظَرِهِمْ ذَاكَ الَّذِي نَظَرُوا^(١) .

وهذه الصورة تعكس مدى حزن جرير على فراق أحبته لدرجة أنه أصبح يتخيل صورهم مُجَسَّمَةً في أشياء أخرى غيرهم ، وكأنه بذلك يعيش أحلام اليقظة التي سرعان ما تتلاشى وتختفي .

والحقيقة أنني رأيتُ من خلال تلك الصور المختارة والمنسقة بعناية فائقة ، مهارة جرير في التعبير الدقيق عن نفسيته وما يختلجها من مشاعر حيّاشة ، وهموم فيّاضة ، فلم يعجز عن أن يصف وصفاً كاملاً تلك الحالة التي يعيشها عندما فارقه أحبابه ، ولم يخنّه التعبير مُطْلَقاً في الكشف عن كل ما استتر في أعماق أعماق نفسه ، بل قد أبدع كثيراً عندما اختتم تلك الصور بما يعيشه ويحسه كل من يخشى الفراق من رغبة جامحة في أن يتأخر المُفَارِقُ قليلاً عن الرّحيل ليتلذذ بالجلوس معه ، أو الأُنس بالحديث إليه ولو لَوْقَتٍ قصير . وهذا ما جعل جريراً يصوغ ذلك الشُّعورَ النَّفْسِيَّ في قوله^(٢) :

نَادَى الْمُنَادِي بَيْنَ الْحَيِّ فَاذْكُرُوا

مِنَّا بُكُورًا فَمَا ارْتَابُوا وَمَا انْتَظَرُوا .

فجرير يوضّح في هذا البيت سرعة رحيل الأحباب بمجرد أن نادى المُنَادِي بِالرَّحِيلِ ، ويؤكد على تلك السُّرْعَةَ بقوله : فما ارتابوا وما انتظروا ، وهذه الألفاظ التي اختارها جرير تعكس حرصه الشديد على تريث أحبابه ، وبقائهم في الحي ولو لِلْحِظَاتِ .

كما أنّ جريراً حَدَّثَنَا في مستهل قصيدته عن الحذر والخوف اللذنين ينتابان صاحب الشُّعور المرهف الذي يمتلك إحساساً فريداً يهتدي به إلى معرفة وتوقع ما سيحدث ، وهذا الأمر

(١) يزهي : يعلو ويرتفع . الدوم : شجر يشبه النخيل .

(٢) ديوان جرير ، ص ١٨٠ .

يكشف لنا عن فطنةٍ قويّةٍ يمتلكها جرير ويتأكد ذلك الأمر في قوله (١) :

حَاذَرْتُ بَيْنَهُمْ بِالْأَمْسِ إِذْ بَكَرُوا

مِنَّا ، وَمَا يَنْفَعُ الْإِشْفَاقُ وَالْحَذَرُ (٢) .

فقد كان جرير خائفاً من رحيل أحبائه ، وكأنه يحس بأن رحيلهم سيحدث ولكن حذره وخوفه لم يُقدِّم شيئاً فقد حدث الرحيل ولم يُجد في رده شيء .

وأخيراً كانت الصورة التي التقطها جرير لأحبته والتي لم يكد يظهر من معالمها شيء ، وإنما كانت مجرد رتوشٍ وعلامات لا تكاد تُبين ، وما ذاك إلا بسبب البعد الشديد الذي ابتعده الأعبة بحيث لم يعد البصر يميزهم من جراء تلك الضبابية التي تمخّضت عن المسافة البعيدة التي ينقطع معها البصر ويفقد وظيفته فقال في ذلك جرير (٣) :

كَمْ دُونَهُمْ مِنْ ذُرَى تِيهِ مُخَفِّقَةٌ

يَكَادُ يَنْشَقُّ عَنْ مَجْهُولِهَا الْبَصْرُ (٤) .

وما أريد الوصول إليه من ذكر ما تقدّم هو أن جريراً بدأ بناء قصيدته ((قل للديار)) بالوقوف على الأطلال ، والتعرض لألم الفراق وكان ذلك في ستة عشر بيتاً اعتمد فيها كما أسلفت على التقاط صورٍ دقيقةٍ تنم عن مشاعر نفسية صادقة أسعفتته في رسمها التعبيرات الدقيقة الواضحة المعبرة عن كل ما يريد قوله ، وعن كل ما يختلج في نفسه ، وفي ظني أنه تفوّق كثيراً على الأخطل في ذلك ، فلم يكن الأخطل في أبياته التي يذكر فيها الطعائن على ذاك القدر من الألم والوحشة والصدق الذي تبيّنته في أبيات جرير ((أمّا المقطع الذي يخصّ به ارتحال

(١) ديوان جرير ، ص ١٨١ .

(٢) بينهم : رحيلهم وبعدهم .

(٣) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٤) التيه المخففة : الجبال البعيدة .

الظَّعائن ، فقد طغتْ عليه الأحداث وأسماء الأمكنة ، ولم تكد تتلامح لنا
لوعةُ الفراق وجهشة الوحشة والنأي ...))^(١) .

قال الأخطلُ في ذكر الظَّعائن والرَّاحلين^(٢) :

خَفَّ الْقَطِينُ ، فَرَا حُوا مِنْكَ أَوْ بَكَرُوا

وَأَزَعَجَتْهُمْ نَوَى فِي صَرْفِهَا غَيْرُ^(٣) .

ثمَّ قال^(٤) :

شَوْقًا إِلَيْهِمْ ، وَوَجْدًا يَوْمَ أُتْبِعُهُمْ

طَرْفِي ، وَمِنْهُمْ بِجَنْبِي كَوَكَبٍ زُمُرُ^(٥) .

حَثَّوَا الْمَطِيَّ ، فَوَلَّتْنَا مَنَاكِبَهَا

وَ فِي الْخُدُورِ إِذَا بَاغَمَتَهَا الصُّورُ^(٦) .

ثمَّ قال بعد ذلك^(٧) :

شَرَّقْنَ إِذْ عَصَرَ الْعَيْدَانَ بَارِحُهَا

وَأَيَّسَتْ غَيْرَ مَجْرَى السَّنَةِ ، الْخُضْرُ^(٨) .

(١) انظر شرح ديوان الأخطل التَّغْلِبِيَّ ، إيليا سليم الحاوي ، دار الثَّقَافَةِ ، بيروت ، لبنان ، ص ١٦١ .

(٢) ديوان الأخطل ، ص ٨٨ .

(٣) القطيين : القوم القاطنون سوياً في مكان واحد .

نَوَى : نيةُ الفراق .

(٤) المصدر السابق ، ص ٨٩ .

(٥) كوكب : اسم موضع . زُمُرُ : جماعة .

(٦) بَاغَمَتَهَا : من بَعَمَ أصلها في صوتِ الطَّبِيَةِ وهنا بمعنى تكلم بصوت رخيم . انظر
انظر شرح ديوان الأخطل ، ص ١٦٤ .

(٧) ديوان الأخطل ، ص ٨٩ ، ٩٠ .

(٨) شَرَّقْنَ : ذهبن شرقاً . عَصَرَ العِيدَانَ : أَيْبَسَهَا .

البارح : الريح الباردة التي تجفف الكلاً . (انظر شرح ديوان الأخطل التَّغْلِبِيَّ ، ص ١٦٥) .

- فَالْعَيْنُ عَانِيَةٌ بِالْمَاءِ تَسْفَحُهُ
 مِنْ نِيَّةٍ فِي تَلَاقِي أَهْلِهَا ضَرُرٌ ^(١) .
 مُنْقَضِبِينَ انْقِضَابَ الْحَبْلِ ، يَتَّبِعُهُمْ
 مِنْ الشَّقِيقِ ، وَعَيْنُ الْمُقَسِّمِ الْوَطْرُ ^(٢) .
 حَتَّى هَبَطْنَا مِنَ الْوَادِي لِعَظْبَتِهِ
 أَرْضًا تَحُلُّ بِهَا شَيْبَانُ أَوْ غُبْرُ ^(٣) .
 حَتَّى إِذَا هُنَّ وَرَكْنَ الْقَصِيمَ وَقَدْ
 أَشْرَفْنَا ، أَوْ قُلْنَا هَذَا الْخَنْدَقُ الْحَفْرُ ^(٤) .

وأنا إذ أسوق هذه الأبيات من قصيدة الأخطل ((خَفَّ الْقَطِين)) التي نقضها جريرُ فإنما أسوقها لبيان شُحِّ العاطفة عند الأخطل ، وبالمقابل صِدْقِ عاطفة جرير ومقدرته على التَّعبير عنها بما سبق ذكره من صورٍ رائعة تبرز تفوقه على خصمه . وقد استفاد جريرُ من ذِكرِ الأخطل لبعض المواضع والأماكن حين تحدَّث عن الرَّحِيلِ وَالظَّعَائِنِ فرأيتُهُ يذكر موضعين اثنين هما ذُو طُلُوحٍ وَدَارَةُ الْجَأَبِ ، فهو بذلك لم يكثر من ذِكرِ الأماكن في مقدمة قصيدته كتلك الكثرة في مقدمة قصيدة

^(١) العانية : المعتاة .

تسفحه : تصبه .

^(٢) منقضب : منقطع .

الشقيق : موضع .

عين المقسم : اسم بئر .

^(٣) غضبته : جانبه .

غُبْرُ : من بني تميم .

^(٤) وَرَكْنَ : أي شارفنا .

القصيم : موضع .

خَنْدَقُ : هو خندق سابور في برية الكوفة (انظر شرح ديوان الأخطل التَّغْلِيي ، ص ١٦٦) .

الْحَفْرُ : الحفور .

الأخطل ، مِمَّا جَعَلَ الْجُهْدَ مَنْصَبًا عَلَى وَصْفِ الظُّعَانِ وَالرَّحِيلِ مِنْ جِهَةٍ ، وَمَكَّنَ
لِلْعَاطِفَةِ الصَّادِقَةِ الْمَعْبُورَةَ أَنْ تَجِدَ مَكَانَهَا فِي مَقْدَمَةِ قَصِيدَتِهِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى .
وجريرٌ لم يقتصر في استفادته من قصيدة الأخطل على ذكر الأماكن فَحَسَبَ
بل قد رأيتُهُ يستفيد من بعض المعاني التي جاء بها الأخطل في قصيدته ،
وأذكر هنا أمثلةً على ذلك قول جرير ^(١) :

مِنْ دَارَةِ الْجَابِ إِذِ أَحْدَا جُهُمْ زُمَرُ .

حيث استفاد قوله : (إِذِ أَحْدَا جُهُمْ زُمَرُ) من قول الأخطل ^(٢) :

وَمِنْهُمْ بِجَنَّبِي كَوَكَبِ زُمَرُ .

فكلا المعنيين يدلان على اجتماع الرّاحلين وتكثّلهم ، وأيضاً كلمة (زُمَرُ)
رأينا جريراً يأتي بها كما جاء بها الأخطل ، بل إنّه أوردها في البيت السادس من
قصيدته ، وقد وردت في قصيدة الأخطل في البيت السادس أيضاً .

وجرير يُعلّل سبب رحيل أحبّته بهبوب رياح الجنوب التي جفّفت
العشبَ وجعلته يابساً لا خير فيه فقال ^(٣) :

لَمَّا تَرَفَّعَ مِنْ هَيْجِ الْجَنُوبِ لَهُمْ

رَدُّوا الْجِمَالَ لِإِصْعَادٍ وَمَا انْحَدَرُوا .

وهذا المعنى الذي علل به جريرُ رحيل الأحباب استفاده من قول الأخطل ^(٤) :

شَرَّقْنَ إِذْ عَصَرَ الْعَيْدَانَ بَارِحُهَا

وَأَيَّبَسَتْ غَيْرَ مَجْرَى السَّنَةِ الْخُضْرُ .

فالظُّعَانُ رَحَلْنَ بِاتِّجَاهِ الشَّرْقِ لِأَنَّ الرِّيَّاحَ الشَّدِيدَةَ عَصَفَتْ بِالنَّبَاتَاتِ وَجَفَّفَتْ
الكأ فكان طبيعياً أن يَرَحُلْنَ بِاتِّجَاهِ الْأَمَاكِنِ الْمَعْشَبَةِ الْمَخْضَرَّةِ .

^(١) ديوان جرير ، ص ١٨٠ .

^(٢) ديوان الأخطل ، ص ٨٩ .

^(٣) ديوان جرير ، ص ١٨٠ .

^(٤) ديوان الأخطل ، ص ٨٩ .

واستفاد جرير من الأخطل ما عبّر عنه بسرعة رحيل الأحباب
والظّعائن فقال (١) :

نَادَى الْمُنَادِي بَيْنَ الْحَيِّ فَاذْكُرُوا

مِنَّا بُكُورًا فَمَا ارْتَابُوا وَمَا انْتَظَرُوا .

فَهُنَّ أَسْرَعْنَ إِلَى الرَّحِيلِ مَبَاشِرَةً وَدُونَ تَرِيثٍ بِمَجْرَدِ أَنْ طَلَبَ
مِنْهُنَّ الْمُنَادِي ذَلِكَ ، وَهَذَا الْمَعْنَى يَذْهَبُ بِنَا إِلَى الْبَيْتِ الْأَوَّلِ فِي
قَصِيدَةِ الْأَخْطَلِ حَيْثُ قَالَ (٢) :

خَفَّ الْقَطِيبُ فَرَاخُوا مِنْكَ أَوْ بَكَرُوا

وَأَزْعَجَتْهُمْ نَوَى فِي صَرْفِهَا غَيْرُ .

فحين يقول الأخطل (خَفَّ) أي أسرعوا في الرحيل دون تأنٍّ أو تريث .
وإذا نظرنا إلى تقسيمات قصيدة جرير وجدناها إجمالاً تتكوّن
من التّقسيمات التّالية :

- ١- ذِكر الأطلال والرحيل والظّعائن ، وكان ذلك في ستّة عشر بيتاً .
- ٢- الفخر ، وكان ذلك في أحد عشر بيتاً متتالياً .
- ٣- هجاء تغلب والدُّعاء عليهم في خمسة أبيات متتالية .
- ٤- الفخر بقريش والأنصار في بيتين متتالين .
- ٥- الفخر في أربعة أبيات متفرقة .
- ٦- هجاء الأخطل والتّعليين في أربعة أبيات متفرقة .
- ٧- هجاء التّعليين في خمسة أبيات متتالية .
- ٨- هجاء التّعليين في ثلاثة أبيات متتالية .
- ٩- هجاء الأخطل والتّعليين في اثني عشر بيتاً متتالياً .
- ١٠- الجمع بين الفخر والهجاء في أربعة أبيات متفرقة .

(١) ديوان جرير ، ص ١٨٠ .

(٢) ديوان الأخطل ، ص ٨٨ .

- بينما كانت تقسيمات قصيدة الأخطل ((خَفَّ القَطِين)) على النحو التالي (١) :
- ١- ذِكر الرَّحِيل في بيت واحدٍ .
 - ٢- وصف الخمرة والسكران في أربعة أبيات متتالية .
 - ٣- عودة إلى ذكر الرَّاحِلين في بيتين متتاليتين .
 - ٤- رأيه في النَّساء في أربعة أبيات متتالية .
 - ٥- العودة إلى ذكر الظَّعائن في ستة أبيات .
 - ٦- مباشرة المديح لعبد الملك بن مروان في أربعة أبيات متتالية .
 - ٧- وصف كرم الخليفة عبد الملك بن مروان في أربعة أبيات متتالية .
 - ٨- تهديد الوشاة في ثلاثة أبيات متتالية .
 - ٩- العودة إلى مدح عبد الملك بن مروان في ستة أبيات متتالية .
 - ١٠- مدح قريش في تسعة أبيات متتالية .
 - ١١- مخاطبة بني أمية في سبعة أبيات متتالية .
 - ١٢- فخره بمناصرة الأمويين في سبعة أبيات متتالية .
 - ١٣- هجاء القيسيين وأحلافهم في ثلاثة عشر بيتًا متتاليًا .
 - ١٤- هجاء بني كليب في أربعة عشر بيتًا متتاليًا .
- فيصبح مجموع أبيات قصيدة الأخطل أربعة وثمانين بيتًا (٢) .

*** **

وقبل أن أختتم هذا المبحث أشيرُ هنا إلى أمرٍ انتهجه جريرٌ في بناء قصيدته التي نقض بها قصيدة الأخطل ، وهذا الأمر ما أسَمَّيه صراحةً

(١) انظر شرح ديوان الأخطل التغلبي ، ص ١٦٣ .

(٢) هكذا كان مجموع أبيات قصيدة الأخطل ((خَفَّ القَطِين)) كما جاء في شرح ديوان

الأخطل التغلبي في الصفحات من ١٦٣ - ١٧٩ ، وقد سقط البيت التالي :

لَا يَطْعَمُ النَّوْمَ إِلَّا رَيْثَ يَبْعَثُهُ هَمُّ الْمُلُوكِ ، وَجَدُّ هَابَهُ الْحَجْرُ .

وهذا البيت ضمن أبيات القصيدة كما جاء في ديوان الأخطل ، ص ٩١ ،

وكما ورد في نقائص جرير والأخطل ، ص ١٥٢ .

باسمه دون مواربة أو تسمية للأشياء بغير اسمها وهو السرقة من بعض أبيات الأخطل على نحو قوله ^(١) :

الظَّاعِنُونَ عَلَى الْعَمِيَاءِ إِنْ ظَعَنُوا

وَالسَّائِلُونَ بظَهْرِ الْغَيْبِ : ما الخبر .

وقوله ^(٢) :

الْأَكْلُونَ خَبِيثَ الزَّادِ وَحَدَّهُمْ

وَالنَّازِلُونَ إِذَا وَاوَاهُمُ الْخَمْرُ .

حيث نلاحظ أن جريراً سرق بيتاً كاملاً من قصيدة الأخطل فجعل شطره الأوّل شطراً أوّل في البيت الذي سبق قريباً ، وجعل شطره الثاني شطراً ثانياً في بيت آخر كما سبق . وهذا البيت الذي سرقه جرير من قصيدة الأخطل هو قول الأخطل ^(٣) :

الْأَكْلُونَ خَبِيثَ الزَّادِ وَحَدَّهُمْ

وَالسَّائِلُونَ بظَهْرِ الْغَيْبِ : ما الخبر .

ولا أنسى أن أُبين أن جريراً في قصائده التي ينقض بها قصائد الأخطل كان ملتزماً بالقواعد والأسس التي قام عليها فنّ النّقائض فقد رأينا ينقض قصائد خصمه هاجياً أو مفتخرًا ملتزماً بالبحر والقافية والرّوي كما في القصيدة التي ينقضها ، وفوق ذلك فإنّ الملاحظ على ذلك النوع من قصائد جرير هو جانب السُّخرية المفرطة المضحكة في الوقت نفسه كما قال الدكتور عبد المجيد الحرّ : ((وما دمنّا بصدد الهجاء فنقول بأنّه إذا هجا ، كانت ألفاظه مشحونة بالسُّخرية والاستهزاء تستعجل القارئ بالضحك قبل أن يفهم ما تضمّنت من معنى)) ^(٤) .

(١) ديوان جرير ، ص ١٨٢ .

(٢) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٣) ديوان الأخطل ، ص ٩٥ .

(٤) جرير رقة الصياغة وعدوبة اللفظ وجزالة الشعر ، د. عبد المجيد الحرّ ، دار الفكر العربي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤١٩ هـ ، ص ١٠٧ ، ١٠٨ .

المُبْحَثُ الثَّالِثُ

الصُّورُ وَالتَّرَاكِيِبُ وَ الإِيْقَاعُ

أَوَّلًا :

الصُّورُ و التَّرَاكِيِبُ

لا يستغني شاعرٌ يمتلك الإحساس المرهف ، و المشاعر الفيّاضة عن الصُّور الفنيّة التي يوشّي بها قصائدهُ ، ويرصّع بها أبياته .
وهذه الصُّور تقوم على الخيال ، وبقدر ما يمتلك الشَّاعر من قُدرة على صياغة المعاني في صور من الأخيلة بقدر ما يبدع في إيصال هذه المعاني إلى المتلقي في أبهى الحُلل لتقع من نفسه موقعها المؤثّر الذي لا يتأتى فيما لو أتت المعاني مُجرّدةً من الخيال .

ومصطلح الصُّورة هو ((ما يدركه المتأمل في المعاني من فوارق دقيقة وشفيفة بين هيأتها وأشكالها ، وشيئاتها ، وملاحظاتها . وأشياء كثيرة غامضة يفترق بها المعنى في الذهن عن المعنى ، وتكون له في النفس بها هيئة لا تكون لغيره .))^(١)

وفي نقائص جرير مع الأخطل كان للصُّور الفنيّة حضورها الذي لا بأس به ، لكنّ هذا الحضور ليس على ذلك القدر المتوقّع لو أنّ القصائد كانت في غرض الوصف ، أو من شاعرٍ يتحدّث عن الطبيعة وما فيها من جبال و أنهار وأشجار وجداول ...
ونحن نعلم طبيعة النَّقائص ، وقيامها على غرضي الهجاء و الفخر ، وربّما كانت الصُّور الفنيّة شحيحة - بحكم طبيعة المعاني - في هذين الغرضين الشّعريين .
لكننا مع ذلك لا نعدم أن نجد صوراً فنيّةً أبدع في اختيارها جرير سواءً كان ذلك في تشبيهاته ، أو استعاراته ، أو كناياته ، أو غير ذلك .

وكان لتلك الصُّور أثرها الواضح في التعبير عن مكنون قلبه ، وما يدور في عقله ، إلى جانب عددٍ من التراكيب التي ظهرت في أبيات نقائضه ، وسوف أستعرض بعضاً منها قريباً خلال هذا المبحث .

لكنني أبدأ أولاً بالصُّور الفنيّة ، ومنها :

^(١) دراسة في البلاغة و الشُّعر ، د/ محمد محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، مصر ، الطبعة

أ) التَّشْبِيه :

وهو ((دلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى .))^(١)
وهو ((صفة الشَّيء بما قاربه وشاكله ، من جهة واحدة أو جهات كثيرة لا من جميع جهاته ؛ لأنه لو ناسبه مناسبة كُليَّة لكان إيَّاه .))^(٢)
((والتَّشْبِيه يزيد المعنى وضوحاً ويكسبه تأكيداً ، ولهذا أطبق جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه ، ولم يستغن أحدٌ منهم عنه . وقد جاء عن القدماء وأهل الجاهليَّة من كلِّ جيلٍ ما يُستدلُّ به على شرفه وفضله وموقعه من البلاغة بكلِّ لسان .))^(٣)
و (أركان التَّشْبِيه أربعة هي :

١- المشبَّه .

٢- المشبَّه به . ويُسميان ((طرفي التَّشْبِيه)) .

٣- أداة التَّشْبِيه ، وهي الكاف أو نحوها ملفوظة أو مقدَّرة .

٤- وجه الشبَّه ، وهو الصِّفَة أو الصِّفَات التي تجتمع بين الطَّرفين)^(٤)

ومن التَّشْبِيه في نقض جرير شعر الأخطل قوله^(٥) :

وَرَدَا بِلَادَكَ بِالْجِيَادِ كَأَنَّهَا

عِقْبَانٌ مُدْجِنَةٌ نَفَضْنَ طِلَالًا .^(٦)

(١) الإيضاح في علوم البلاغة ، الخطيب القزويني ، تحقيق د: عبد الحميد هنداوي ، مؤسسة المختار ،

القاهرة ، مصر ، الطبعة الثانية ، ١٤٢٤هـ ، ص ١٨٨ .

(٢) العمدة في محاسن الشُّعر وآدابه ونقده ، ابن رشيق القيرواني ، تحقيق د . عبد الحميد هنداوي ، المكتبة

العصريَّة ، بيروت ، لبنان ، ط ١ ، ١٤٢٢هـ ، ٢٥٢/١ .

(٣) كتاب الصَّنَاعَتَيْن - الكتابة و الشُّعر - ، أبو هلال العسكري ، تحقيق : د/ مفيد قميحة ، دار

الكتب العلميَّة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٠١هـ ، ص ٢٦٥ .

(٤) علم المعاني ، د/ عبد العزيز عتيق ، دار النَّهضة العربيَّة ، بيروت ، لبنان ، بدون رقم طبعة ،

١٤٠٥هـ ، ص ٦٤ .

(٥) نقائض جرير و الأخطل ، ص ٩٥ .

(٦) مُدْجِنَةٌ : غيمة . طِلَالًا : جمع طَلٍّ وهو قطرات المطر الخفيف .

فقد شبّه جريرُ جِيَادَ الْمُهَزَّمِ وابنِ الحُبَابِ في هيجانِهَا وَجَلَبَتِهَا وإِقْدَامِهَا في المعركة بالعِقبَانِ التي تَنْفُضُ الطَّلَّ في يومِ غائمٍ .

وقال جرير (١) :

وَكَأَنَّ عَافِيَةَ النُّسُورِ عَلَيْهِمُ

حَجٌّ بِأَسْفَلِ ذِي الْمَجَازِ نَزُولُ .

حيث شبّه جريرُ اجتماعَ النُّسُورِ الكثيرة على جُثثِ التَّغْلِبِيِّينَ في أرضِ المعركة ، باجتماعِ الحجيجِ المهولِ حينَ ينزلون في سوقِ ذي المجاز .

وقال جرير (٢) :

أَوْ هَاشِمٌ يَوْمَ قَادِ الْخَيْلِ مَعْلَمَةً

فِي جَحْفَلٍ كَسَوَادِ اللَّيْلِ جَرَّارٍ .

حيث شبّه جريرِ الجحفلِ في كثرته بسوادِ اللَّيْلِ .

وقال جرير (٣) :

وَكَأَنَّ تَغْلِبَ يَوْمَ لَأَقَتْ خَيْلَنَا

خَرْبَانَ ذِي حُسْمٍ لَقِيْنَ صُقُورًا .

شَبّه مَلَاقَةَ تَغْلِبِ لِخَيْلِ الْقَيْسِيِّينَ وَفِرْسَانِهِمْ - تلكِ المَلَاقَةَ الَّتِي انْطَوَتْ عَلَى ضَعْفٍ وَخَوَرٍ وَهَزِيمَةٍ فِي تَغْلِبٍ - بِمَلَاقَةِ ذَكَورِ الْحُبَارَى لِلصُّقُورِ فِي وَادِي ذِي حُسْمٍ .

وقال جرير (٤) :

نَفَضَتْ بِأَسْحَمٍ لِلْمِرَاحِ شَلِيلَهَا

نَفَضَ النَّعَامَةَ زَفَهَا الْمَمْطُورًا . (٥)

(١) نقائض جرير و الأخطل ، ص ١٨٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٤٥ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٢٥ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٢٠ .

الشَّلِيل : مسح من صوف أو شعر يوضع على عجز الدَّابة

زَفَهَا : ريشها .

(٥) الأَسْحَم : ذنب الدَّابة .

من وراء الرَّحْلِ

في سياق ذِكْر جرير في مقدمته الطَّلِيَّة لِلرَّوَا حِل التي تَحْمِل الطَّاعِنِينَ فَإِنَّهُ يُشَبِّههُ نَفْضَ النَّاقَةِ بِذَنبِهَا لِمَا يُوضَع على عجزها من صوف أو شعر أثناء لَعِبِهَا بِنَفْضِ النَّعَامَةِ لريشها المَبْلَل من المطر .

وقال جرير (١) :

إِذَا الْأُفُقُ الْغَرْبِيُّ أَمْسَى كَأَنَّهُ

سَلَا فَرَسٍ شَقْرَاءَ مُكْتَبِبُ الْعَصَبِ .

حيث شبَّه جريرُ الأفق الغربي في حَمْرَتِهِ بِسَلَا الفرس الأحمر ، وهذه الحُمْرَة في الأفق الغربي أراد أن يَعْبِّرَ بِهَا جرير عن خلوِّ السَّمَاءِ مِنَ السَّحَابِ الْأَمْر الذي يَنْذِرُ بِالْفَقْرِ و الفاقة و الجفاف ، وَلَكِنَّهُمْ مع ذلك باقون على كرمهم .

وقال جرير (٢) :

رُفِعَ الْمَطِيُّ بِكُلِّ أَشْعَثَ شَا حِبِّ

خَلَقَ الْقَمِيصِ تَخَالَهُ مُخْتَالًا .

فقد شبَّه الرَّجُلُ الرَّاكِبُ على المَطِيَّةِ و الذي يتمايل يمينًا و شمالًا من فرط النُّعَاسِ بِالرَّجُلِ الذي يَخْتَالُ في مشيته .

وقال جرير (٣) :

إِنَّ الْأُخَيْطِلَ خِنْزِيرٌ أَطَافَ بِهِ

إِحْدَى الدَّوَاهِي الَّتِي تُخْشَى وَ تُنْتَظَرُ .

شبَّه جريرُ الْأُخَيْطِلَ بِالخِنْزِيرِ ، فَطَرَفًا التَّشْبِيهِ هُمَا : الْمُشَبَّه (الْأُخَيْطِل) ، و المُشَبَّه به (الْخِنْزِير) ، و قد حُذِفَ وَجْهَ الشَّبْهِ و الأداة . و يُعَدُّ هذا لمثال شاهداً على التَّشْبِيهِ البليغ .

(١) نقائص جرير و الأخطل ، ص ١١١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٨٥ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٧٥ .

فالتشبيه البليغ ((مَا حُذِفَتْ مِنْهُ الْأَدَاةُ وَوَجْهُ الشَّبَه))^(١) ((وهو مظهرٌ من مظاهر البلاغة ، وميدان فسيح لتسابق المجيدين من الشعراء و الكتاب))^(٢)

ب- الاستعارة :

وهي ((ما كانت علاقته تشبيهه معناه بما وُضِعَ له .))^(٣) وعرفها عبد القاهر الجرجاني فقال : ((اعلم أن الاستعارة في الجملة أن يكون للفظ أصلٌ في الوضع اللغوي معروفٌ تدلُّ الشواهد على أنه اختصَّ به حين وُضِعَ له ، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل ، وينقله إليه نقلاً غير لازم ، فيكون هناك كالعاريّة))^(٤)

وتنقسم الاستعارة باعتبار ذكر أحد طرفيها قسمين ، هما :

١- استعارة تصريحية : وهي أن ((تجعل الشيء الشيء ليس به))^(٥) .

٢- استعارة مكنية : وهي أن تجعل ((للشيء الشيء ليس له))^(٦) .

ولتسهيل التعريفين السابقين نقول :

الاستعارة التصريحية ، ((وهي ما صرَّحَ فيها بلفظ المشبه به))^(٧)

و الاستعارة المكنية ، ((وهي ما حُذِفَ فيها المشبه به ورُمِزَ له بشيءٍ من لوازمه))^(٨)

ومن شواهد القسمين في شعر جرير الذي نقض به شعر الأخطل ما يلي :

(١) انظر البلاغة الواضحة ، على الجارم ، مصطفى أمين ، دار المعارف ، مصر ، الطبعة الحادية والعشرون ، ١٣٨٩هـ ، ص ٢٥ .

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٣) الإيضاح في علوم البلاغة ، ص ٢٤٠ .

(٤) أسرار البلاغة ، عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق : محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني ، مصر ، الطبعة الأولى ، ١٤١٢هـ ، ص ٣٠ .

(٥) كتاب دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق : محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني ، مصر ، الطبعة الثالثة ، ١٤١٣هـ ، ص ٦٧ .

(٦) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٧) البلاغة الواضحة ، ص ٧٧ .

(٨) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

أولاً : الاستعارة التَّصْرِيحِيَّة :

قال جرير ^(١) :

إِنَّ الْهُذَيْلَ بِذِي بَهْدَى تَدَارِكُهُ

لَيْتَ إِذَا شَدَّ مِنْ عَادَاتِهِ الظَّفَرُ .

شَبَّهَ جَرِيرٌ الرَّجُلَ الشُّجَاعَ بِاللَّيْثِ ، ثُمَّ تَنَاسَى التَّشْبِيهَ ، وَاعْتَبَرَ أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ الشُّجَاعَ مِنْ جِنْسِ اللَّيْثِ فِي الشُّجَاعَةِ وَ الْإِقْدَامِ وَ الْقُوَّةِ ، ثُمَّ أَطْلَقَ عَلَى الْمَشَبِّهِ لَفْظَ الْمَشَبَّهِ بِهِ عَلَى سَبِيلِ الْإِسْتِعَارَةِ التَّصْرِيحِيَّةِ .

وقال جرير ^(٢) :

حَتَّى سَمِعْتُ بِخَنْزِيرٍ ضَعَا جَزَعًا

فَقُلْتُ : إِنِّي أَرَى الْأَمْوَاتَ قَدْ نُشِرُوا .

شَبَّهَ جَرِيرٌ الْأَخْطَلَ بِالْخَنْزِيرِ بِجَامِعِ الْقُبْحِ فِي الصَّوْتِ بَيْنَهُمَا ، ثُمَّ تَنَاسَى التَّشْبِيهَ ، وَاعْتَبَرَ أَنَّ الْأَخْطَلَ مِنْ جِنْسِ الْخَنْزِيرِ شِكْلًا وَقَدَارَةً وَقَبْحًا فِي الصَّوْتِ ، ثُمَّ أَطْلَقَ عَلَى الْمَشَبَّهِ لَفْظَ الْمَشَبَّهِ بِهِ عَلَى سَبِيلِ الْإِسْتِعَارَةِ التَّصْرِيحِيَّةِ .

ثانياً : الاستعارة المكنية :

قال جرير ^(٣) :

أَحْيَاؤُهُمْ شَرُّ أَحْيَاءٍ وَ الْأَمَّةُ

وَ الْأَرْضُ تَلْفِظُ مَوْتَاهُمْ إِذَا قُبِرُوا .

فَنَلْحِظُ أَنَّ جَرِيرًا شَبَّهَ الْأَرْضَ بِالْكَائِنِ الْحَيِّ ، فَذَكَرَ الْمَشَبَّهَ (الْأَرْضُ) ، وَحَذَفَ الْمَشَبَّهَ بِهِ (الْكَائِنِ الْحَيِّ) ، وَجَاءَ بِشَيْءٍ مِنْ لَوَازِمِهِ (اللَّفْظُ) ، عَلَى سَبِيلِ الْإِسْتِعَارَةِ الْمَكْنِيَّةِ .

(١) نقائض جرير و الأخطل ، ص ١٧١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٧٤ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٧٧ .

وقال جرير ^(١) :

وَرَأَيْتُ رَاحِلَةَ الصَّبَا قَدْ أَفْصَرَتْ

بَعْدَ الذَّمِّيلِ ، وَمَلَّتِ التَّرْحَالَ .

حيث شبه الصِّبَا بِجِهَةٍ من جهات المسير ، فذكر المشبَّه (الصَّبَا) ، وحذف المشبَّه بِهِ (جهة من جهات المسير) ، وجاء بشيءٍ من لوازمه (الرَّاحِلَة) على سبيل الاستعارة المكنية .

* * *

ج- الكِنَايَة :

وهي ((أن يريد المُتَكَلِّمُ إثباتَ مَعْنَى من المَعَانِي ، فَلَا يَذْكُرُه بِاللَّفْظِ الموضوع له في اللُّغَة ، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه ورِدْفُه في الوجود ، فيومئ به إليه ، ويجعله دليلاً عليه)) ^(٢)

و ((الكِنَايَة : لفظٌ أُريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذٍ ، كقولك ، ((فلان طويل النجاد)) أي طويل القامة و ((فلانة نؤوم الضحى)) أي مرفهة مخدومة)) ^(٣) .

و ((تنقَسِمُ الكِنَايَة باعتبار المكنيِّ عَنْهُ ثلاثة أقسام ، فَإِنَّ المَكْنِيَّ عنه قد يكون صِفَةً ، وَقَدْ يكون موصوفاً ، وقد يكون نِسْبَةً)) ^(٤) وسوف أذكر على كُلِّ قِسْمٍ من أقسام الكناية ما يدلُّ عليه من نقائص جرير مع الأخطل .

* * *

(١) نقائص جرير و الأخطل ، ص ٨٤ .

(٢) دلائل الإعجاز ، ص ٦٦ .

(٣) الإيضاح في علوم البلاغة ، ص ٢٧٣ .

(٤) البلاغة الواضحة ، ص ١٢٥ .

أَوَّلًا : الكِنَايَة عَلَى صِفَة :

قال جرير ^(١) :

و التَّغْلِبِي إِذَا تَنَحَّنَحَ لِلْقِرَى

حَكَ اسْتَهُ ، وَتَمَثَّلَ الْأَمْثَالَ .

فهنا كناية عن صفة البُخْل عند التَّغْلِبِيِّين - كما يقول جرير - فَالتَّنَحُّنَحُ وتمثل الأمثال

عند القِرَى من علامات البخيل .

وقال جرير ^(٢) :

هَلْ تَمْلِكُونَ مِنَ الْمَشَاعِرِ مَشْعَرًا

أَوْ تَنْزِلُونَ مِنَ الْأَرَكَ ظِلَالًا ؟

إنَّه يُكْنَى عن صِفَة عند التَّغْلِبِيِّين ، وهي عَدَم التَّدِين بدين الإسلام ، فقد كُنَى

عن تلك الصِفَة بِأَنَّهُمْ لا يملكون مثل تلك المشاعر المقدسة التي عند المسلمين

ولا يقفون بِعَرَفَة كما يقف المسلمون في اليوم التاسع من

ذي الحجَّة لأداء الرُّكن الأعظم من أركان الحج .

وقال ^(٣) :

وَلَوْ ظَهَرَهُمُ الْأَسِنَّةَ وَالْقَنَا

قُبْحًا لَتِلْكَ عَوَاتِقًا وَظُهُورًا .

فقد كُنَى جرير في هذا البيت عن صِفَة الجُبْن و الخوف عند التَّغْلِبِيِّين بقوله : وَلَوْ

ظهورهم ... وتلك علامة الجبان حين يُوَلِّي ظَهْرَهُ هَارِبًا من ميدان

المعركة . وقد حذَّر الله في كِتَابِهِ الكَرِيم المؤمنين من أن يُوَلِّوا

ظهورهم الكُفَّار في وقت الزَّحْف ، فقال تَعَالَى : [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا

لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفُوا فَلَا تُؤَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ○ وَمَنْ يُؤَلِّمُ

(١) نقائض جرير و الأخطل ، ص ٨٩ .

(٢) المصدر السَّابِق ، ص ٩٢ .

(٣) المصدر السَّابِق ، ص ١٢٥ .

يَوْمَئِذٍ دُبْرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّقًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ
مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ [{الأنفال: ١٥ ، ١٦} .

وقال جرير (١) :

قَدْ أَطْلُبُ الْحَاجَةَ الْقُصْوَى فَأُذِرُكُهَا

وَلَسْتُ لِلْجَارَةِ الدُّنْيَا بِزَوَّارٍ .

فهو يُكْنِي عن صِفَةٍ أُصِيلَةٍ من صِفَاتِهِ ، وهي صِفَةُ الْعِفَّةِ ، فهو مُسْلِمٌ

يُثْنِي وَطَرًا عن الحرام ، ويحرص كُلَّ الحِصصِ على عِرْضِ جَارَتِهِ .

وقال (٢) :

إِنَّا وَ أُمَّكَ مَا تُرْجَى ظُلَامَتِنَا

عِنْدَ الْحِفَاطِ ، وَمَا فِي عَظْمِنَا خَوْرٌ .

فجرير يُكْنِي بقوله : وَمَا فِي عَظْمِنَا خَوْرٌ ، عن صِفَةِ وهي القُوَّةُ .

وقال كذلك (٣) :

وَالْأَكْلُونَ خَبِيثَ الزَّادِ وَحَدَهُمْ

وَ النَّازِلُونَ إِذَا وَارَاهُمُ الْخَمْرُ .

يُكْنِي جرير عن صِفَةِ ذَمِيمَةٍ عند التَّعْلِيْبِ ، وهي صِفَةُ البُخْلِ الشَّدِيدِ عندما

يَتَخَفُّونَ وراءَ الأشجار الكثيفة حتَّى لا يراهم أحد ، ويأكلون وحدهم ما

يناسب طباعهم القبيحة من لحم الخنازير .

* * *

(١) نقائض جرير و الأخطل ، ص ١٤٠ .

(٢) المصدر السَّابِقُ ، ص ١٧٠ .

(٣) المصدر السَّابِقُ ، ص ١٧٣ .

ثانياً : الكِنَايَةُ عن موصوفٍ :

قال جرير ^(١) :

عُقَابُ الْمَنَايَا تَسْتَدِيرُ عَلَيْهِمْ

وَشَعْتُ النَّوَاصِي لُجْمُهُنَّ تُصَلِّصِلُ .

شَعْتُ النَّوَاصِي : كناية عن الخيول التي تفرَّق شعْرُ نواصيها بسبب

شراسة المعركة وضرورتها .

وقال ^(٢) :

رُفِعَ الْمَطِيُّ بِكُلِّ أَشَعْتٍ شَاحِبٍ

خَلَقَ الْقَمِيصِ ، نَحَالُهُ مُخْتَالًا .

أَشَعْتٍ شَاحِبٍ : كناية عن موصوف ، وهو الرَّاكِب المُجْهَد من طول

المسير ، وتعب الرِّحِيل حَتَّى تَفَرَّقَ شَعْرُ رَأْسِهِ ، وَحَتَّى اعْتَرَاهُ الْهُزَالُ فِي جَسَدِهِ ، وَتَغَيَّرَ لَوْنُ وَجْهِهِ .

وقال ^(٣) :

إِنَّا لَنَبْلُو سُيُوفًا غَيْرَ مُخَدَّثَةٍ

فِي كُلِّ مُعْتَقِدِ التَّاجِنِ جَبَّارٍ .

مُعْتَقِدِ التَّاجِنِ جَبَّارٍ : كناية عن موصوف ، وهم المُلُوكُ وأصحاب السُّلْطَانِ .

وقال ^(٤) :

عَايَنْتُ مُشْعَلَةَ الرَّعِيْلِ كَأَنَّهَا

طَيْرٌ تُبَادِرُ فِي شَمَامٍ وَكُورًا ^(٥) .

(١) نقائض جرير و الأخطل ، ص ٦٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٨٥ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٤٧ .

(٤) المصدر السابق ، ص ١٢٤ .

(٥) المُشْعَلَةُ : المُتَفَرِّقَةُ . الرَّعِيْلُ : قِطْعَةٌ مِنَ الْخَيْلِ . شَمَامٌ : جَبَلٌ .

مُشْعَلَةَ الرَّعِيلِ : كناية عن خيول التَّغْلِبِيِّين المَهْزُومَةِ و المْتَفَرِّقَةِ و كأنَّهَا الطَّيُور المَسْرَعَةَ إِلَى أَوْكَارِهَا فِي الجِبَالِ .

ثالثاً : الكِنَايَةُ عَن نَسْبَةٍ :

قال جرير ^(١) :

تَسْرَبُلُوا اللُّؤْمَ خَلْقًا مِنْ جُلُودِهِمْ

ثُمَّ ارْتَدَوْا بِشِيَابِ اللُّؤْمِ وَاتَّزَرُّوا .

فَفِي البَيْتِ كِنَايَةُ عَن نَسْبَةٍ ، حَيْثُ نَسَبَ اللُّؤْمَ إِلَى جُلُودِ التَّغْلِبِيِّين وَثِيَابِهِمْ بَيْنَمَا أَرَادَهُمْ بِاللُّؤْمِ وَ قَصَدَهُمْ .

فجرير أراد أن يخصَّ التَّغْلِبِيِّين بِهَذِهِ الخِصْلَةِ الذَّمِيمَةِ ، وَأَنْ يُثَبِّتَهَا لَهُمْ وَهَذَا هُوَ - فِي الحَقِيقَةِ - الجَمَالُ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ هَذِهِ الصُّورَةُ المِثْلَةُ فِي الكِنَايَةِ إِذْ لَوْ عَبَّرَ جَرِيرٌ عَن هَذِهِ الخِصْلَةِ الَّتِي عِنْدَ التَّغْلِبِيِّين بِصَرِيحِ اللَّفْظِ وَنَسَبَهَا إِلَيْهِمْ مَبَاشَرَةً لَمَا ظَهَرَتِ الصُّورَةُ كَمَا يَنْبَغِي ، وَلَمَّا كَانَ لَهَا ذَاكَ الأَثَرُ المَلْحُوظُ وَالمَعْبُرُ .

* * *

وَمِنَ التَّرَاكِيْبِ الَّتِي وَظَّفَهَا جَرِيرٌ فِي شِعْرِهِ الَّذِي نَقَضَ بِهِ شِعْرَ الأَخْطَلِ :

١- الطَّبَاق :

وهو ((الجَمْعُ بَيْنَ المْتَضَادِّينِ ، أَيْ مُتَقَابِلِينَ فِي الجُمْلَةِ)) ^(٢) وَقَدْ اسْتَعْمَلَ جَرِيرٌ هَذَا

التَّرَكِيْبَ كَثِيرًا ، وَمِنَ شَوَاهِدِ ذَلِكَ :

١- قال جرير ^(٣) :

وَ الشَّاتِمُونَ بَنِي بَكْرٍ إِذَا بَطِنُوا

وَ الجَانِحُونَ إِلَى بَكْرٍ إِذَا افْتَقَرُوا .

فَنَلْحَظُ الطَّبَاقَ بَيْنَ كَلِمَتَيْ (بَطِنُوا) وَ (افْتَقَرُوا) .

^(١) نقائض جرير و الأخطل ، ص ١٧٢ .

^(٢) الإيضاح في علوم البلاغة ، ص ٢٨٨ .

^(٣) نقائض جرير و الأخطل ، ص ١٧٣ .

٢- وقال (١) :

تَحْدِي إِذَا عَلِمَ الْفَلَاةَ رَأَيْتَهُ

فِي الْآلِ يَقْصُرُ تَارَةً وَيَطْوُلُ^(٢).

في البيت طباق بين لفظتي (يقصر و يطول) .

٣- وقال جرير (٣) :

جَعَلْنَا الْقَصْدَ عَنْ شَطْبِ يَمِينًا

وَعَنْ أَجْمَادِ ذِي بَقَرٍ شِمَالًا .

نلاحظ الطِّبَاقَ بين لفظتي (يمينًا و شمالًا) .

٤- وقال (٤) :

فَجَعَلْنَا بَرْقَةَ عَاقِلِينَ أَيَامِنًا

وَجَعَلْنَا أَمْعَزَ رَامَتَيْنِ شِمَالًا .^(٥)

هنا طباق بين (أيامنًا و شمالًا) .

٥- وقال (٦) :

فَتَحْيَا مَرَّةً ، وَتَمُوتُ أُخْرَى ،

وَتَنْحَاهَا الْبَوَارِحُ وَالْقِطَارُ .^(٧)

هنا طباق بين (تحيا و تموت) .

(١) نقائض جرير و الأخطل ، ص ١٨١ .

(٢) تحدي : الوخذُ ضربٌ من السير .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٩١ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٨٥ .

(٥) بركة : موضع .

عَاقِلٌ : جَبَلٌ وَثَنَاهُ هُنَا لِلضَّرُورَةِ .

رَامَةٌ : مَوْضِعٌ وَثَنَاهَا - أَيْضًا - لِلضَّرُورَةِ .

أَمْعَزُ : الْأَرْضُ ذَاتُ الْحَصَى .

(٦) المصدر السابق ، ص ١٣١ .

الْقِطَارُ : السَّحَابُ الْكَثِيرُ الْقَطْرُ .

(٧) البوارح : الرياح .

٦- وقال (١) :

لَا يَأْمَنَنَّ قَوِيٌّ نَقْضَ مِرَّتِهِ

إِنِّي أَرَى الدَّهْرَ ذَا نَقْضٍ وَإِمْرَارٍ (٢).

نلاحظ الطَّباق بين لفظتي (نقض و إمّرار) .

٢- الْمُقَابَلَةُ :

وهي من التراكيب التي استخدمها جرير في نقائضه مع الأخطل على نطاق ضيق .
وقد قال عنها ابن رشيق : ((وأصلها ترتيب الكلام على ما يجب ، فيعطى
أول الكلام ما يليق به أولاً ، وآخره ما يليق به آخرًا ، ويأتي في الموافق
بما يوافقه ، وفي المخالف بما يخالفه .)) (٣)

ومن شواهدا في القرآن الكريم ، قوله تعالى : [فَلْيُضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا

كَثِيرًا] {التوبة: ٨٢} .

ومن شواهدا في نقض جرير شعر الأخطل ، قوله (٤) :

تُخَبِّرُ مَنْ لَأَقَيْتَ أَنَّكَ لَمْ تُصِبْ

عِثَارًا ، وَقَدْ لَأَقَيْتَ نَكْبًا عَلَى نَكْبٍ .

فهنا مقابلة بين (لم تُصِبْ عِثَارًا) و (قد لاقيت نكبًا على نكب) .

وقال جرير (٥) :

أَحِبُّ الظَّاعِنِينَ غَدَاةَ قَوْ

وَلَا أَهْوَى الْمُقِيمَ بِهِ الْحِلَالَ .

مقابلة بين (أحب الظاعنين) و (ولا أهوى المقيم) .

(١) نقائض جرير و الأخطل ، ص ١٤٠ .

(٢) نقض : فك . إمّرار : الرِّبْط بقوة .

(٣) العُمدة في محاسن الشعر و آدابه و نقده ، ٢٣/٢ .

(٤) نقائض جرير و الأخطل ، ص ١١٤ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١٩٢ .

ومن أجمل المقابلات التي رأيتها في شعر جرير الذي نقض به شعر الأخطل ، قوله ^(١):

تَلَقَاهُمْ حُلَمَاءَ عَنَ أَعْدَائِهِمْ

وَعَلَى الصَّدِيقِ تَرَاهُمْ جُهَّالًا .

فهي مقابلة بين شطري البيت .

٣- الاقتباس :

لا أتصور أن يخلو شعرُ شاعرٍ كجرير من الاستفادة من القرآن الكريم ، أو الحديث الشريف ، لاسيما أنني أثبتُّ خلال ما سبق من صفحات هذا البحث أن الرجلَ كان متأثراً بالإسلام في شعره متأثراً ملحوظاً ، وزاد من وضوح هذا التأثير ما رأيتُه في بعض أبياته الموجودة في النِّقائض من اقتباس من القرآن أو الحديث ، بل ربّما قرأتُ بيتاً من تلك الأبيات لِّلوهلة الأولى فذهب بي مباشرةً إلى نصِّ في القرآن الكريم ، و إلى كلمات بعينها لا يمكن أن أقول معها إلا أن جريراً تعمَّد ذلك الاقتباس وأراد الاستفادة من ذلك النصِّ القرآني وهو ينظم بيته ، ومثل ذلك أقوله في استفادته من نصوص الحديث الشريف .

و الاقتباس هو : ((تَضْمِينُ النَّثْرِ أَوْ الشُّعْرُ شَيْئاً مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، أَوْ الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ مِنْ غَيْرِ دَلَالَةٍ عَلَى أَنَّهُ مِنْهُمَا ، وَيَجُوزُ أَنْ يُغَيَّرَ فِي الْأَثَرِ الْمُقْتَبَسِ قَلِيلاً)) ^(٢)

ومن النماذج في نقض جرير شعر الأخطل على هذا التركيب ، وهذه الظاهرة

ما يلي :

١ - قال جرير ^(٣) :

هَلْ تَمْلِكُونَ مِنَ الْمَشَاعِرِ مَشْعَرًا

أَوْ تَنْزِلُونَ مِنَ الْأَرَكَ ظِلَالًا ؟

^(١) نقائض جرير و الأخطل ، ص ٩٦ .

^(٢) البلاغة الواضحة ، ص ٢٧٠ .

^(٣) نقائض جرير و الأخطل ، ص ٩٢ .

فلاحظ كلمة (المشاعر) و كلمة (مشعراً) فهما من الألفاظ الإسلامية التي عرفها المسلمون من خلال الكتاب و السنة ، وقد اقتبسهما جرير من مثل قوله تعالى : [لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَقَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ] {البقرة: ١٩٨} .

٢- قال جرير (١) :

الضَّارِبُونَ عَلَى النَّصَارَى جِزِيَّةً

وَهُدَى لِمَنْ تَبِعَ الْكِتَابَ وَنُورًا .

لا شك في أن جريراً قد اقتبس كلمات في هذا البيت من القرآن الكريم ، بل ومن الكلمات الكثيرة الورد في كتاب الله ، وهي (جزية ، هدى ، الكتاب ، نورا) ، فكلمة (جزية) وَرَدَتْ كما في قوله تعالى : [قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ] {التوبة: ٢٩} .

وكلمة (صاغرون) في الآية الكريم تذكرنا باقتباس جرير لها في قوله (٢) :

أَدَّ الْجِزْيَ وَدَعِ الْفَخَارَ بِتَغْلِبِ

وَإِخْسَاءِ بِمَنْزِلَةِ الذَّلِيلِ الصَّاعِرِ .

وأما الشطر الثاني من بيت جرير السابق ، وهو قوله : (وَهُدَى لِمَنْ تَبِعَ الْكِتَابَ وَنُورًا) ففيه ثلاث كلمات اقتبسها جرير من مثل قوله تعالى : [قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ] {المائدة: ١٥} ، وقوله تعالى : [قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ...] {الأنعام: ٩١} .

(١) نقائض جرير و الأخطل ، ص ١٢٤ .

(٢) ديوان جرير ، ص ٢١٧ .

٣- وقال جرير ^(١) :

اللَّهُ طَوَّقَكَ الْخِلَافَةَ وَالْهُدَى

وَاللَّهُ لَيْسَ لِمَا قَضَى تَبْدِيلُ .

فقوله : و الله ليس لما قضى تبديل ، اقتباس من القرآن الكريم من مثل قوله تعالى : [لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ] {يونس:٦٤} ، وقوله تعالى : [هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ] {غافر : ٦٨} .

٤- وقال جرير ^(٢) :

تَبِعُوا الضَّلَالََةَ نَاكِبِينَ عَنِ الْهُدَى

والتَّغْلِبِيُّ عَنِ الْقُرْآنِ ضَلُولُ .

إنَّ كَلِمَتِي (الضَّلالة) و (الْهُدَى) قد اقتبسهما جريرٌ من قوله تعالى : [أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبَحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ] . {البقرة : ١٦} .

٥- وقال جرير ^(٣) :

يُعْطَى كِتَابَ حِسَابِهِ بِشِمَالِهِ

وَكِتَابُنَا بِأَكْفَانِ الْإِيمَانِ .

إنَّ هذا البيت كاملاً لا يخفى على أحدٍ أنَّ جريراً قد اقتبسَ بعضَ كلماته كما اقتبس معناه من آيتين في سورة الحاقة ، وهما قوله تعالى : [فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَعُوا كِتَابِيهِ] {الحاقة:١٩} ، وقوله تعالى : [وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهِ] {الحاقة:٢٥} .

(١) نقائض جرير و الأخطل ، ص ١٨٣ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٨٤ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٠٨ .

٦- وقال جرير ^(١) :

مُوتُوا مِنَ الْغَيْظِ غَمًّا فِي جَزِيرَتِكُمْ

لَنْ تَقْطَعُوا بَطْنَ وَاِدٍ دُونَهُ مُضَرُّ .

نلاحظ الاقتباس الواضح في قول جرير : (موتوا من الغيظ) ، وهو اقتباس من القرآن

الكريم ، من قوله تعالى : [قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ] { آل عمران: ١١٩ } .

هذا في جانب اقتباس جرير من القرآن الكريم ، أمّا اقتباسه من الحديث الشريف فيكفي

أن أشير إلى استخدامه لكلمة (مُصْفَح) ، في قوله ^(٢) :

لَقَدْ سُلَّ أَسْيَافُ الْهُذَيْلِ عَلَيْكُمْ

رِقَاقَ النَّوَاحِي ، لَيْسَ فِيهِنَّ مُصْفِحٌ .

فقد اقتبسها من الحديث الشريف الذي جاء فيه قول سعد بن عبادة : ((لو رأيت رجلاً مع

امرأتي لَضَرَبْتُهُ بِالسَّيْفِ غَيْرَ مُصْفِحٍ عَنْهُ)) ^(٣) والمصْفَح الذي يضرب بعرض السيف .

* * *

(١) نقائض جرير و الأخطل ، ص ١٧٣ .

(٢) ديوان جرير ، ص ٧٩ .

(٣) انظر صحيح مسلم ، كتاب اللعان ، ص ٦١٨ .

ثانياً :

الإيقاع

تمهيد :

عَرَّفَ ابنُ خَلْدُونُ الشُّعْرَ بقوله : ((الشُّعْرُ هو الكَلَامُ البليغُ المَبْنِيُّ على الاستعارة والأوصافِ ، المَفْصَّلُ بأجزاءٍ مُتَّفِقَةٍ في الوزنِ والرَّوِيِّ ، مُسْتَقِلٌّ كلُّ جزءٍ منها في غَرَضِهِ وَمَقْصِدِهِ عَمَّا قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ ، الْجَارِي على أساليبِ العربِ المخصوصَةِ به))^(١)

و (الشُّعْرُ هو الكَلَامُ الموزون المُقَفَّى ، المعبَّرُ عن الأَحْيَالِ البديعة ، والصُّوَرِ المؤثرة البليغة) .^(٢) وهو فنُّ جميلٌ يخاطبُ في أغلبِ أحواله العاطفةَ ، ويؤثِّرُ في المشاعرِ والوجدانِ ، ويزدادُ حُسْنُهُ إذا أبدَعَ الشَّاعِرُ في تَخْيِيرِ ألفاظه ، واعتنى بتركيبِ كلماته ، وأجادَ في تواليِ مقاطعِهِ وانسجامها بحيث تُحدِثُ ذلك النَّعَمَ الذي تطرب له الآذان الذَّوَّاقَةُ ، وتأنس به الأحاسيس المرهفة . فهو - في النهاية - صورة جميلة بديعة من صور الكلام .

((وَيُحَدِّثُنَا مَنْ كَتَبُوا في عِلْمِ النَّفْسِ الموسيقي عن كَيْفِيَّةِ شعور المرءِ بِنَعَمِ الكلام فيقولون : إنَّ هنالك ميلاً غريزيّاً في كلِّ كتلةٍ من عدّةِ مقاطعٍ تشبه الفقراتِ القصّارِ ، أو العباراتِ الصَّغِيرَةِ . فقد نسمعُ في عشرٍ من الثَّواني ما يكاد يبلغ خمسين مقطوعاً صوتياً ، تسمعها الأذنُ فتلتقطُها كُتلاً من المقاطعِ تطولُ أو تقصرُ ، فإذا تَرَدَّدَتْ في أواخر هذه الكُتَلِ الصوتيَّةِ مقاطعٌ بعينها شعَرْنَا بسهولة ترديدها ، وأحسَّسْنَا بغبطةٍ وسرورٍ حين سماعها ، وبعثَ هذا فينا الرِّضا والاطمئنان إليها .))^(٣)

ومن خلال ما سبق يتبيّن لنا أنّ من أهمِّ ما يميّز الشُّعْرَ هو تلك الموسيقى المنبعثة نتيجةً للنَّعَمِ والوزنِ والقافية ، فهي إمّا أن تكون موسيقى داخليةٍ أو موسيقى خارجيةٍ ، وهنالك الموسيقى الصَّادِرة من المقاطع الصوتيَّةِ أو من الكلمات ، وربّما من الحروف . فقد يكون للحرف الواحد أثره الكبير في صُنْعِ موسيقى خاصّة مؤثرة في الكلمة بأكملها ومن ثمّ في

(١) مقدّمة ابن خلدون ، عبد الرحمن بن خلدون ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ،

١٤١٣هـ ، ص ٤٩٢ .

(٢) تاريخ الأدب العربي ، أحمد حسن الزيات ، ص ٢٥ .

(٣) موسيقى الشُّعْر ، د : إبراهيم أنيس ، مكتبة الأنجلو المصريّة ، القاهرة ، مصر ، الطبعة

الرابعة ، ص ١١ .

البيت الذي هو جزء من قصيدة تزداد حُسْنًا بحُسْنِ هذا البيت الذي حَسُنَتْ كَلِمَاتُهُ بِحُسْنِ حروفها .

وما أريد الوصول إليه هو ذلك الإيقاع الذي تميّزت به قصائد جرير التي نَقَضَ بها قصائد للأخطل ، وكيف كان لذلك الإيقاع أثره العميق في مجريات القصيدة ، فجرير أَحْسَنَ وأجَادَ في اختيار الكلمات التي تخدم هَدَفَهُ ، وَتُحَقِّقُ الغاية التي تاق إليها في هجائه وتبكيته للأخطل ، وما كان للكثير من الكلمات أن تُحَقِّقَ الهدفَ المرجوَّ منها إلا من خلال الإجادة كذلك في اختيار الحرف المناسب المُحَقِّقِ للغرض المراد تحقيقه .

و ((الشَّاعِرُ يَسْعَى إِلَى التَّعْبِيرِ عَنْ مَعَانٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنْ خِلَالِ بِنْيَةِ إِيقَاعِيَّةٍ مُتَكَرِّرَةٍ فِي الْبَيْتِ ، وَكَلِمًا وَفُقَّ الشَّاعِرُ فِي التَّعْبِيرِ عَنْ هَذِهِ الْمَعَانِي فِي نِطَاقِ بِنْيَةِ إِيقَاعِيَّةٍ وَاحِدَةٍ ، كَلِمًا كَانَ ذَلِكَ أَقْرَبَ إِلَى الْكَمَالِ ...)) .^(١)

وقد وَعَى جرير هذه الحقيقة فجاءنا شِعْرُهُ فِي الْهَجَاءِ قَوِيًّا ذَا أَلْفَاظٍ جَزَلَةٍ غَلِيظَةٍ تَسْتَمِدُّ جِزَالَتَهَا وَقُوَّتَهَا مِنْ حُرُوفٍ تَحْمِلُ صِفَاتِ الْقُوَّةِ وَالشَّدَّةِ .

وبالتالي فَإِنَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ الَّتِي حَمَلَتْهَا الْحُرُوفُ وَالْكَلِمَاتُ فِي نَقْضِ جَرِيرِ شِعْرِ الْأَخْطَلِ ، وَالَّتِي هِيَ صِفَاتُ الْجِزَالَةِ وَالْقُوَّةِ - كَمَا أَسْلَفْتُ - كَانَ لَهَا تَأْثِيرٌ فِي الْوَاضِحِ فِي نَفْسِ الْأَخْطَلِ ، وَكَانَتْ بَاعِثَةً لِلْحَمَاسِ وَالْإِثَارَةِ فِي نَفُوسِ السَّامِعِينَ مِمَّنْ كَانُوا يَحْضُرُونَ تِلْكَ اللَّقَاءَاتِ الشُّعْرِيَّةَ بَيْنَ الشَّاعِرَيْنِ .

ولا شَكَّ أَنَّ تِلْكَ الْأَلْفَاظَ الْقَوِيَّةَ حَمَلَتْ مَعَهَا مَعَانِي هِيَ مِنَ الْقُوَّةِ وَالْجِزَالَةِ بِحَيْثُ زَلَزَلَتْ الْأَخْطَلِ عِنْدَمَا سَمِعَهَا وَجَعَلَتْهُ يَتَأَرَّجِحُ أَمَامَهَا . وَمِنْ هُنَا كَانَ حَقًّا ((اللَّفْظُ جِسْمٌ ، وَرُوحُهُ الْمَعْنَى ، وَارْتِبَاظُهُ بِهِ كَارْتِبَاظِ الرُّوحِ بِالْجِسْمِ ، يَضْعَفُ بِضَعْفِهِ ، وَيَقْوَى بِقُوَّتِهِ . فَإِذَا سَلِمَ الْمَعْنَى وَاخْتَلَّ بَعْضُ اللَّفْظِ كَانَ نَقْصًا لِلشُّعْرِ وَهَجْنَةً عَلَيْهِ ...)) .^(٢)

^(١) انظر محاضرات الموسم الثقافي لكلية اللغة العربية ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ،

١٤٢٢هـ ، ص ١٧٢ .

^(٢) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، ١ / ١١٢ .

وبالتأمل في نقض جرير شعر الأخطل وجدتُ أن جريراً كان متمكناً ومتقناً لصنعتة حيث لم يغفل موسيقى اللفظ وجرسه بل اهتم بذلك اهتماماً كبيراً واكبه اهتمامه - أيضاً - بموسيقى الحرف ، الأمر الذي استطاع معه أن يعبر عن أفكاره ، ومكنون نفسه ، وعاطفته تعبيراً صادقاً ؛ ومن ذلك ما نلاحظه في قوله (1) :

إِذَا الزَّمَانُ زَمَانٌ لَا يُقَارِبُهُ

هَذَا الزَّمَانُ وَإِذْ فِي وَحْشِهِ غَرْرٌ . (2)

فإذا سمع السامع ألفاظ هذا البيت توقّف عند كلمة (الزمان) التي جاءت مرّتين بالتعريف ، ومرّةً بالتّكبير (زمان) ، فهي بذلك كرّرت في بيت واحد ثلاث مرات ، فإذا تأملنا هذه الكلمة بأكملها استشعرنا الشكوى المريرة ، والهموم المتلاحقة التي يعيشها جرير ، كما يعيشها غيره ، وتقلّبت أمامنا صروف الزمان ، وأهواله ومصائبه وخطوبه ، فجرير يشكو من الزمن وغفلته ، وظلمه ، وجوره ، واعتدائه ، كما يشكو منه البشر على مرّ التاريخ .

وإذا نظرنا إلى حروف كلمة (الزمان) ، لاحظنا صوت (الزاي) المشدّد ، وما فيه من صفات الجهر الذي له تأثيره الواضح على أذن السامع ، يُضاف إلى ذلك ما تولّد من موسيقى ناتجة من تكرار هذا الحرف مرّتين بالتّشديد ، ومرّة بدون تشديد .

وفي كلمة (الزمان) يستوقف السامع حرف المدّ (الألف) الذي جاء ثلاث مرّات ، وهذا المدّ وتكراره يوحيان بطول هذا الزمان ، وما يحمله هذا الطول من هموم وصروف ومصائب .

وفي كلمة (الزمان) نتوقّف - كذلك - عند صفة جديدة لصوت جديد وظفه جرير بعناية فائقة ، وهو صوت حرف النون في آخر الكلمة ، فهذا الحرف وما فيه من رقة وهدوء ، وثبات ، واستقرار يوحي للسامع بأنّ هذا الاستقرار من أعباء الزمان جاء بعد مددٍ طويلة ، وحقبٍ متتالية ، وأحداثٍ متتابة ، متلاحقة ، مليئة بالحياة ، والحركة ، والتقلّبات ، والتغيّرات .

(1) نقائص جرير والأخطل ، ص ١٦٦ .

(2) غرر : جمع غرّة وهي العفلة .

وقبل أن أتجاوز هذا البيت نلاحظ تكرر حرف الذال في ثلاث كلمات هي :
إِذَا ، إِذ ، هذا ، وهذا الحرف يدل على الجهر والحركة ، وهذا التكرار لصوت (الذال)
يشعرنا بتكرار وتلاحق وتتابع أحداث الزمان .

ولنا أن نتأمل كلمة (وَحْشِيهِ) ، وكلمة (غِرْرُ) ، وما فيهما من إيجاء بهول الزمن
وصعوبته وهمومه .

إنَّ الجرس الموسيقي للحروف في هذا البيت نقل لنا المعنى الذي يريده جرير نقلاً
واضحاً لا لبس فيه ، بحيث أدت تلك الحروف المعنى المراد الذي لا يمكن لحروف غيرها أن
تؤديه ، وهذه من البراعة المعهودة عند جرير .

وفي نفس القصيدة ينتقل جرير إلى هجاء الأخطل ببيت تبرز فيه موسيقى أخرى ،
ويظهر فيه جرس آخر للفظ وقع موقعه في نفس المهجو ، حيث قال ⁽¹⁾ :

إِنَّ الْأَخْيَطِلَ خِنْزِيرٌ أَطَافَ بِهِ

إِحْدَى الدَّوَاهِي الَّتِي تُخْشَى وَتُنْتَظَرُ .

إننا حين نسمع كلمة (خِنْزِير) في البيت السابق نستحضر معها المعنى القبيح لها ،
وتذهب نفوسنا مذهبة في تخيل صورة ذلك الحيوان القدير الذي تنفر منه الطباع
السليمة ، وتشمئز منه النفوس المسلمة .

فصوت هذه الكلمة وجرسها تغلب عليهما الكسرة ، حيث نلاحظ فيها حرفين
مكسورين هما (الخاء) ، (الزاي) لدرجة المدّ بالياء بعدها ، ويفصل بين هذين
الحرفين المكسورين سكون (التون) ، فإذا لاحظنا أن هذه الكلمة قد غلب عليها صوت
الكسر علاوة على معناها القبيح في النفس ، تبين للسامع ما تحمله الكسرة من معاني الذلّة
والانكسار ، والضعة ، والقبح ، والحقارة ، والخنوع .

ولعل كلمة (خِنْزِير) في بيت جرير السابق تُذكّرنا بترقيق الرّاء في كلمة (فرعون) في
القرآن الكريم ، وهو ما يدل على الحقارة ، والذلة ، والصغار ، لمن ادّعى أنه الإله ،
وَطَعَى ، وَتَكَبَّرَ ؛ كما قال تعالى : [وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا
يَعْرِشُونَ] {الأعراف: ١٣٧} ، وقال تعالى : [وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ]

(1) نقائص جرير والأخطل ، ص ١٧٥ .

{هود: ٩٧} ، والآيات التي جاءت فيها لفظة فرعون كثيرة ، وهي لا تكون إلا مرفقة
الراء .

ولما عَلِمَهُ جرير في شِدَّةِ وَقَعِ كَلِمَةِ (خِنْزِير) على نفس الأخطل فقد أَكْثَرَ مَنْ
ذَكَرَهَا ، وأمثلة ذلك كثيرة فيما مرَّ بنا خلال مباحث هذه الرِّسَالَةِ ، الأمر الذي أرى معه
الاكتفاء بذكر تلك الشُّواهد فيما سبق وعدم تكرارها هنا .

وفي الشَّطْرَ الثَّانِي من البيت السَّابِقِ يَلْفَتُ انتباه السَّامِعِ جَرَسُ موسيقىٍ آخَرَ ناتجٍ عن
كَلِمَةِ (تُنْتَظَرُ) ، حيث إنَّ الانتظار يُشْعِرُ بِالْقَلْقِ والتَّرْدُّدِ والارتباك والملل .

وفي تكرار جرير لصوت (التَّاء) مرَّتين في هذا الفِعْلِ مع الفِصْلِ بينهما بالنُّونِ
السَّاكِنَةِ ، ما يُوحِي بتلاؤم المعنى في الكلمة حيث القلق و الارتباك والتَّرْدُّدِ والشُّعُورِ
بالخوف مِمَّا يُنْتَظَرُ .

وفي قول جرير ^(١) :

وَالْمُقَرَّعُونَ عَلَى الْخِنْزِيرِ مَيْسِرَهُمْ

بُسِّ الْجَزُورُ وَبُسِّ الْقَوْمِ إِذْ جَزَرُوا .

نلاحظ موسيقى كلمة (المقرعون) ، فهذه الموسيقى تحاكي ما يحصل في عملية
الاقتراع ، وهذه الموسيقى ناتجة من صوت (القاف) و (الراء) و (العين) ، فكأنَّها
حروف في هذا السِّياق تحاكي ما يحصل من صَخَبٍ وَجَلْبَةِ وَضَجِجٍ عند الاقتراع .
وفي قول جرير ^(٢) :

وَمَقْتُولَةٍ صَبْرًا تَرَى عِنْدَ رِجْلِهَا

بَقِيرًا ، وَأُخْرَى ذَاتُ بِنْتٍ تُوَلِّوُلُ .

^(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٧٦ .

^(٢) المصدر السابق ، ص ٦٨ .

وقوله (١) :

عُقَابُ الْمَنَايَا تَسْتَدِيرُ عَلَيْهِمْ

وَشُعْتُ النَّوَاصِي لُجْمُهُنَّ تُصَلِّصِلُ .

وقوله (٢) :

والتَّغْلِيُّ إِذَا تَنَحَّحَ لِلْقَرَى

حَكَ اسْتِيَهُ ، وَتَمَثَّلَ الْأَمْثَالَا .

تلقتُ أسمعنا أجراس بعض الألفاظ مثل : (تُؤَلِّوْلُ) ، (تُصَلِّصِلُ) ، (تَنَحَّحَ) ، حيثُ إِنَّا نجدُ فيها الموسيقى ، فمن تكرر حروفها وأصواتها ما يُحاكي أصوات أفعالها ، فكلمة (تُؤَلِّوْلُ) تحاكي صوت الحدث نفسه ، وهو ما تفعله المرأة من وَلَوْلَةٍ عندما تُفَجِّعُ من أيِّ حَدَثٍ .

وفي صوت كلمة (تُصَلِّصِلُ) ما يحاكي صوت اللجام وما يصدر عنه من صَلِّصَلَةٍ فكيف إذا كانت هذه الصِّلَصَلَةُ ناتجة عن لُجْمٍ كَثِيرَةٍ !!؟ .

وكذلك نقول في كلمة (تَنَحَّحَ) ، فحروف هذه اللفظة تُحاكي ما يحصل من البخيل من نَحْنَحَةٍ تُغْنِيهِ عن الكلام الذي يريد أن يقوله . ونلاحظ - كذلك - الموسيقى الناتجة عن كلمتي (تَمَثَّلَ) ، (الأمثالا) ، وما في ذلك من إراحةٍ للأذن .

وقال جرير هاجياً الأخطل (٣) :

تَصَلَّيْتُ بِالنَّارِ الَّتِي يَصْطَلِّي بِهَا

فَأَرْدَاكَ فِيهَا ، وَافْتَدَى بِكَ مِنْ حَرْبِي .

فمجيء حرف (الصَّاد) مع حرف (الطَّاء) في كلمة (يَصْطَلِّي) يُشْعِرُ بالاصطلاء وهو العذاب في النَّارِ ، ومن ذلك قوله تعالى : [لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى] {الليل: ١٥} ، وقوله تعالى : [إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ] {الصَّافَّات: ١٦٣} ، وقوله تعالى : [ثُمَّ الْجَحِيمِ صَلْوُهُ] {الحاقة: ٣١} .

(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ٦٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٨٩ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١١٤ .

فالفعل (يصطلي) يحاكي صوت النَّار .

الوزن والقافية والبديع في نقض جرير شعر الأخطل :

إنَّ أبرز ما يميّز الشَّعر عن النَّثر هي تلك الإيقاعات والنَّغمات والموسيقى ، وهذه النَّغمات تتمثّل في الأوزان والتّفعيلات الموجودة في البيت الشّعري .

وهناك القافية و ((هي السَّاكِنان اللَّذان في آخر البيت مع ما بينهما من الحروف المتحرّكة ، ومع المتحرّك الذي قبل السَّاكن الأوّل ، أي أنّها من المتحرّك قبل السَّاكِنين إلى آخر البيت)) .^(١) وهي ((المقاطع الصوتيّة التي تكون في أواخر أبيات القصيدة ، أي المقاطع التي يلزم تكرار نوعها في كل بيت)) .^(٢)

كل ذلك له أثره على السّامع حيث يلفت انتباهه ، ويجذبه لاستماع القصيدة ممّا يجعل هذا السّامع يتوق لمعرفة معاني القصيدة وبالتالي دخول تلك المعاني إلى عقله وقلبه .
((وقد أعان الخليل على تثبيت هذه الأوزان وضبطها بالمقاطع التي دعاها بالتّفاعيل وتصنيفها إلى البحور المعروفة ، معرفته بالإيقاع والنّعم .))^(٣)

وهكذا يتبيّن لنا الأثر المهم لتذوق الموسيقى الشعريّة على السّامع واهتمام الشعراء بالنّعم والإيقاع إلى جانب اهتمامهم بالمعاني التي تصل إلى القلوب والأذهان عن طريق الإحادة في النّعم والموسيقى .

أمّا إذا جئنا إلى فنّ النّقائض فإنّنا نجد الشّاعر وخصمه يمثّلان فريقين لكل فريق مَنْ يشجّعه ويؤازره ، ويطرب لقصائده . من أجل ذلك كان لزاماً على كلّ شاعرٍ أن يهتمّ بمن يشجّعه إلى جانب اهتمامه بأن تصبح له مكانته المرموقة وذلك من خلال اهتمامه باختيار قصائده بكلّ عناية بأن يُحسّن اختيار البحر المناسب ، والقافية المناسبة .

(١) العرّوض القديم أوزان الشّعر العربي وقوافيه ، د: محمود علي السّمّان ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٦م ، ص ٢١٥ .

(٢) علم العرّوض و القافية ، د: عبد العزيز عتيق ، دار النهضة العربية ، بيروت ، لبنان ، بدون رقم طبعة ، ١٤٠٧هـ ، ص ١٣٤ .

(٣) فنّ التّقطيع الشّعري و القافية ، د: صفاء خلوصي ، مكتبة المثني ، بغداد ، الطبعة الخامسة ، ١٩٧٧م ، ص ٩ .

فإذا استيقنَ من ذلك واطمأنَّ إليه كان أمر وصول المعاني إلى أذهان السَّامعين أمراً سهلاً ويسيراً .

ولعل أبرز ما يُقابلنا في موسيقى الشَّعر (العَرُوض) :

و (العَرُوض لغةٌ : عَرُوضُ الشَّعر وهي فواصلُ أنصافِ الشَّعر وهو آخر النصف الأول من البيت ، والجمع أعاريض ، وسُمِّيَ عَرُوضاً لأنَّ الشَّعر يعرض عليه ، فهو ميزانه يُعرف به مكسورة من موزونة .)^(١)

* * *

● البحور :

وإذا جئنا إلى قصائد جرير وجدنا أنه نوع في البحور الشَّعريَّة التي يستخدمها ، فالنفس البشريَّة جُبِلتْ على حبِّ التنويع ، وهذا ما وضعه جرير نصب عينيه ((ففي ديوان جرير ما يقرب من ٥٧٠٠ من الأبيات موزَّعة حسب النَّسب الآتية :

الطويل ٣١% الكامل ٢٩% الوافر ٢٣% البسيط ١٦% الرَّجَز ٢% المتقارب ١% وقد جاء بجزأي الديوان ما يقرب من ٣٩ بيتاً من البحر السريع .))^(٢)

تسع قصائد ذكرها أبو تمام في كتابه ((نقائص جرير و الأخطل)) ، نَقَضَ بِهَا جريرُ قصائدَ الأخطل ، وقد كانت تلك القصائد من حيث البحور ، على التَّحْوِ التَّالي :
ثلاث قصائد على بحر الكامل ، وقصيدتان على بحر الطَّويل ، وقصيدتان على بحر البسيط ، وقصيدتان على بحر الوافر .

* * *

(١) التَّوضيح في علم العَرُوض و القافية ، د: علي نجيب عطوي ، دار اللواء ، الرياض ، المملكة العربية

السعودية ، الطبعة الأولى ، ١٤١١ هـ ، ص ٣٩ .

(٢) موسيقى الشَّعر ، ص ١٩٣ ، ١٩٤ .

❖ أولاً : بحر الكامل :

و ((سُمِّيَ كَامِلًا لِتَكَامُلِ حَرَكَاتِهِ ، وَهِيَ ثَلَاثُونَ حَرَكَةً لَيْسَ فِي الشُّعْرِ شَيْءٌ لَهُ ثَلَاثُونَ حَرَكَةً غَيْرَهُ .))^(١)

ووزن هذا البحر هو^(٢) :

مُتَفَاعِلُنْ مُتَفَاعِلُنْ مُتَفَاعِلُنْ

مُتَفَاعِلُنْ مُتَفَاعِلُنْ مُتَفَاعِلُنْ .

وقد ذَكَرَ جريرٌ على هذا البحر سبعةً وخمسين بيتاً في قصيدته التي مطلعها^(٣) :

وَدَّعْ أَمَامَةَ حَانَ مِنْكَ رَحِيْلُ

إِنَّ الْوَدَاعَ مِنَ الْحَبِيْبِ قَلِيْلُ .

واثنين و أربعين بيتاً في قصيدته التي مطلعها^(٤) :

رَحَلَ الْخَلِيْطُ فزَايَلُوكَ بُكُورًا

وَ حَسِبْتَ بَيْنَهُمْ عَلَيْكَ يَسِيْرًا .

وثمانية وخمسين بيتاً في قصيدته التي مطلعها^(٥) :

حَيِّ الْغَدَاةِ بِرَامَةِ الْأَطْلَالِ

رَسْمًا تَحْمَلُ أَهْلُهُ فَاحَالًا .

ولا يخفى ما في هذا البحر من القوة و الفخامة بحيث يكون مناسباً لغرضي الهجاء

و الفخر ، الأمر الذي حدا بجريرٍ إلى أن يُكثِرَ من نظم قصائده التي نقضَ بها قصائد الأخطل عليه .

(١) التّوضيح في علم العرّوض و القافية ، ص ٦٠ .

(٢) المرجع السّابق ، نفس الصفحة .

(٣) نقائض جرير و الأخطل ، ص ١٧٨ .

(٤) المصدر السّابق ، ص ١١٩ .

(٥) المصدر السّابق ، ص ٨٣ .

يقول جرير (١) :

قَيْسٌ وَخِنْدِفٌ إِنْ عَدَدْتَ فَعَالَهُمْ

خَيْرٌ وَأَكْرَمٌ مِنْ أَيْبِكَ فَعَالَا .

إِنْ حَرَّمُوكَ لَقَدْ حَرُمْتَ عَلَيَّ الْعِدَى

أَوْ حَلَّلُوكَ لَتُؤَكَّلَنَّ حَالَا .

هَلْ تَمَلِّكُونَ مِنَ الْمَشَاعِرِ مَشْعَرًا

أَوْ تَنْزِلُونَ مِنَ الْأَرَكَ ظِلَالَا ؟

نلاحظ قوّة الفخر و الهجاء ، و حصول الانسيابية العفوية الناتجة عن طواعية بجزر

الكامل لغرضي الهجاء و الفخر .

ومن ذلك - أيضا - قول جرير (٢) :

كَذِبَ الْأَخِيْطَلُ مَا لِنِسْوَةِ تَغْلِبِ

حَامِي الذَّمَّارِ ، وَمَا يَغَارُ حَلِيلُ .

إِذْ ظَلَّ يَحْسِبُ كُلَّ شَخْصٍ فَارِسًا

وَيَرَى نَعَامَةً ظِلَّهُ فِيَجُولُ .

نلاحظ قوّة الهجاء في قول جرير : (كذب الأخيطل) ، وفي قوله : (وما يغار

حليل) ، وكذلك في قوله : (ويرى نعامة ظله فيجول) ، وزاد من هذه القوّة أن كانت

تلك العبارات على بحر الكامل بما فيه من فخامة ، وجلجلة في أوزانه .

❖ ثانياً : بحر البسيط :

و ((سُمِّيَ بَسِيْطًا ، لِأَنَّ الْأَسْبَابَ انْبَسَطَتْ فِي أَجْزَائِهِ السُّبَاعِيَّةِ ، فَحَصَلَ فِي أَوَّلِ كُلِّ

جُزْءٍ مِنْ أَجْزَائِهِ السُّبَاعِيَّةِ سَبَبَانٌ ، فَسُمِّيَ لِذَلِكَ بَسِيْطًا . وَقِيلَ : سُمِّيَ بَسِيْطًا ، لِانْبِسَاطِ

الْحُرُوكَاتِ فِي عَرُوضِهِ وَضَرْبِهِ)) (٣) .

(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ٩٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٦٨ .

(٣) الوافي في العروض و القوافي ، الخطيب التبريزي ، تحقيق د / فخر الدين قباوة ، دار الفكر ، دمشق ،

سورية ، الطبعة الرابعة ، ١٤٠٧هـ ، ص ٥٤ .

و ((وزن الشَّطْرُ في هذا البحر هو : مستفعِلن + فاعِلن + مستفعِلن + فاعِلن))^(١) وقد نظم جريرٌ على هذا البحر قصيدتين من أروع قصائده التي نَقَضَ بِهَا قِصَائِدَ للأخطل ، كانت القصيدة الأولى في سِتِّينَ بَيْتًا ، وهي قصيدته التي مطلعها^(٢) :

قُلْ لِلدِّيَارِ : سَقَى أَطْلَالَكَ الْمَطْرُ

قَدْ هَجَّتْ شَوْقًا ، وَمَاذَا تَنْفَعُ الذُّكْرُ ؟ .

وكانت الثانية ، في خمسة و أربعين بيتًا ، وهي القصيدة التي قال في مطلعها^(٣) :

حَيُّوا الْمُقَامَ ، وَحَيُّوا سَاكِنَ الدَّارِ ،

مَا كِدْتَ تَعْرِفُ إِلَّا بَعْدَ انْكَارِ .

فلاحظ أن جريراً قد أبدع في كُلِّ من القصيدتين ، لا سيَّما في قصيدته ((قُلْ لِلدِّيَارِ : سَقَى أَطْلَالَكَ الْمَطْرُ)) ، رغم أنه لم يَقم باختيار هذا البحر ، وإثما فُرِضَ عليه فَرَضًا . ((أمَّا عن فنِّ الشَّاعِرِينَ في هذه المناقضة فيلاحظ أن الأخطل كان حُرًّا في اختيار البحر والقافية إذ كان هو البادئ ، فاضطر جريرٌ أن يتابعه فيهما ، وفي إمكان الأخطل أن ينفق من الوقت ما يشاء في تنميق قصيدته بعكس جرير الذي يجب عليه أن يسرع في الردِّ قبل فَوَاتِ الأوان .))^(٤)

ولعل هذه القصيدة قد نالت حظَّها من الشَّرْحِ و التَّحْلِيلِ عندما تحدَّثتُ فيما سبق عن بناء القصيدة ، غير أن نظَّمها على بحر البسيط أضفى عليها قوَّةً وجزالة .

إنَّ جريراً - وفي فترةٍ وجيزة - استطاع أن يردَّ على خَصْمِهِ رَدًّا عَنِيفًا ، ومن خلال ذلك البحر الذي اختاره الخَصْمُ نفسه ، فأتى جريرٌ بعبارات كالصَّواعق في هجاء الأخطل ، لم يستطع معها هذا الأخير أن يدافع عن نفسه أمام تلك الأبيات المتتالية و المتلاحقة ، و التي تحمل في مقاطعها ردودًا لم يكن يتوقعها ، فإذا تأملنا قول جرير : تَسْرَبُلُوا اللُّؤْمَ خَلْقًا مِنْ جُلُودِهِمْ ، وقوله : رَجَسُ يَكُونُ إِذَا صَلَّوْا ، وقوله : حَتَّى سَمِعْتُ

(١) موسيقى الشعر ، ص ٧١ .

(٢) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٦٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٤٠ .

(٤) تاريخ النقائض في الشعر العربي ، ص ٣٩٧ .

بِحَنْزِيرٍ ضَعَا جَزَعًا ، وقوله : إِنَّ الْأُخَّ... يَطْلُ حَنْزِيرٌ ... وَجَدْنَا أَنَّهَا عِبَارَاتٌ قَوِيَّةٌ تُمَثِّلُ قِئَمَةَ الْمَهْجَاءِ الْمُقْدَعِ الَّذِي عُرِفَ بِهِ جَرِيرٌ ، وَلَكِنَّ الْإِتْيَانَ بِهَا فِي سِيَاقِ بَحْرِ الْبَسِيطِ مَكَّنَ لَهَا أَنْ تَكُونَ أَشَدَّ وَقَعًا ، وَأَسْرَعَ فِي الْوَصُولِ إِلَى أُذُنِ الْخِصْمِ .
والأمثلة في تلك القصيدة كثيرة على إبداع جرير في فخره وهجائه من خلال استخدامه لبحر البسيط .

وَأَمَّا إِذَا انْتَقَلْنَا إِلَى الْقَصِيدَةِ الثَّانِيَةِ فَتَرَى أَنَّ جَرِيرًا قَدْ بَدَأَهَا بِثَلَاثَةِ عَشْرَ بَيْتًا يَذْكَرُ فِي أُولَاهَا التَّحِيَّةَ عَلَى دَارِ حَبِيبَتِهِ وَعَلَى سَاكِنِيهَا . تِلْكَ الدَّارُ الَّتِي مَا كَادَ يَعْرِفُهَا بِسَبَبِ بَعْدِهِ الطَّوِيلِ عَنْهَا ، ثُمَّ يَذْكَرُ الْأَطْلَالَ فِي ثَلَاثَةِ آيَاتٍ مِنْ ضَمَنِ تِلْكَ الْآيَاتِ الثَّلَاثَةِ عَشْرَ ، وَهِيَ آيَاتٌ غَايَةٌ فِي الْجَمَالِ ، قَالَ فِيهَا ^(١) :

إِذَا أَقُولُ : تَرَكْتُ الْجَهْلَ ، هَيَّجَنِي

رَسْمٌ بِذِي الْبَيْضِ أَوْ رَسْمٌ بِدُورِ .

تُْمَسِي الرِّيَّاحُ بِهِ حَنَانَةً عُجْلًا

سَوْفَ الرِّوَائِمِ بَوًّا بَيْنَ أَظَارِ . ^(٢)

هَلْ بِالتَّقِيْعَةِ ذَاتِ السِّدْرِ مِنْ أَحَدٍ

أَوْ مَنَّبِتِ الشَّيْحِ مِنْ رَوْضَاتِ أَعْيَارِ ؟ .

نلاحظ جمال المعاني التي صيغت في قوالب بحر البسيط ، وكيف بدا رونقها وبهاؤها .

ثُمَّ تَابَعَ جَرِيرٌ بَعْدَ ذَلِكَ بِقِيَّةِ الْمَقْدَمَةِ الَّتِي كَانَتْ - كَمَا أَسْلَفْتُ - فِي ثَلَاثَةِ عَشْرَ بَيْتًا شَرَعَ بَعْدَهَا فِي الْفَخْرِ فِي أَكْثَرِ مِنْ عَشْرِينَ بَيْتًا ، بَدَأَهُ بِقَوْلِهِ ^(٣) :

قَوْمِي تَمِيمٌ هُمْ الْقَوْمُ الَّذِينَ هُمْ

يَنْفُونَ تَغْلِبَ عَنْ بَحْبُوحَةِ الدَّارِ .

^(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٤٠ ، ١٤١ .

^(٢) عُجْلًا : أَرَادَ الرِّيَّاحَ لِحَنِينِهَا وَهُوَ صَوْتٌ هَبُّوهُا الَّذِي يَشْبَهُ صَوْتَ النَّاقَةِ الَّتِي ذُبِحَ وَلَدُهَا . سَوْفَ الرِّوَائِمِ : مَفْرَدُهَا رُوُومٌ : الْأُمُّ الَّتِي تَعْطِفُ عَلَى وَلَدِهَا .

بَوًّا : الْبُوُّ وَلَدُ النَّاقَةِ . أَظَارٌ : جَمْعُ ظُرٍّ ، وَهِيَ الْمُرْضِعُ مِنَ النَّوْقِ .

^(٣) الْمَصْدَرُ السَّابِقُ ، ص ١٤٢ .

التَّازِلُونَ الْحَمَى ، لَمْ يُرْعَ قَبْلَهُمْ

وَالْمَانِعُونَ بِلَا حِلْفٍ وَلَا جَارٍ .

وما كان لجرير أن يفخر في تلك الأبيات الكثيرة إلا لأنه وجد في بحر البسيط الرّاحة ، و الإبداع ، و الغزارة ، إلى جانب تلك القافية الرائية الرائعة التي لها جرسها الفخري المُميّز .

بعد ذلك أخذ جرير في هجاء الأخطل فيما تبقى من أبيات القصيدة ، وهي أحد عشر بيتاً ، بدأها بقوله (١) :

يَا خُزْرَ تَغْلِبَ إِنِّي قَدْ وَسَمْتُكُمْ

عَلَى الْأُنُوفِ وَسُومًا ذَاتَ أَحْبَارٍ .

لَا تَفْخَرُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَكُمْ

يَا خُزْرَ تَغْلِبَ دَارَ الذُّلِّ وَالْعَارِ .

مَا فِيكُمْ حَكَمٌ تُرْضَى حُكُومَتُهُ

فِي الْمُسْلِمِينَ ، وَلَا مُسْتَشْهَدٌ شَارِي .

نلاحظ كيف ساعد بحر البسيط جريراً في إيصال هجائه قوياً وسريعاً إلى خصمه ، ثم توالى الضربات الموجعة للأخطل وقومه وأمه كما نقرأ في نهاية القصيدة .

كما نلاحظ الجرس الموسيقي الذي لا يخفى من تكرار التفعيلة (مُسْتَفْعِلُنْ) بنفس الحروف في مستهل الشطر الأول من البيت الأول (يَا خُزْرَ تَغْ /) ، وفي مستهل الشطر الثاني من البيت الثاني ، وما لتلك الموسيقى من وقع مؤلم في نفس المهجو خاصة أنها تحمل معها صفة معينة من صفات التغليين وهي أنهم خُزْرَ العيون .

❖ ثالثاً : بحر الطويل :

((الطويل سمي طويلاً لمعنيين : أحدهما أنه أطول الشعر ، لأنه ليس في الشعر ما يبلغ عدد حروفه ثمانية و أربعين حرفاً غيره . والثاني أن الطويل يقع في أوائل أبياته الأوتاد و الأسباب بعد ذلك ؛ و الوتد أطول من السبب ، فسُمي لذلك طويلاً .)) (٢)

(١) نقائص جرير و الأخطل ، ص ١٤٧ .

(٢) الوافي في العروض و القوافي ، ص ٣٧ .

وأوزانه : ((فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن)) مرتين ، ولا يكون إلا تاماً (^(١)) .

وقد ذكر جريرٌ على هذا البحر تسعةً و عشرين بيتاً في قصيدته التي مطلعها (^(٢)) :

أصاح : أليس اليوم منتظري صَحْبِي

نَحْيِي رُسُومَ الْحَيِّ مِنْ دَارَةِ الْجَابِ .

واثنين و عشرين بيتاً في قصيدته التي مطلعها (^(٣)) :

أَجِدْكَ لَا يَصْحُو الْفُؤَادُ الْمَعْلَلُ

وَقَدْ لَاحَ مِنْ شَيْبِ عِذَارٍ وَمِسْحَلُ .

وفي ظنِّي أن قلة الأبيات في القصيدتين اللتين نظمهما جريرٌ على هذا البحر ناتجة عن أن جريراً يريد أن يوصل الكلمة القويّة المؤثرة في خصمه سريعاً ودون إطالة ، حتّى يكون لها الوقع المناسب العنيف ، وهذا ما ليس مُتحققاً في بحر الطويل .

فإذا أخذنا إحدى القصيدتين اللتين قالمهما جرير على بحر الطويل ، وهي قصيدته : (أصاح أليس اليوم منتظري صَحْبِي) ، نجد أنه لم يخر بحر الطويل من تلقاء نفسه ، وإنّما نظم قصيدته عليه ليساير ما ابتداء به خصمه من وزنٍ و قافيةٍ ، فقد قال الأخطل في مطلع قصيدته التي نقضها جريرٌ (^(٤)) :

عَتَبْتُمْ عَلَيْنَا آلَ عَيْلَانَ كُلَّكُمْ

وَأَيُّ عَدُوٍّ لَمْ يُبْتِهْ عَلَيَّ عَتَبِ ؟ .

ولعل جريراً لم يكن راضياً ولا مقتنعاً أن ينظم قصيدته على هذا البحر ، وفي هذه الظروف ، وربما يؤيد هذا الاعتقاد أن أبيات قصيدته لم تتجاوز التسعة و العشرين بيتاً ، أمضى ستة أبيات في مقدمتها في ذكر الأطلال و الطّعائن ، وتسعة أبيات في فخره بقومه ، و الإشادة بكرمهم وشجاعتهم ، وما بقي من القصيدة كان مزجاً بين هجائه للأخطل وقومه ، و بين فخره بالقيسيين .

(١) العروض القديم أوزان الشعر العربي وقوافيه ، ص ١٠١ .

(٢) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٠٩ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٦٤ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٩٧ . وهذا هو مطلع قصيدة الأخطل كما وردت في النقائض .

وقد يكون جريرٌ محققاً - إن صحَّ الاعتقاد السابق - في أن يُحجَمَ عن الإكثار من نظم أبيات الهجاء على البحر الطويل ، فحتى يسمع الأخطل ما بعد كاف التشبيه في مثل قول جرير (١) :

سَتَعْلَمُ مَا يُغْنِي الصَّلِيبُ إِذَا غَدَتِ

كَتَائِبُ قَيْسٍ كَالْمَعْبَدَةِ الْجُرْبِ .

فإنه يحتاج إلى وقتٍ ليس بالقليل إذا ما قورنَ ببقية بحور الشعر ، لاسيما القصير منها .

وإذا كان جريرٌ قد حرص حرصاً شديداً في أن يُشَبَّهَ كتائب القيسيين بالإبل المَطْلِيَّةِ بالقَطْرَانِ ، وما راعاه في ذلك من دلالة على ضخامة تلك الكتائب وتزاحمها حتى تبدو كأنها سوداء كسواد تلك الإبل المَطْلِيَّةِ ، فإنَّ من حقِّه أن يصلَ ذلك التشبيه إلى خصمه سريعاً ، وذلك ما لم يكن متأتياً مع بحر الطويل ، ومع وقوع ذلك التشبيه في نهاية البيت .

ومثل ذلك يُقال في قول جرير : (خَضْبٌ عَلَى خَضْبِ) ، في بيت له في نفس القصيدة ، حين قال (٢) :

فَوَارِسَ أَمْثَالَ الْهَذِيلِ رِمَاحُهُمْ

بِهَاءٍ مِنْ دِمَاءِ الْقَوْمِ خَضْبٌ عَلَى خَضْبِ .

فالنتيجة التي يفخر بها جرير أمام الأخطل ، و التي يريد أن يوصلها إليه سريعاً من كون رماح القيسيين قد ارتوت من دماء التغلبيين ، وَأَصْبَحَتْ وَكَانَتْهَا مَخْضَبَةً ؛ تلك النتيجة جاءت متأخرةً وبعُدَ جهْدُ جهيد ، وهذا ما لا يجبُّه جرير - في ظني - .

* * *

(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ١١٣ .

(٢) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

❖ رابعاً : بحر الوافر :

((سُمِّيَ وافرًا لوفور أجزائه))^(١) ، و ((وزن الشطر الواحد من هذا البحر هو : مُفَاعَلْتُنْ + مُفَاعَلْتُنْ + فَعولُنْ))^(٢) .

و ((ليس لهذا البحر إلا نوع واحد من القصائد هي التي تنتهي أشطر أبياتها بالمقياس ((فَعولُنْ)) ، أمّا في حشو البيت فنجد المقياس ((مفاعلتن)) ، محرّك اللام أحياناً ، وساكنها أحياناً أخرى ، وكلا الحالين سواء في نسبة الشيع ، وحُسن الموسيقى ، تستريح إليها الآذان ، وتطمئن النفوس عند السَّماع أو الإنشاد .))^(٣) وهو بحرٌ سريعٌ في لحاق عجزه بصدّره ، فكأنّ عجزه منسلخ من صدره ، ومتولّد عنه .

وقد نظّم جريرٌ على هذا البحر قصيدتين ، كانت إحداهما في اثنين و أربعين بيتاً ، وهي القصيدة التي مطلعها^(٤) :

أَجَدَّ الْيَوْمَ جِيرَتَكَ احْتِمَالاً

وَلَا نَهَوَى بِذِي الْعُشْرِ الزَّيَالاً .

وكانت الثانية في تسعة عشر بيتاً ، وهي القصيدة التي مطلعها^(٥) :

أَتَذْكُرُهُمْ وَحَاجَّتْكَ ادِّكَارُ

وَقَلْبُكَ ، فِي الظَّعَائِنِ مُسْتَعَارُ .

إنّ أغلب أبيات القصيدة الثانية التي مطلعها البيت السابق لا يمكن أن تستغنى صدورها عن أعجازها ، فالمعنى الذي يكون في صدر البيت يَتَمَّمُهُ المعنى الذي يأتي في عجزه .

(١) الوافي في العرُوض و القوافي ، ص ٦٩ .

(٢) موسيقى الشّعْر ، ص ٧٦ .

(٣) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٤) نقائض جرير و الأخطل ، ص ١٩١ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١٣١ .

ومثالٌ على ذلك قول جرير (١) :

سِعْلَمُ مَنْ يُحَارِبُ أَنْ قَيْسًا

صَنَادِيدُ ، لَهُمْ لُجَجُ غِمَارُ .

نلاحظ أن الحرف النَّاسِخَ (أَنْ) ، واسمه (قَيْسًا) ، وَقَعَا في نهاية الشَّطْرِ الأوَّل من البيت ، بينما وقع خَبَر الحرف النَّاسِخِ في بداية الشَّطْرِ الثَّانِي ، ومعلومٌ أَنَّ الخَبَرَ هو الجزء الذي يَتَمُّمُ الفَائِدَةَ ، وعلى ذلك فَإِنَّ صدر البيت لا يستغني عن عجزه ، وهذه ميزةٌ يمتاز بها بحر الوافر كثيرًا .

وإذا تحدَّثتُ عن القصيدة الأولى فَإِنِّي قد لاحظتُ أَنَّ جريرًا قد وزَّع أبياتها على النَّحْوِ

التَّالِي :

◆ ستة عشر بيتًا في مُقَدِّمَةِ القصيدة اشتملت على ذِكر الأطلال و الطَّعائن .

◆ ثُمَّ ما يقرب من سبعة أبيات جاءت بعد المُقَدِّمَةِ ضمَّنَهَا جريرٌ فخَرَهُ ببني تميم على

نَحْوٍ من الاعتزاز و الثِّقَّة ، كما في قوله (٢) :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ عِزَّ بَنِي تَمِيمٍ

بَنَاهُ اللهُ يَوْمَ بَنَى الْجِبَالَ .

وقد ساعده في ذلك بحرُ الوافر وما فيه من سرعة و نَعَمٍ متلاحق .

وكما نلاحظ أَنَّ الشَّطْرَ الأوَّل لا يكتمل معناه إلاَّ بالشَّطْرِ الثَّانِي .

◆ ثُمَّ جَعَلَ جرير ما بقي من أبيات قصيدته ، وهي سبعة عشر بيتًا ، كلها في هجاء

الأخطل و تغلب و ما يدور في فلكهما ، هجاءً مُقَدِّعًا عَنيفًا أَقْلُهُ حين قال (٣) :

إِذَا مَا كَانَ خَالِكَ تَغْلِبِيًّا

فَبَادِلُ إِنْ وَجَدْتَ لَهُ بَدَالًا .

(١) نقائض جرير و الأخطل ، ص ١٣٢ .

(٢) المصدر السَّابِق ، ص ١٩٤ .

(٣) المصدر السَّابِق ، ص ١٩٦ .

فالقصيدية يمكن أن تُصنّف على أنّها من قصائد الهجاء المقذع حيث مكّن بحرُ الوافر لمعاني الهجاء أن تتوالى سريعاً في أذن الأخطل ، وكأنّها ضربات متلاحقة وهذا ما أرادَهُ جرير .

* * *

وقد نوّع جرير في بحوره وقصائده بين القافية المضمومة ، نحو قوله ^(١) :

قُلْ لِلدِّيَارِ : سَقَى أَطْلَالَكَ الْمَطْرُ

قَدْ هَجَنْتِ شَوْقًا وَمَاذَا تَنْفَعُ الذِّكْرُ .

وبين القافية المفتوحة ، كما في قوله ^(٢) :

لَمْ نَلْقَ مِثْلَكَ بَعْدَ عَهْدِكَ مَنْزِلًا

فَسُقَيْتِ مِنْ سَبَلِ السَّمَاءِ سِجَالًا .

ونلاحظ في الشطر الثاني تكرّر حرف السين وهذا التكرار له أثره الموسيقي الواضح لأنّ حرف السين حرفٌ صغير .

وبين القافية المكسورة ، كما في قوله ^(٣) :

تُخَبِّرُ مَنْ لَأَقَيْتَ أَنَّكَ لَمْ تُصِبْ

عِشَارًا ، وَقَدْ لَأَقَيْتَ نَكْبًا عَلَى نَكْبٍ .

جرس الألفاظ في البديع :

لم يغفل جرير في شعره عنصراً مهماً من عناصر الموسيقى ، وهو عنصر البديع . يختلف أشكاله ، ويهمننا هنا ما يمكن أن نطلق عليه البديع اللفظي ، ((هذا النوع من فنّ البديع وثيق الصلة بموسيقى الألفاظ ، فهو ليس في الحقيقة إلا تفنُّنًا في طرق ترديد الأصوات في الكلام حتّى يكون له نَعْمٌ وموسيقى ، وحتّى يسترعي الآذان بألفاظه كما يسترعي القلوب والعقول بمعانيه .)) ^(٤)

^(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٦٦ .

^(٢) المصدر السابق ، ص ٨٤ .

^(٣) المصدر السابق ، ص ١١٤ .

^(٤) موسيقى الشعر ، ص ٤٤ ، ٤٥ .

ومن ألوان البديع اللفظي ما يسمّى ((رَدَّ الْعَجْزِ عَلَى الصَّدْرِ)) ، ((وهو في النَّظْمِ أَنْ يَكُونَ أَحَدُهُمَا فِي آخِرِ الْبَيْتِ وَالْآخَرِ فِي صَدْرِ الْمِصْرَاعِ الْأَوَّلِ أَوْ آخِرِهِ ، أَوْ صَدْرِ الْمِصْرَاعِ الثَّانِي .))^(١) ، ومن أمثلته عند جرير قوله^(٢) :

بَكَى دَوْبَلٌ لَا يُرْقِي اللهُ دَمْعَهُ

أَلَا إِنَّمَا يَبْكِي مِنَ الذُّلِّ دَوْبَلٌ .^(٣)

فقوله في آخر الشطر الثاني : (يبكي دَوْبَلٌ) مردودٌ لِمَا صَدَّرَ بِهِ الْبَيْتَ (بَكَى دَوْبَلٌ) فكأنه إضافة إلى رغبته في التكرار لما فيه من تأكيد المعنى ، أراد - أيضًا - تكرار النغمة الموسيقية في حشو البيت ليتكرّر معها المعنى في نفوس السامعين .
وقال جرير^(٤) :

لَنَا الْفَضْلُ فِي الدُّنْيَا وَأَنْفُكَ رَاغِمٌ

وَنَحْنُ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَفْضَلُ .

فقوله : (نحن أفضل) ، في نهاية الشطر الثاني مردودٌ على قوله : (لنا الفضل) ، في بداية الشطر الأول من البيت ، فهو يريد أن يؤكد المعنى وأن يكرّر النغمة الموسيقية بهذا النوع من البديع اللفظي ، إضافةً إلى ما نلاحظه من تكرار لصوت (الفاء) في (الْفَضْلُ) و (فِي) و (أَنْفُكَ) و (أَفْضَلُ) ، ممّا يضيف على البيت أكثر من نغمة موسيقية ، وجرس له إيقاع يؤثر في أذن السامع .

فقد استخدم جرير في البيت السابق عددًا من النغمات الموسيقية متمثلة في رد العجر على الصدر ، والنغمة المتولدة من تكرار حرف الفاء ، ونغمة القافية ، إضافة إلى نغمات

(١) علم البديع ، د: عبد العزيز عتيق ، دار النهضة العربية ، بيروت ، لبنان ، بدون رقم طبعة ، ١٤٠٥ هـ ، ص ٢٢٦ والتعريف نقلاً عن الخطيب القزويني . ويقصد بقوله : (أحدهما) أي أحد اللفظين المُكْرَرَيْنِ أَوْ الْمُتَجَانِسَيْنِ .

(٢) نقائض جرير والأخطل ، ص ٦٦ .

(٣) دَوْبَلٌ : رجلٌ من بني تغلب ، وقد بكى لفعل الجحّاف بهم من أجل زرعٍ لأمّ دَوْبَلٍ وكان هذا سبب الحرب بين تغلب وقيس . انظر المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٤) المصدر السابق ، ص ٦٩ .

الوزن الداخلية ، كل ذلك كان له الأثر الواضح في أن يعلق المعنى في أذن السامع ، وفي عقله وقلبه ناهيك عن رسوخ البيت وبقائه محفوظاً في أذهان السامعين يكرّرونه دون مللٍ أو سأم .

• التّصريح :

قال عنه ابن رشيق : ((فأما التّصريحُ فهو ما كانت عرُوض البيت فيه تابعة لضربه تنقص بنقصه وتزيد بزيادته)) (١) ، ويكون التّصريحُ في بدايات القصائد لما له من نغمٍ مؤثّر ، وموسيقى واضحة ، فكأنّ الشّاعر بهذا اللون من البديع يريد أن يُنبّه السامع إلى قافية البيت التي ستسير عليها بقية القصيدة .

((وللقافية موضعان ، أحدهما يستعمل فيه على سبيل الاستحباب ، وآخر يستعمل فيه على سبيل اللزوم . فالذي يستحب فيه عرُوض البيت . والذي يلزم فيه ضربه)) (٢) .
ومن أمثلة التّصريح في نقائض جرير مع الأخطل ، قوله في مطلع إحدى نقائضه (٣) :

حَيِّ الْغَدَاةَ بِرَأْمَةٍ الْأَطْلَالَا

رَسْمًا تَحْمَلُ أَهْلُهُ فَأَحَالَا . (٤)

نلاحظ اتّفاق نهاية شطري البيت : (الأطلالا) ، (أحالا) ، وذلك يُعطي نغمةً وموسيقى ، إضافة إلى الصّوت الموسيقي الناتج عن المدّ ثمّ اللام ثمّ المدّ المطلق بعدها ، كل ذلك له نغمته الخاصّة في بداية القصيدة وكأثما يريد الشّاعر تنبيه أذن السامع لما سيأتي من نغمة في بقية أبيات القصيدة .

هذا وقد التزم جرير بالقافية في نهاية كل بيت من أبيات هذه القصيدة .

(١) العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده ، ١ / ١٥٦ .

(٢) انظر كتاب القوافي ، القاضي التنوفي ، مكتبة الخانجي ، مصر ، الطبعة الثّانية ،

١٩٧٨ م ، ص ٧٥

(٣) نقائض جرير والأخطل ، ص ٨٣ .

(٤) رامة : نبعة يشرب منها بنو قيس . أحالا : تبدّل .

ومن ذلك - أيضاً - ما جاء من تصريح في مطلع القصيدة المشهورة لجرير التي قال في أولها (١) :

قُلْ لِلدَّيَّارِ : سَقَى أَطْلَالَكَ الْمَطْرُ

قَدْ هَجَتْ شَوْقًا ، وَمَاذَا تَنْفَعُ الذِّكْرُ .
حيث اتَّفقت النَّغمة بسبب التَّصْرِيح في (الْمَطْرُ) و (الذِّكْرُ) ، وقد التزم جرير بالتَّصْرِيح في جميع قصائده التي نقض بها قصائد للأخطل .

• نَعَم الألفاظ الداخلي في حشو البيت :

١ - نَعَم الاسم والفعل :

إنَّ مِمَّا يسترعي انتباه السَّامع تلك النَّغمة الموسيقية الداخليَّة في حشو البيت عند جرير والناجئة عن تكرار حروف كلمتين متشابهتين إلى حدِّ كبير ، فتكون الكلمة الأولى اسمًا وبعده يأتي الفعل .

كما جاء في قول جرير (٢) :

فَيَوْمًا يُدَانِينَ الْهَوَى غَيْرَ مَا صَبًا

وَيَوْمًا تَرَى مِنْهُنَّ غُولًا تَغَوَّلُ (٣) .

فهذا البيت فيه تقسيمٌ ظَهَرَ في (يومًا) ، في بداية الشَّطْرَيْن ، ومقابله في المعنى بين شَطْرَي البيت ، وما يعنينا هنا هو ذلك النَّعَم والإيقاع الناتج من موسيقى كلمتي (غولًا) و (تَغَوَّلُ) ، فتكرار الحروف مرَّةً في الاسم (غولًا) ، ومرَّةً في الفعل (تَغَوَّلُ) ، وذلك على التَّوالي أدَّى إلى إحداث جرسٍ موسيقيٍّ في نهاية البيت ، فضلاً عمَّا أحدثته القافية من نَعَم . وهذا الإيقاع الناتج من نَعَم الاسم ثمَّ الفعل بعده بتكرار حروفهما أراد من خلاله جرير أن يرسِّخ المعنى المراد ، إضافة إلى تسهيل حفظ البيت وإمكانية ترديده .

* * *

(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٦٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٦٤ .

(٣) تَغَوَّلُ : أي تنغول بمعنى تتلون وتبدل .

٢- نغم الفعل والاسم :

وأحياناً يأتي جرير في نهاية البيت باسمٍ يعقبه فعلٌ مباشرة مع تماثلهما في الحروف إلى حدٍّ كبير ، ومن ذلك قوله ^(١) :

وَلَقَدْ عَجِبْتُ مِنَ الدِّيَارِ وَأَهْلِهَا

وَالدَّهْرِ كَيْفَ يُبَدِّلُ الأَبْدَالَ .

فقد جاء جرير في البيت السابق بكلمتين اتَّفقتا في الحروف كثيراً ، الأولى كانت فعلاً (يُبَدِّلُ) ، أعقبه اسمٌ مباشرة (الأبدالا) ، وقد نتج عن ذلك التَّشابه في الحروف ، وعن التَّوالي بين الفعل والاسم ، جرسٌ موسيقي لا يخفى ، إضافةً إلى النغمة المطلقة في قافية البيت .

ومن ذلك - أيضاً - قول جرير ^(٢) :

رُفِعَ المَطِيُّ بِكُلِّ أَشْعَثِ شَاحِبٍ

خَلَقَ القَمَيْصِ ، تَخَالَهُ مُخْتِالًا .

فجاءت كلمة (تَخَالَ) ، وهي فعل ، وأعقبها مباشرة كلمة (مختالا) ، وهي اسم ، وقد اتَّفقتا في الحروف ، وتولَّد من تعاقبهما وتشابه حروفهما ذلك النَّغم والجرس الذي ترتاح له أذن السَّامع ، ويسهل معه حفظ البيت ، وترديده ، وفهم معناه .

ونلاحظ - كذلك - نفس الأثر الموسيقي في النَّغم والتأثير على أذن السَّامع في نهاية

قول جرير في البيت التالي ^(٣) :

والتَّغْلِبِيُّ إِذَا تَنَحَّحَ لِلْقَرَى

حَكَ اسْتَهُ ، وَتَمَثَّلَ الأَمْثَالَ .

فبالإضافة إلى ما سبق من نغمٍ موجود في كلمة (تَنَحَّحَ) ، وهي كلمة تُحاكي صوت الفعل ، وتجعلنا نتخيَّل حالة البخيل وهو يصدر ذلك الصَّوت ، جاءت - كذلك - كلمتا : (تمثَّل ، الأمثالا) ، متشابهتين كثيراً في الحروف ، وقد كان في

^(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ٨٤ .

^(٢) المصدر السابق ، ص ٨٥ .

^(٣) المصدر السابق ، ص ٨٩ .

تواليهما (فعلٌ يعقبه - مباشرة - اسمٌ) جرسٌ موسيقي لطيفٌ ، مع ما أضافته الكلمتان من صورةٍ أُخرى من صور البخيل حيث يبحث عن الحُجَج والأعدار فيما يتمثله من أمثال (*) .

وقد أتى جريرٌ بنفس الظاهرة السَّابقة وهي أن يأتي الفعل يعقبه الاسم مباشرة مع تشابههما في الحروف وكذا المعنى في نهاية الشطر الأول في قوله (1) :

إِنَّ الْقَوَافِي قَدْ أَمِرَّ مَرِيرُهَا

لِبَنِي فَدَوْكَسٍ إِذْ جَدَعْنَ عِقَالًا . (2)

وفي تكرار جرير لحرفي الميم والراء في كلمتي (أَمِرٌّ و مَرِيرُهَا) ما يجعل تكرار النغمة الموسيقية يفاجئ المستمع في بداية البيت قبل أن يصل إلى نهايته ، إضافة إلى تشابه الحروف وتوالي الترتيب حيث تقدّم الفعل ثم أعقبه مباشرة الاسم .

٣- نغم الاسم والاسم :

وقد لاحظتُ أن جريراً ربّما جاء بالاسم ثم أعقبه باسم بعده مباشرة يوافقه في الحروف ، وهذا ما يمكن أن يُطلق عليه (التكرار) ، ((وحده هو : دلالة اللفظ على المعنى مُردداً)) (3) ، ولاشكَّ أن له أثره الملحوظ في تكرار النغمة وإحداث الجرس الموسيقي الرائع الذي يريح الأذن ويؤدي المعنى في أجمل صورة ومن ذلك قول جرير (4) :

فَوَارِسَ أَمْثَالَ الْهُدَيْلِ رِمَاحُهُمْ

بِهَا مِنْ دِمَاءِ الْقَوْمِ خَضْبٌ عَلَى خَضْبٍ .

(*) ((أخبر أنهم يتضيّفون النَّاسَ فإذا أتوا يَتَنَحَّحَ أحدهم حتّى يُعَلِّمَ مكانه وتمثّل الأمثال التي فيها ذكّر

القرى حتّى يُذَكِّرَ بنفسه)) ، انظر نقائص جرير والأخطل ، ص ٨٩ .

(1) المصدر السابق ، ص ٩٧ .

(2) أَمِرٌّ مَرِيرُهَا : أي أَحْكَمَتْ صَنَعْتُهَا . بنو فَدَوْكَسٍ : رهط الأخطل ، والفدوكس

جده . وعقال : جدّ الفرزدق .

(3) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ضياء الدين ابن الأثير ، تحقيق د : أحمد محمد الحوفي

و د : بدوي طبانة ، مكتبة نهضة مصر ، الطبعة الأولى ، ١٣٨١هـ ، ٥/٤ ، ٣ .

(4) نقائص جرير والأخطل ، ص ١١٣ .

فقد تكررّت كلمة (حضب) ، وتكرّر معها النَّعْم ، فتوالت في هذا البيت عدة نعّمت ، منها نعمة البحر ، ونعمة التّكرار ، ونعمة القافية . وهذا التكرار يذكرنا بقوله تعالى : [فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِكَاظِيرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ] {البقرة: ٩٠} .
ومن ذلك قول جرير ^(١) :

نُخَبِّرُ مَنْ لَأَقَيْتَ أَنَّكَ لَمْ تُصَبِّ

عِثَارًا ، وَقَدْ لَأَقَيْتَ نَكْبًا عَلَىٰ نَكْبٍ .

فلاحظ تكرار الاسم (نكب) مرّتين متتاليتين فصل بينهما حرف الجرّ (على) ، وهذا التّكرار يُقوِّي المعنى من خلال مضاعفة المصائب والتّكبات التي مُنيَ بها الأخطل ، وهذه المضاعفة جاءت من خلال تكرار لفظة (نكب) . وإضافة إلى ذلك فإنّ النّعْم الحاصل نتيجة هذا التّكرار يضيفي على البيت روعةً وموسيقى بحيث يسهل حفظه وتكراره وبالتالي انتشاره ، وهذا ما يصبو إليه جرير .

وقبل الانتقال إلى شاهد آخر أحبُّ أن أذكر المقابلة الحاصلة في هذا البيت بين شطريه وذلك من خلال قوله في الشّطر الأول : (لم تُصَبِّ عِثَارًا) ، وما يقابل ذلك في الشّطر الثّاني وهو قوله : (لاقيت نكبًا) ، وهذه المقابلة زادت من إيقاع البيت ومن نَعْمِهِ .
وقال جرير ^(٢) :

يَا صَاحِبِي دَنَا الرَّوَّاحُ فَسَيِّرَا

لَا كَالْعَشِيَّةِ زَائِرًا وَمَزُورًا .

فقد كرّر جرير الاسم بعد الاسم في قوله : زائرًا و مزورًا ، ولا يخفى ما في ذلك من نَعْمٍ و موسيقى .
وقال جرير ^(٣) :

مَدَّتْ بِحُورُهُمْ فَلَسْتُ بِقَاطِعِ

بَحْرًا يَمُدُّ إِلَىٰ الْبُحُورِ بُحُورًا .

^(١) نقائض جرير والأخطل ، ص ١١٤ .

^(٢) المصدر السّابق ، ص ١١٩ .

^(٣) المصدر السّابق ، ص ١٢٣ .

وهنا نجد روعة تكرار الاسم بعد الاسم في قوله : البحور بحورا ، وما في ذلك من موسيقى ونغم ، وزاد هذه الموسيقى أن كررت كلمة (البحر) أربع مرّات في صور مختلفة يترسّخ معها المعنى المراد ، ويسهل على السّامع حفظ البيت وترديده .
وقال جرير ^(١) :

إِنَّا نُسَوِّدُ فِي الْحَيَاةِ حَيَاتِنَا

وَيَسُوِّدُ مَنْ دَخَلَ الْقُبُورَ قُبُورًا .

كرّر جرير الاسم بعد الاسم في قوله : القبور قبورا في نهاية البيت وهذا التكرار يحدث موسيقى ونغما تأنس به أذن السّامع .
كما كرّر الاسم بعد الاسم في نهاية الشّطر الأول حين قال : (الحياة حياتنا) ، فأضاف بذلك نعمة جديدة مستساغة في البيت .

ومثل ما قلناه في الشّواهد السابقة نقوله في قول جرير ^(٢) :

خَالَفْتُمْ سُبُلَ النَّبُوَّةِ فَاخْضَعُوا

بِجَزَا الْخَلِيفَةِ ، وَالذَّلِيلُ ذَلِيلٌ .

نلاحظ أن تكرار الاسم بصورة متتالية في قوله : الذليل ذليل يُعمّق من معنى الذلّة التي يعيشها التغلبيون ، فهي ذلّة تصل بهم إلى الحضيض وليس بعدها من ذلّة ، وهذا ما أراد جرير أن يُحقّقه من التكرار ، ومن الإيقاع والنغم المصاحبين له .

٤ - نَعْمُ الْفِعْلِ وَالْفِعْلُ :

وقد لاحظت أن جريرا كرّر - كذلك - الفعل بصورة متتالية في نهاية البيت وبحروف

تشابه كثيرا ،

كما في قوله ^(٣) :

أَيْنَفَعُكَ الْقَرَارُ وَأُمُّ عَمْرُو

قَرِيبٌ لَا تَزُورُ ، وَلَا تُزَارُ ؟

^(١) نقائض جرير و الأخطل ، ص ١٢٤ .

^(٢) المصدر السابق ، ص ١٨٤ .

^(٣) المصدر السابق ، ص ١٣٢ .

فقد كرّر جريرُ الفعل في نهاية البيت ، ونوّع بين البناء للمعلوم (تَزُورُ) ، والبناء للمجهول (تُزَارُ) ، وفي ذلك إيقاع مناسبٌ يُوحى بالقرب والبُعد في نفس الوقت ، فالحبيبة قريبة ، ولكن زيارتها بعيدة .

٥ - نَعْمُ حُسْنِ التَّقْسِيمِ :

وهو ((استقصاء الشّاعر جميع أقسام ما ابتدأ به .))^(١)

ومن ذلك قول جرير^(٢) :

قَوْمِي فَأَصْلُهُمْ أَصْلِي ، وَفَرَعُهُمْ

فَرَعِي ، وَعَقْدُهُمْ عَقْدِي وَإِمْرَارِي .

فقد أكسب حُسْنُ التَّقْسِيمِ البيتَ نَعْمَةً ظاهرةً تتناسب مع فخر الشّاعر بقومه وهناك موسيقى ناتجة - أيضاً - من تكرار الكلمات : أصلهم أصلي ، فرعهم فرعي ، عقدهم عقدي .

* * *

(١) العُمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده ، ٣٠/٢ .

(٢) نقائض جرير والأخطل ، ص ١٤٣ .

الْخَاتِمَةُ

وهكذا وصلتُ إلى نهاية هذا البحث ، ومع وصولي إلى هذه النهاية أتضحَت معالم صورة أحسبها مشرقةً لِعَلَمٍ من أعلام الشعْر العربي القديم .. ربّما كان يعترئها شيءٌ من الضَّبائبة ليس في جانب مكانة صاحبها الشعريّة ، أو إبداعه الشعري ، إنّما في جانب التزامه الإسلامي ، لاسيّما حين يفاجأ القارئ لديوان جرير بألفاظٍ متناثرة في أبياته هي غاية في البذاءة والفحش ، فيصُدِرُ حكمة مباشرةً على الرَّجُل دون تمحيص أو تَرَيُّثٍ .. وبنظرةٍ متشائمة ينقصها العدل ، ويكتنفها الشنآن يُقصي ديوان الرَّجُل ، ويُسدّل عليه السّتر !!

و الحقيقة التي وصَلتُ إليها أنّ جريراً كان على ثغرةٍ من الثغرات التي يؤتى الإسلام من قبلها ، فسَدَّ تلك الثغرة بما يستطيع ، وناضل و نافع ، ووقف في وجه الأخطل ، وفَتَدَ افتراءاته ، وأظهر سماحة الإسلام ، وبَيَّنَ الكثير من شرائعه و شعائره ، و بالمقابل سلَّطَ الأضواء على الدّين المحرّف لخصمه ، فَظَهَرَتْ ثقافة جرير الواسعة ، وبرز إمامه بالجزئيات قبل الكليات في ذلك الدّين المحرّف الذي يدين به الخصم .

وكم كان ينتفضُ ما بداخله من التزامٍ وعِفَّةٍ إذا أوقَعَهُ لِسَانُهُ في عِرْضِ أحد ، أو أغراه شيطانُهُ وزَيَّنَ له هجاءَ مسلم أو مسلمة .

ولقد كان للإسلام أثره الواضح الذي طغى على شعر جرير عندما نقض شعر الأخطل ، فركَّز على جوانب كسب الحسنات في الإسلام وأن تلك الحسنات متناثرة في كلِّ مكان لمن أراد أن يحصل عليها ، فرأينا إشارات بالْمُفَصَّلِ من القرآن الكريم ، واتباع سُنَّةِ النَّبِيِّ - ﷺ - في السُّواك و الطَّهارة ، و حُبِّ الأنصار - ﷺ - و حديثه عن المساجد ، وعن تعظيم شعائر الله ، وعن الغيرة على المحارم ... ونحو ذلك .

أمّا إذا جئنا إلى طريقة بناء القصيدة عند جرير عندما ينقض قصيدةً للأخطل ، فإنَّ أبرز ما استنتجتهُ من ذلك هو اعتماد جرير على ثقافته الإسلامية كعنصرٍ من عناصر القوَّة التي

جَعَلَتْ له الْعَلْبَة على خصمه ، ثم اعتماده على قوْتِه الفنّية ، وبراعته الشّعريّة ، إلى جانب تركيزه على النقاط المهمّة التي تناولها الأخطل ليردّ عليها ، وإعراضه عن بعض الموضوعات التي تطرّق لها الأخطل إذا رأى أنّ غيرها أولى .

فالموضوعات التي يتناولها جرير بالردّ هي الموضوعات المهمّة التي تستحقّ الردّ خاصّةً أنّه أمام شاعر لا يدين بدين الإسلام .

وجرير له معجمه اللّغويّ المميّز الذي ينمّ عن ثقافة واسعة يتمنّع بها .. حيث ظهر لي أنّ الرّجل يملك معجمًا حريّياً ، ومعجمًا جغرافيًا ، ومعجمًا دينيًا ، ومعجمًا علميًا تشرحيًا ، إلى جانب ما يتمنّع به من غزارة في اللّغة .

وفي حقيقة الأمر فإنّني أختتم هذا البحث وفي نفسي منه أشياء ، لذلك أوصي الباحثين أن يكشفوا عن مكوناتها فقمّن أن ينفع الله بها ؛ وهي :

- ١- جرير شاعر خدم الإسلام ، وذبّ عنه بما يستطيع .
- ٢- تساهل عبد الملك بن مروان في شأن الأخطل وتقريبه له .
- ٣- دراسة قصيدة : (قل للديار سقى أطلالك المطر) دراسة أدبيّة مستفيضة .
- ٤- المقارنة بين قصيدتي (خفّ القطين) ، (وقل للديار سقى أطلالك المطر) ، و التوسّع في ذلك .
- ٥- دراسة اهتمام جرير كشاعر مسلم بالنسب وبصلة الرّحم ، وإكثاره من ذكر الأقارب بمراتبهم المختلفة كالأب و الأم و الأخ و العم و الخال ... خاصة في أثناء نقضه شعر الأخطل .

وختامًا أسأل المولى - عز و جل - ، أن ينفع بهذا العمل ، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم ، وأن يوزعني أن أشكر نعمته التي أنعم بها عليّ بأن أعاني على إنجازه في ظل ما اكتنفتني من أعمال و مشاغل ، وصلى الله وسلم على نبينا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين .

فهرست المصادر

و المراجع

فهرست المصادر و المراجع

- ١- القرآن الكريم .
- ٢- الأركان الأربعة (الصلاة ، الزكاة ، الصّوم ، الحج) في ضوء الكتاب و السُّنَّة مقارنة مع الديانات الأخرى ، أبو الحسن علي الحسيني الندوي ، دار القلم ، الطبعة الرابعة ، ١٣٩٨هـ .
- ٣- أسرار البلاغة ، عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق : محمود محمّد شاكر ، مطبعة المدني ، مصر ، الطبعة الأولى ، ١٤١٢هـ .
- ٤- الأعلام ، خير الدّين الزّركلي ، الطبعة الثالثة ، مكتبة نادي الطائف الأدبي ، برقم ٩٥٥٦ .
- ٥- الأغاني ، أبو الفرج الأصبهاني ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، ١٩٥٥ .
- ٦- الإيضاح في علوم البلاغة ، الخطيب القزويني ، تحقيق د: عبد الحميد هنداوي ، مؤسسة المختار ، القاهرة ، مصر ، الطبعة الثانية ، ١٤٢٤هـ .
- ٧- البلاغة الواضحة ، علي الجارم ، مصطفى أمين ، دار المعارف ، مصر ، الطبعة (الحادية و العشرون) ، ١٣٨٩هـ .
- ٨- البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق عبد السّلام هارون ، دار الجليل ، بيروت ، لبنان .
- ٩- تاريخ الأدب العربي - العصر الإسلامي - ، شوقي ضيف ، دار المعارف ، الطبعة السابعة .
- ١٠- تاريخ الأدب العربي ، كارل بروكلمان ، ترجمة د/ عبد الحلّيم النّجار ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، الطبعة الرابعة .
- ١١- تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني ، أحمد الشايب ، الطبعة الخامسة ، ١٣٩٦هـ ، مكتبة النهضة المصرية .
- ١٢- تاريخ النّقائض في الشّعْر العربي ، أحمد الشّايب ، الطبعة الرابعة ، مكتبة النهضة المصريّة .
- ١٣- تأملات في سورة البقرة ، د/ حسن بن محمد باجودة ، مكتبة دار مصر .

- ١٤- التطور والتجديد في الشعر الأموي ، د / شوقي ضيف ، دار المعارف ، مصر ، الطبعة الخامسة .
- ١٥- تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، ١٩٢٢ .
- ١٦- التوضيح في علم العروض و القافية ، د. على نجيب عطوي ، دار اللواء ، الرياض ، المملكة العربية السعودية ، الطبعة الأولى ، ١٤١١هـ .
- ١٧- جرير، د/محمد حمّود، دار الفكر اللبناني، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى، ١٩٩١م.
- ١٨- جرير رقة الصياغة وعذوبة اللفظ وجزالة الشعر ، د. عبد المجيد الحرّ ، دار الفكر العربي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤١٩هـ .
- ١٩- حقيقة التصراية من الكتب المقدسة ، على الجوهري ، دار الفضيلة ، القاهرة ، مصر .
- ٢٠- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، عبدالقادر بن عمر البغدادي ، تحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، دار الرفاعي ، الرياض .
- ٢١- خُلُق المسلم ، محمد الغزالي ، دار القلم ، دمشق ، الطبعة العاشرة ، ١٤١٣هـ .
- ٢٢- دراسة في البلاغة و الشعر ، د. محمد محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، مصر ، الطبعة الأولى ، ١٤١١هـ .
- ٢٣- دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق / محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني ، مصر ، الطبعة الثالثة ، ١٤١٣هـ .
- ٢٤- ديوان أبي تَمَّام ، شرح إيمان البقاعي ، مؤسسة الأعلمي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٢١هـ .
- ٢٥- ديوان أبي الطيب المتنبّي ، شرح أبي البقاء العُكْبَرِي ، ضبطه و صححه مصطفى السَّقَا ، إبراهيم الأبياري ، عبد الحفيظ شَلبي ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، ١٣٩٧هـ .
- ٢٦- ديوان الأخطل ، شرح عبد الرحمن المصطاوي ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٣هـ .

- ٢٧- ديوان امريء القيس ، تحقيق حنان الفاخوري ، دار الجليل ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٩ هـ .
- ٢٨- ديوان امريء القيس ، ضبطه وصحّحه الأستاذ / مصطفى عبد الشّافي ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، لبنان .
- ٢٩- ديوان جرير ، شرح حمدو طماس ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٤ هـ .
- ٣٠- ديوان جرير ، تحقيق و شرح كرم البستاني ، دار صادر و دار بيروت ، بيروت ، لبنان ، ١٣٧٩ هـ .
- ٣١- ديوان عبد الله بن رواحة و دراسة في سيرته و شعره ، د/ وليد قصّاب ، دار العلوم ، الطبعة الأولى ، ١٤٠١ هـ .
- ٣٢- ديوان التّابغة الذبياني ، شرح محمد الطّاهر عاشور ، الشركة التونسيّة للتّوزيع ، ١٩٧٦ .
- ٣٣- سيّر أعلام النبلاء ، الدّهبي ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٢ هـ .
- ٣٤- السّيرة النبويّة في ضوء القرآن و السنّة ، دراسة محررة جمعت بين أصالة القديم ، وجدّة الحديث ، د. محمد بن محمد أبو شهبه ، دار القلم ، الطبعة الثالثة ، ١٤١٧ هـ .
- ٣٥- سيرة النّبي - ﷺ - ، ابن هشام ، راجعها : د. محمد خليل هراس ، مكتبة الجمهوريّة .
- ٣٦- الشعر والشعراء ، ابن قتيبة ، تحقيق د / مفيد قميحة ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٥ هـ .
- ٣٧- شرح ديوان الأخطل التّعلبيّ ، إيليا سليم الحاوي ، دار الثّقافة ، بيروت ، لبنان .
- ٣٨- شرح ديوان جرير ، تاج الدّين شلق ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثالثة ، ١٤١٩ هـ .

- ٣٩- شرح ديوان النَّابغة الذبياني ، سيف الدِّين الكاتب ، وأحمد عصام الكاتب ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٩ م .
- ٤٠- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ، إسماعيل بن حماد الجوهري ، تحقق أحمد بن عبدالغفور عطار ، مطابع دار الكتاب العربي ، مصر .
- ٤١- صحيح البخاري ، ضبطه ورقم أحاديثه ووضع فهرسه / محمد عبد القادر أحمد عطا ، دار التَّقوى للتراث ، القاهرة ، مصر ، الطبعة الأولى ، ١٤٢١ هـ .
- ٤٢- صحيح سنن أبي داوود باختصار السُّنَد ، محمد ناصر الدِّين الألباني ، مكتب التَّربية العربي لدول الخليج ، الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٩ هـ .
- ٤٣- صحيح سنن التَّرمذي باختصار السُّنَد ، محمد ناصر الدِّين الألباني ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨ هـ .
- ٤٤- صحيح سنن ابن ماجه ، محمد ناصر الدِّين الألباني ، مكتب التَّربية العربي لدول الخليج ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٨ هـ .
- ٤٥- صحيح مسلم ، تحقيق : أحمد زهوة ، أحمد عناية ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٥ هـ .
- ٤٦- صفوة التَّفاسير ، محمد علي الصَّابوني ، دار القلم ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الخامسة .
- ٤٧- طبقات فحول الشعراء ، ابن سلام ، شرح محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني ، القاهرة .
- ٤٨- العَروض القديم أوزان الشُّعر العربي وقوافيه ، د/ محمود علي السَّمان ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٦ م .
- ٤٩- العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي ، د/ إحسان النص ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٣ م ، دار الفكر .
- ٥٠- علم البديع ، د/ عبد العزيز عتيق ، دار النهضة العربيَّة ، بيروت ، لبنان ، بدون رقم طبعة ، ١٤٠٥ هـ .

- ٥١- عِلْمُ العَرُوضِ و القافية ، د/ عبد العزيز عتيق ، دار النّهضة العربيّة ، بيروت ، لبنان ، بدون رقم طبعة ، ١٤٠٧هـ .
- ٥٢- عِلْمُ المعاني ، د/ عبد العزيز عتيق ، دار النّهضة العربيّة ، بيروت ، لبنان ، بدون رقم طبعة ، ١٤٠٥هـ .
- ٥٣- العُمدة في محاسن الشّعْر و آدابه و نقده ، ابن رشيق القيرواني ، تحقيق : د/ عبد الحميد هندراوي ، المكتبة العصريّة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٢هـ .
- ٥٤- فتح القدير الجامع بين فني الرواية و الدرّاية من عِلْمِ التّفسير ، الشّوكاني ، تحقيق سيد إبراهيم ، دار الحديث ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٤١٣هـ .
- ٥٥- فتح المجيد شرح كتاب التّوحيد ، الشّيخ عبد الرحمن بن حسن بن محمّد بن عبد الوهّاب ، تحقيق عبد القادر الأرنؤوط ، مكتبة المؤيد ، الطائف ، ومكتبة دار البيان ، دمشق ، سوريا ، الطبعة الثالثة ، ١٤١٤هـ .
- ٥٦- فن التّقطيع الشّعري و القافية ، د/ صفاء خلوصي ، مكتبة المثنّى ، بغداد ، الطبعة الخامسة ، ١٩٧٧م .
- ٥٧- في الشّعْر الإسلامي و الأموي ، د/ عبد القادر القطّ ، دار النّهضة العربيّة ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠٧هـ .
- ٥٨- القاموس المحيط ، الفيروز آبادي ، قدم له و علّق حواشيه الشيخ أبو الوفا نصر الهوريني ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٥هـ .
- ٥٩- كتاب الصّناعتين - الكتابة و الشّعْر - ، أبو هلال العسكري ، تحقيق : د/ مفيد قميحة ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٠١هـ .
- ٦٠- كتاب القوافي ، القاضي التّنويفي ، مكتبة الخانجي ، مصر ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٨م .
- ٦١- لسان العرب ، ابن منظور ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤١٠هـ .

- ٦٢- اللؤلؤ و المرجان فيما اتَّفَقَ عليه الشَّيْخَان ، وضعه محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الحديث ، ١٤٠٧هـ .
- ٦٣- المؤلف والمختلف ، الأمدى ، تحقيق عبدالستار أحمد فراج ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة .
- ٦٤- المثل السائر في أدب الكاتب و الشَّاعِر ، ضياء الدِّين ابن الأثير ، تحقيق د/ أحمد محمد الحوفي ، و د/ بدوي طبانة ، مكتبة نهضة مصر ، الطبعة الأولى ، ١٣٨١هـ .
- ٦٥- محاضرات في النصرانيَّة ، الإمام محمد أبو زهرة ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، مصر ، الطبعة الثالثة ، ١٣٨١هـ .
- ٦٦- محاضرات الموسم الثقافي لكلية اللغة العربيَّة ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، ١٤٢٢هـ .
- ٦٧- الزهر في علوم اللغة وأنواعها ، السيوطي ، شرحه وضبطه محمد أحمد جاد المولى ، علي محمد البجاوي ، محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة .
- ٦٨- المستدرک علی الصَّحِيحَيْن ، الإمام الحافظ أبو عبد الله الحاكم النيسابوري ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، ١٣٩٨هـ .
- ٦٩- معجم البلدان ، ياقوت الحَمَوي ، دار صادر و دار بيروت للطباعة و النشر ، بيروت ، لبنان .
- ٧٠- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم بحاشية المصحف الشَّريف ، روجعت على طبعة محمد فؤاد عبد الباقي ، ضبطها ورثَّها / محمد سعيد اللحام ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٣هـ .
- ٧١- معجم المقاييس في اللُّغة ، ابن فارس ، تحقيق / شهاب الدِّين أبي عمرو ، دار الفكر للطباعة و النَّشر ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤١٥هـ .
- ٧٢- المعجم الوسيط ، إبراهيم مصطفى و أحمد حسن الزَّيات ، و حامد عبد القادر ، و محمد علي النَّجَّار ، مطابع دار المعارف ، مصر ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٠هـ .

- ٧٣- المغني و الشرح الكبير على متن المتنع في فقه الإمام أحمد بن حنبل ، للإمامين موفق الدين و شمس الدين ابني قدامة ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٤هـ .
- ٧٤- مقدّمة ابن خلدون ، عبد الرحمن بن خلدون ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤١٣هـ .
- ٧٥- مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، ابن الجوزي ، تحقيق الدكتورة / زينب إبراهيم القاروط ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، لبنان ، بدون رقم طبعة .
- ٧٦- الموسوعة الميسرة في الأديان و المذاهب المعاصرة ، الندوة العالميّة للشباب الإسلامي ، الرياض ، الطبعة الثانية .
- ٧٧- موسيقى الشّعْر ، د/ إبراهيم أنيس ، مكتبة الأنجلو المصريّة ، القاهرة ، مصر ، الطبعة الرابعة .
- ٧٨- نقائص جرير و الأخطل ، الإمام الشّاعر أو تَمّام ، دار المشرق ، بيروت ، لبنان ، ١٩٢٢ .
- ٧٩- نقائص جرير و الفرزدق ، أبو عبيدة معمر بن المثنى ، وضع حواشيه خليل عمران المنصور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .
- ٨٠- هداية الحيارى في أجوبة اليهود و النصارى ، ابن القيم ، تحقيق و دراسة د/ محمد أحمد الحاج ، دار القلم ، دمشق ، و الدّار الشاميّة ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٦هـ .
- ٨١- الوافي في العرّوض و القوافي ، الخطيب التبريزي ، تحقيق د / فخر الدين قباوة ، دار الفكر ، دمشق ، سورية ، الطبعة الرابعة ، ١٤٠٧هـ .
- ٨٢- وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان ، ابن خلكان ، تحقيق د/ إحسان عباس ، دار صادر ، و دار الثقافة ، بيروت ، لبنان .
- ٨٣- [http : //www.islameiat.com/ramadan/article.php?sid= 31](http://www.islameiat.com/ramadan/article.php?sid=31)
- ٨٤- [http : //www.heartsctions.com/courage.htm](http://www.heartsctions.com/courage.htm)

* * *

فَهْرَسْتِ الْمَحْتَوِيَّاتِ

فَهْرَسْتُ الْمَحْتَوِيَّاتِ

ج	ملخص الرسالة باللغة العربية
د	ملخص الرسالة باللغة الإنجليزية
هـ	المقدمة
١	التَّمْهِيد
٢	التَّقَائِضُ : أ - الأَصْلُ اللُّغَوِيُّ
٣	ب - التَّشْأَةُ
٤	ج - مَقَوِّمَاتُ التَّشْأَةِ
٩	من رموز التَّقَائِضِ
١٤	توظيف الأخطل لبعض المعاني الإسلامية لمصلحته ومصلحة قومه
	الباب الأول : القيم الإيمانية والسلوكية بين الإسلام والنصرانية على ضوء نقض جرير شعر الأخطل
١٦	المبحث الأول : القيم الإيمانية في الإسلام على ضوء نقض جرير شعر الأخطل
٢٠	أولاً : الأفضلية في الدنيا والآخرة
٢٤	ثانياً : الحج والتكبير والتهليل
٣٠	ثالثاً : المشاعر المقدسة
٣٣	رابعاً : السواك والنظافة والطهارة
٣٧	خامساً تلاوة سور القرآن الكريم ، واتباع هديه
٤٠	سادساً : نصره الرسول - صلى الله عليه وسلم - والتصديق به
٤٦	سابعاً : عبادة الله في المساجد
٤٨	ثامناً : اتباع سبل النبوة
٥١	تاسعاً : غشيان الملائكة قبور المسلمين ، واحتفاء الأرض بأجسادهم
٥٤	عاشراً : إعطاء المسلم كتابه يمينه
٥٦	المبحث الثاني : القيم الإيمانية في النصرانية على ضوء نقض جرير شعر الأخطل

تمهيد	٥٧
أولاً : عبادة الصَّليب	٥٩
ثانياً : أكل لحم الخنزير	٦٨
ثالثاً : قَرَع النَّواقيس	٨٢
رابعاً : لبس برانس الرُّهبان	٨٤
خامساً: عيد الفِصح	٨٥
سادساً: إتيان النَّساء في المحيض	٨٦
المبحث الثالث : القِيم السلوكيَّة في الإسلام على ضوء نقض جرير شعر الأخطل	٨٧
أولاً : الخضوع لله وحده - دون سواه- وحمده وشكره	٨٩
ثانياً : الفخر برسول الله - صلى الله عليه وسلم - وبالأمكان المقدسة	٩٠
ثالثاً : طلب الشهادة في سبيل الله ، والتضرع إليه بالدعاء سرّاً وعلانية	٩٢
رابعاً : المسلم يأتمر بكلّ ما أمر الله به ، وينتهي عن كلّ ما نهى عنه	٩٤
خامساً: كثرة الاستماع إلى آيات القرآن الكريم	٩٨
سادساً : الكرم وإقراء الضيف وحماية النازلين والدفاع عنهم	١٠٠
سابعاً : التأثير بألفاظ القرآن الكريم والحديث الشريف	١٠٥
ثامناً: العَبْرة على المحارم	١٠٩
تاسعاً: إقامة العدل واستنكار الضيم	١١٠
المبحث الرَّابع : الصِّفات السُّلوكيَّة عند نصارى تغلب على ضوء نقض جرير شعر الأخطل	١١١
تمهيد	١١٢
الصِّفة الأولى : الدِّلة ودفع الجزية	١١٣
الصِّفة الثَّانية : الختم على رقاب نصارى تغلب بطابع من الرِّصاص	١٢٢
الصِّفة الثالثة : عدم إقامة العدل وعدم استنكار الضيم	١٢٣
الصِّفة الرَّابعة : الخوف والسُّجُن	١٢٥

١٢٨.....	الصّفة الخامسة : اللّوم والحمّاقّة
١٣٠.....	الباب الثاني : القِيم الفنيّة والجماليّة
١٣١.....	المبحث الأول : المعجم اللّغويّ الشعري لجرير في نقضه شعر الأخطل
١٣٣.....	(أ) ألفاظ من جسم الإنسان وغيره
١٤٩.....	(ب) ألفاظ لبعض الأماكن والمواضع
١٥٧.....	(ج) ألفاظ الحرب في نقض جرير شعر الأخطل
١٧٠.....	(د) ألفاظ من الطبيعة في نقض جرير شعر الأخطل
١٨١.....	المبحث الثاني : بناء القصيدة
٢٠٧.....	المبحث الثالث : الصُّور والتّراكيب والإيقاع
٢٠٨.....	أولاً : الصُّور والتّراكيب
٢١٠.....	الصُّور أ- التّشبيه
٢١٣.....	ب- الاستعارة
٢١٥.....	ج- الكناية
٢١٩.....	التّراكيب ١- الطّباق
٢٢١.....	٢- المقابلة
٢٢٢.....	٣- الاقتباس
٢٢٦.....	ثانياً : الإيقاع
٢٢٧.....	تمهيد
٢٣٣.....	الوزن والقافية والبدیع في نقض جرير شعر الأخطل
٢٣٤.....	• البحور
٢٣٥.....	أولاً : بحر الكامل
٢٣٦.....	ثانياً : بحر البسيط
٢٣٩.....	ثالثاً : بحر الطويل
٢٤٢.....	رابعاً : بحر الوافر

●	جرس الألفاظ في البديع	٢٤٤.....
-	التصريح	٢٤٦.....
-	نغم الألفاظ الداخلي في حشو البيت	٢٤٧.....
-١	نغم الاسم والفعل	٢٤٧.....
-٢	نغم الفعل والاسم	٢٤٨.....
-٣	نغم الاسم والاسم	٢٤٩.....
-٤	نغم الفعل والفعل	٢٥١.....
-٥	نغم حُسن التَّقسيم	٢٥٢.....
	الخاتمة	٢٥٣.....
	فهرست المصادر والمراجع	٢٥٦.....
	فهرست المحتويات	٢٦٤.....

* * *